رقم الترتيب...../2009.....

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة زيان عاشور – الجلفة

كلية الآداب و اللغات و العلوم الاجتماعية و الإنسانية

قسم الآداب

مذكرة مقدمة بجامعة زيان عاشور

لنيل شهادة الماجستير

إعداد الطالب:

بن يوسف شتيح

بـــعنـــوان

ظاهرة التطور اللغوي عند "يوهان فك" من خلال كتابه "العربية"

نوقشت يوم: ...../...../..... أمام اللجنة المكونة من :

د/محمد خليفة	رئيسا
د/ مسعود صحراوي	مشرفا و مقررا
د/ ناصر حميد خوجة	مناقشا
د/ بشير بديار	مناقشا
د/ محمد الأمين خويلد	مناقشا

إهداء

إلى أمي الحنون التي مازالت تمدني بفيض حنانها و تكلؤني بدعواتها
أطال الله في عمرها
إلى والدي محمد رحمه الله و طيب ثراه و جعل الجنة مثواه
إلى خالي زقنيني مبروك الممتحن الصابر
إلى إخوتي و أخواتي الناصر سحيري و أسرته و عبد القادر
و الطيب الطيب و فاطنة و عائشة و أسرهم
إلى الزوجة الصاحبة الضاوية خلف التي فضلها لا ينكر في هذا الإنجاز
إلى أولادي مهجة الفؤاد إستغفار و حبيب الله الحباب و سجود
إلى الشيخ الفقيه الذي ملأ بعلمه و فقهه هذه الربوع زقنيني دهينة
إلى الحاجة عائشة غربي تغمدها الله بواسع رحمته و شآبيب غفرانه
إلى رفيق دربي أخي و صاحبي في السراء و الضراء منذ أكثر
من ربع قرن عبد الرحمان عبدي حفظه الله و رعاه
إلى مشائخي و من علمني و رباني في صغري و كبري
إلى أصهاري و أهليهم و أحبابي و أصدقائي
أهدي هذا العمل المتواضع

شكر وعرفان

أتقدم بالشكر الجزيل والإمتنان العريض إلى أولائك الذين وجدت فيهم السند والمدد، والنصح والإرشاد الخالص، كي أمضي نحو هدفي دون كلل ولا ملل، واثق الخطى، عالي الهمة..

فما خطه القدر لي على أيديهم كان نعمة مضاعفة. و في مقدمتهم سيدي الكريم المشرف الدكتور صحراوي مسعود الذي رافقني طيلة فترة الإنجاز لهذا المشروع فاتحا قلبه وبيته، تشملني رعايته وكرمه، فكانت توجيهاته القيمة ونظراته الثاقبة نبراسا يضيء لي طريق المضي نحو الأفضل، فالله أسأل أن يحفظه ويرعاه، ويسدد خطاه، ويقضي حوائجه، ويحقق مناه، ويحفظ أهله وأولاده، إنه سميع قريب.

أتقدم إلى كافة أساتذة جامعة "زيان عاشور" بالجلفة قسم اللغة العربية وآدابها التي شرفت بالإنتساب إليها، إلى أولائك الذين قضوا الساعات تلو الساعات أمام الحاسوب يكتبون ويدققون ويرتبون حتى يخرج البحث في أبهى حلته، وأفضل صورته، إلى الأخ الكريم شريفي عبد القادر الذي قضى سنوات من عمره مهاجرا في ألمانيا، فاستفدت من خبرته باللغة الألمانية وزودني بترجمة ما أحتاج إليه في هذا البحث.إلى الأستاذة الكرام الذين جلبوا لي من خارج الوطن ما أحتاج إليه من مراجع . وإلى جميع أساتذة جامعة عمار ثليجي بالأغواط قسم اللغة العربية وآدابها وإلى كافة عمال المكتبة بشقيها الداخلي والخارجي وعمال مكتبة بن كريو على تعاونهم المشهود في توفير المراجع التي يسرت لنا طريق البحث. وإلى الأخ الصديق بشير نعومي وإلى الأخ الكريم العيدودي محمد.

والشيخ العارف الزاهد الحاج علي نعاس.

شكر وعرفان

أتقدم بالشكر الجزيل والإمتنان العريض إلى أولائك الذين وجدت فيهم السند والمدد، والنصح والإرشاد الخالص، كي أمضي نحو هدفي دون كلل ولا ملل، واثق الخطى، عالي الهمة..

فما خطه القدر لي على أيديهم كان نعمة مضاعفة. و في مقدمتهم سيدي الكريم المشرف الدكتور صحراوي مسعود الذي رافقني طيلة فترة الإنجاز لهذا المشروع فاتحا قلبه وبيته، تشملني رعايته وكرمه، فكانت توجيهاته القيمة ونظراته الثاقبة نبراسا يضيء لي طريق المضي نحو الأفضل، فالله أسأل أن يحفظه ويرعاه، ويسدد خطاه، ويقضي حوائجه، ويحقق مناه، ويحفظ أهله وأولاده، إنه سميع قريب.

أتقدم إلى كافة أساتذة جامعة "زيان عاشور" بالجلفة قسم اللغة العربية وآدابها التي شرفت بالإنتساب إليها، إلى أولائك الذين قضوا الساعات تلو الساعات أمام الحاسوب يكتبون ويدققون ويرتبون حتى يخرج البحث في أبهى حلته، وأفضل صورته، إلى الأخ الكريم شريفي عبد القادر الذي قضى سنوات من عمره مهاجرا في ألمانيا، فاستفدت من خبرته باللغة الألمانية وزودني بترجمة ما أحتاج إليه في هذا البحث.إلى الأستاذة الكرام الذين جلبوا لي من خارج الوطن ما أحتاج إليه من مراجع . وإلى جميع أساتذة جامعة عمار ثليجي بالأغواط قسم اللغة العربية وآدابها وإلى كافة عمال المكتبة بشقيها الداخلي والخارجي وعمال مكتبة بن كريو على تعاونهم المشهود في توفير المراجع التي يسرت لنا طريق البحث. وإلى الأخ الصديق بشير نعومي وإلى الأخ الكريم العيدودي محمد.

والشيخ العارف الزاهد الحاج علي نعاس.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي بنعمه تتم الصالحات، الحمد لله الذي إذا أراد شيئا هـ يأ له الأسـباب، سبحانه من رب غفور تواب، عزيز وهاب، خلق فسوى وقدر فهدى، أخرجنا مـن بطون أمهات لا نعلم شيئا، فجعل لنا السمع والأبـصار والأفئـدة، فـ تعـالى الله لا نحصي ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه، فضله علينا واسع، وعجزنا عن شـكره ظاهر، سبحانه القائل (اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادي الشكور) [سـبأ13]. والقائل (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم) [النمل 18].

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، معلم الناس الخير، أرسله ربه هاديا وبشيرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، وعلـى آلـه وصـحبه وأزواجه وذريته، ومن استن بسنته، واهتدى بهديه إلى يوم الدين. وبعد

يكاد يجمع الباحثون على أن اللغات كائن حي ينمو ويتطور، تحت تأثير عدد من العوامل والأسباب، مستجيبة لظروف الزمان والمكان، والإنسان، وهي لا تسير في حياتها على نحو من الصدفة المطلقة، ولا تخبط في تنقلها على ألسنة النـاطقين بها خشواء، بل يحكمها في هذا وذاك قوانين تكاد تـ رقى إلى مكانـة القـوانين الطبيعية، ثباتا وقوة، ولا يعني جـ لها بهذه الـ قوانين في بعض الأحيـان أنهـا غيـر موجودة. ومهمة العلم أن يكشفها ويبحث عنها ولا يخترعها، ويميط اللثام عنها ولا يتحكم فيها، ومن المهم أن نعرف أن الظاهرة اللغوية حرة الحركة يمكن لها أن تتجه إلى أية جهة شاءت، من جهات التطور غير أنها لا تولي وجهها إلا وهي محكومـة بقانون لغوي معين.

ولا يمكن أن ندرس الظواهر اللغويـة، ولا نـستطيع أن نحـدد منطلقاتهـا، واتجاهاتها إلا باستصحاب الخصائص الذاتية، والطبيعية للغة، فهي تحيا على ألسنة الناس في أحضان المجتمع وتستمد كيانها منه؛ من عاداته وتقاليده، وسلوك أفـراده، كما أنها تتطور بتطوره وتوقى برقيه، وتنحط بانحطاطه . فليست اللغة من صنع فرد

أو أفراد، وإنما هي نتيجة حتمية للحياة في مجتمع يجد أفراده أنفسهم في حاجة ماسة إلى وسيلة للتفاهم، والتعبير عما يجول في النفس، تلك الوسيلة هي اللغة، وهي عرضة للتطور المطرد في مختلف عناصرها :أصواتها وقواعدها، ومتنها، ودلالاتها،والتطور لا يجري تبعا للأهواء، والمصادفات أو وفقا لإرادة الأفراد، وليس في قدرة أحد أن يوقف هذا التطور مهما بذل من جهد.

ويعد المستشرقون من بين الباحثين الذين تناولوا اللغة العربية وظواهرها بالدراسة الفاحصة المتأنية، وأدركوا ما تمتلكه العربية من الخصائص والميزات، ما لا تمتلكه غيرها من اللغات السامية، واتسم فريق منهم بالإنصاف والحياد العلمي في بحثه في التراث العربي والإسلامي، حيث تفاوتت المدارس الاستشراقية في هذا الشأن، فكانت المدرسة الألمانية أقرب إلى هذه النظرة العلمية الخالية إلى حد كبير من الخلفيات الإيديولوجية وخاصة بعد الاقتراب من أبرز روادها، والإطلاع على شيء من إسهاماتهم في الدراسات اللغوية الأدبية، ومن بينهم المستشرق الألماني "يوهان فك" "Johann fuck" الذي ذهب مذهبا متفردا في دراسة اللغة العربية دراسة تاريخية تطورية، وبذل جهدا استقرائيا، استقصائيا منقطع النظير في نظر ثلة من النقاد، حيث تتبع في كتابه : "العربية" حياة اللغة العربية منذ أقدم عصورها، ودرس العوامل المختلفة التي أثرت في نموها، وتطورها عبر التاريخ، وتعقب الأخبار التي تروى عن وقوع اللحن في العربية موضحا جهود علمائها في التنقية اللغوية.

وبعد النظر الفاحص في الكتاب تبين لنا أن التطور هو الفكرة المركزية التي بنيعليها عمل الكتاب . فهل يمكن اعتباره نموذجا استشراقيا في الدراسة التاريخية للغة العربية؟ وهل يمكن اتخاذ جهود المستشرقين في الدراسات اللغوية أصلا يرجع إليه في البحث اللغوي، ورصد ظواهر اللغة العربية؟ وإلى أي مدى أفلح المؤلف في عملية الاستقراء التاريخي لحياة العربية؟ وهل استفاد من مناهج أخرى؟ وكيف وظفها؟ وما هو مفهوم التطور عنده؟ وما هي مظاهره وعوامله ومستوياته؟ وما هي

العلاقة بين ظاهرتي اللحن والتطور اللغوي؟ وما هي جهود اللغويين في حركتهم نحو التنقية اللغوية؟ وما هي وجهة نظر فريق الـ مخطئين، وفريق المصوبين في ذلك؟ وهل يمكن الخلوص إلى دراسة مقارنة في دراسة ظاهرة التطور اللغوي بين علماء العربية والمستشرقين؟.

للإجابة عن هذه التساؤلات وغيرها كان هذا الموضوع الذي تناول قضية محورية في كتاب "يوهان فك" وهو التطور اللغوي بحثا عن المفهوم والقوانين والمظاهر لهذه الظاهرة.

ومبررات البحث في هذا الموضوع وإثارة هذا الإشكال كثيرة نوجزها فيما يلي:

1. قلة الدراسات حول ظاهرة تطور اللغة العربية.
2. قلة الدارسين لكتاب "العربية" ليوهان فك.
3. إثراء الدارسات حول ظاهرة الاستشراق والمستشرقين.
4. الكشف عن الأسلوب الذي تناول به المستشرقون الألمان اللغة العربية.
5. التعرف عن قيمة الجهود والإسهامات التي قدمها المستشرقون للتراث العربي.
6. التقييم العلمي للجهود الاستشراقية في تناول الظواهر اللغوية العربية.
7. اختلاف الدارسين حول ظاهرة اللحن بين متشددين ومتساهلين.
8. اضطراب الحدود الواضحة، والضوابط المتحكمة في ظاهرة التطور اللغوي.
9. ضمور الدراسات التاريخية في الدرس اللغوي، لهيمنة مناهج أخرى على الدراسات اللغوية المعاصرة.
10. عدم التفريق بين ما هو لحن في الاستعمال اللغوي، وما هو من قبيل التطور اللغوي.
11. الخلط بين مستويات الاستعمال اللغوي، والترخص في شروط الفصاحة المجمع عليها تحت غطاء التطور اللغوي.

وقد ناقشنا هذا الموضوع من خلال مدخل وثلاثة فصول وخاتمة : أما المدخل فقد تناول ظاهرة التطور اللغوي أسسها الفلسفية وخلفياتها المعرفية، وبينا فيه مفهوم

التطور في اللغة والاصطلاح، وخلفيته الفلسفية، ثم ظاهرة التطور في اللسان البشري على اعتبار أن التطور سنة من سنن الخلق، ثم تحدثنا عن الدرس اللغوي بين المنهج التطوري التاريخي، والمنهج المقارن وثمارهما على البحث اللغوي.

وأما الفصل الأول فكان البحث فيه عن اللغة العربية بين ظاهرتي اللحن والتطور اللغوي، ناقشنا فيه مفهوم اللحن وأسبابه ومستوياته، ثم عرجنا على حركة التأليف في التنقية اللغوية ومناهجها المختلفة بين القدامى والمحدثين، ثم كان بحثنا فيمفهوم التطور اللغوي، وعوامله، ومستوياته ، ومظاهره. وأما الفصل الثاني فدارت مباحثه حول المدرسة الاستشراقية الألمانية في أبرز روادها الذين تركزت إسهاماتهم حول قضايا اللغة العربية وظواهرها، فذكرنا منهم :بروكلمان وفيشر، ونولدكه، وبرجشتراسر، وغيرهم، ثم كان الوقوف عند المستشرق الألماني "يوهان فك"أهم محطات حياته وآثاره العلمية ،ثم عرجنا على كتابه "العربية" لبيان منهجه ومحتوياته ثم عرضنا لقيمة الكتاب، وآراء النقاد والدارسين فيه . وفي الفصل الثالث كان البحث عن التطور اللغوي عند "يوهان فك" فبحثنا عوامل التطور ومظاهره ومستوياته؛ المعجمية والدلالية والصوتية وغيرها في كتابه "العربية".

وكان المنهج المتبع في هذه الدراسة موزعا بين **المنهج التاريخي** على اعتبار أن البحث يدور حول التطور فهو في أحضان التاريخ .**والمنهج التحليلي** حيث عمدنا إلى الكثير من الشروحات والتعليقات على أغلب قضايا الموضوع لاسيما عند تحديد المفاهيم وشرح المصطلحات . **والمنهج الوصفي** خاصة عند بحثنا لظاهرة اللحن ووصفنا لها من خلال الواقع اللغوي أثناء الاستعمال، والتفصيل في المستويات اللحنية: صوتية أو صرفية أو نحوية أو دلالية.

لقد كان المعول في هذا البحث على عدد معتبر من المصادر والمراجع المتنوعة بين معاجم وكتب فلسفية، ومصادر في التنقية اللغوية كدرة الغواص للحريري،والبيان للجاحظ، وعدد من كتب لحن العامة، كإصلاح المنطق لابن السكيت، وأدب الكاتب لابن قتيبة . كما تم الاعتماد على دراسات حول التطور

اللغوي، وبعض كتب علم الدلالة، وكان التركيز على مجموعة من المؤلفات حـــول الظاهرة الاستشراقية وجهود المستشرقين اللغوية ككتاب : الاستشراق لإدوارد سعيد، والمستشرقون لعبد الرحمن بدوي، وكتاب المستشرقون والمناهج اللـ غوية لإسماعيل عمايرة وغيرها ..

ومن المعلوم أن كتاب "العربية" ترجم مرتين: الأولى لعبد الحليم النجار ســـنة 1951، والثانية لرمضان عبد التواب سنة 1980، وكان الا عتماد في هذه الدراســـة على ترجمة رمضان نظرا لجملة من المبررات منها:

1. كونها ترجمة متأخرة عن ترجمة النجار بحوالي ربع قرن وتلك فترة ساهمت في نضج الدرس اللغوي ومناهج بحثه وآفاق مدارسته.
2. لأن رمضان عبد التواب مكثر من الدراسات حول ظاهرة التطور اللغوي.
3. اعتماد رمضان عبد التواب على ترجمة النجار وإفادته منها إفادة ملحوظـــة أشار إليها في الكثير من الهوامش من ترجمته.
4. الرابطة الوثيقة، والصداقة الحميمة التي كانت تربط المترجم بالمؤلف.
5. قضاء رمضان عبد التواب شطرا من حياته العلمية في ألمانيا طالبا يعد رسالة الدكتوراه، ولا شك أنه قد خبر اللغة الألمانية هناك.
6. اعتماد عدد من الباحثين على ترجمة عبد التواب فكانت كثيرة التداول.
7. الأسلوب الأخاذ والسهل الذي امتازت به هذه الترجمة.

وقد واجهتنا في طريق البحث جملة من الصعوبات منها:

1. ندرة الدراسات التي تناولت كتاب "العربية" "ليوهان فك" بالنقد والتحليل.
2. قلة المراجع التي تدرس التطور اللغوي من جميع جوانبه، وبشكل واف.
3. حساسية موضوع الظاهرة الاستشراقية على اعتبار أنها لا تخلو من الأدلجة، وبعدها في أحيان كثيرة عن الروح العلمية إلا ما ندر.
4. عدم الإطلاع على كافة آراء يوهان فك في ظاهرة التطور لاكتمال الـ رؤيـــة التي توخاها في كتابه "العربية".

قلة المترجمين للكتاب مما جعل كل المستفيدين منه عالة على الترجمتين المذكورتين.

6. عدم توفر الكتاب لدينا في أصله الألماني.

وأملنا أن يكون هذا البحث قد ساهم في استجلاء بعض القضايا حول ظاهرة التطور اللغوي عند "يوهان فك" في كتابه "العربية" وأثرى ما يمكن أن يثرى حول ما اعتبره الباحثون من أهم ظواهر اللغة العربية فما كان من سداد فمحض توفيق الله تعالى، وما كان من شطط فمن نفسي والله من وراء القصد وهو وحده الهادي إلى سبيل الرشاد.

أوت 2008 م

شعبان 1429 هـ

المدخل : ظاهرة التطور اللغوي أسس ومخلفات

1) **مفهوم التطور في اللغة والاصطلاح**
2) **الأسس الفلسفية لظاهرة التطور**
3) **ظاهرة التطور في اللسان البشري**
4) **الدرس اللغوي بين المنهج التاريخي والمنهج المقارن**

تمهيد :

إن من شأن الإنسان والكون والحياة الثبات والتغ ير، والمرونة والتطـور، أو خضوع الحياة والأحياء إلى ناموس التحول والتبدل مـن جهـة وقـانون الثبـات والاستقرار من جهة أخرى . فإذا كان التطور قانونا قائما في الكون والحياة، فالثبات قانون قائم فيها كذلك بلا مراء، بمعنى أن هاتين الظاهرتين لا تسيران سيرا عبثيـا اعتباطيل بفعل قوانين حاكمة و ونلميس فاعلة هادية، وذلك ما انجذب نحو ه العلماء متأملين ومنظرين في الماهيـة والـشروط، والمظـاهر والظـروف، والمعـالم، والمحددات، والخلفية المعرفية، والأطر النظرية الابستيمولوجية، وقد اختلفت الآراء في دراسة ذلك كله وتباينت النظريات والمدارس العلمية والفلـسفية أثنـاء التعليـل والتفسيل إذا كان في الفلاسفة من قديم، من قال بمبدأ الصيرورة والتغير باعتبار ه القانون الأزلي الذي يسود الكون كله، فإن فيهم من نادي بعكس ذلك واعتبر الـ ثبات هو الأساس، والأصل الكلي العام للكون كله، والحق أن المبدأين كليهما من الثبـات والتغير يعملان معا، في الكون والحياة، كما هو مشاهد وملموس . ولا يهمنا في هذا السياق أن نخوض في آراء كل فريق بقدر ما يهم أن ظواهر الكون ومنها ظـاهرة التطورأقدبحت ظاهرة تدرس، ونظرية تبحث وفق أسس العلم الحديث ومدارس ه المختلفة ومناهجه المتباينة.

وفي هذا المدخل سنحاول تحديد المفهوم للتطور فـي اللغـة والاصـطلاح، ونبحث في أسالفلسفية، ثم نتحدث عن ظاهرة التطور في اللسان الـ بشري، ونشير إلى بعض مناهج البحث اللغوي التي يشكل عامل التطور فـي بعـضها الأسـاس النظري كما في المنهج التاريخي التطوري، والمنهج المقارن الذي يـ عد امتـدادا لـه وأهم الفوائد والثمار لهذين المنهجين على الدرس اللغوي.

1. مفهوم التطور في اللغة والاصطلاح

أ. مفهوم التطور في اللغة

ذكر صاحب اللسان مادة "طور" فقال: "طور: الطور: التارة، نقول طورا بعد طور أي تارة بعد تارة. قال النابغة الذبياني:

تناذرها الراقون من سوء سمها *** تطلقه طورا وطورا تراجع

وجمع الطور أطوار، والناس أطوار أي على حـ الات شتى. والطور: الحال، قال تعالى: ﴿قد خلقكم أطوارا﴾معناه ضروبا وأحـ والا مختلفة كل واحد على حـدة. والأطوار: الحالات المختلفة والتارات والحدود، و احدها طور أي مرة ملك ومـرة هلك ومرة بؤس ومرة نعم . والطور: الحد بين الشيئين، وعدا طوره أي جاوز حده وقدره، وبلغ أطوريـه أي غايته يحاوله، وبلغ فلان في العلم أطوريـه أي حديـه أوله وآخره..وفي حديث النبيذ : تعدى طوره أي حده وحاله الذي يخـصه ويحـل فيـه شربه"[1]وقد أورد الجوهري في الصحاح نفس المعا ني لهذه المادة (طور)[2]. وقـال صاحب القاموس: "الطور: التارة جـ أطوار وما كان على حـد الـشيء أو بحـ ذائـه كالطور والطوار، والحد بين الشيئين والقدر والحوم حول الشيء، كالطوران، وطوار الدار ما كان ممتدا معها، والطوري الوحشي، وما بها طوري، وطـوراني أحـد، والطور الجبل وفنا ء الدار.وبلغ في العلم أطوريـه بفتحها وقـد تكـسر أي أولـه وآخره"[3].

والمادة "طور" يصاغ منها الفعل لازما كان أم متعديا فيقال: تطور وطـور ومثاله:تطورت الدولة اقتصاديا ، أي تحول وضعها الاقتصادي من حال إلى حـال وطور الطالب من قدراته ومواهبه أي انتقل بها من طور إلى طور ومن مستوى إلى مستوى أفضل.

---

[1] - ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1 1955، ج4، ص 507-508.

[2] - الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تح أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط2، 1979، ج1، ص 726- 727.

[3] - الفيروز آبادي، القاموس المحيط، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1995، ج2، ص 152.

وذكر ابن فارس في معجمه "طور: الطاء والواو والراء، أصل صحيح يدل على معنى واحد وهو الامتداد في شيء، من مكان أو زمان، من ذلك طوار الدار وهو الذي يمتد معها من فنائها ولذلك يقال عدا طوره، أي جاز الحد الذي له من داره، ثم استعير ذلك في كل شيء يتعدى . والطور: جبل فيجوز أن يكون علما موضوعا، ويجوز أن يكون سمي بذلك لما فيه من امتداد طولا وعرضا، ومن الباب قولهم ذلك طورا بعد طور، فهذا هو الذي ذكرناه من الزمان، كأنه فعله مدة بعد مدة، وقولهم للوحشي من الطير وغيرها طوري وطوراني فهو من هذا كأنه توحش فعدا الطور أي تباعد عن حد الأنيس"[1].

وإذا نظرنا في بعض المعاجم المعاصرة للمادة "طور" فإن المعنى يكاد يتقارب ويتقاطع ففي المعجم الوسيط : "طوره: حوله من طور إلى طور، وهو مشتق من الطور، وتطور تحول من طور إلى طور، والتطور التغير التدريجي الذي يحدث في بنية الكائنات الحية وسلوكها، ويطلق أيضا على التغير التدريجي أي يحدث في تركيب المجتمع أو علاقاته أو النظم أو القيم السائدة فيه، والطوار بفتح الطاء وكسرها الحد والقدر، وطوار الدار: ما كان ممتدا معها من الفناء، وطوار الطريق جانبه المرتفع قليلا يمشي فوقه المشاة (ونسميه الرصيف)، وكل شيء ساوى شيئا فهو طوار له، والطوارئ: المرة والتارة، والحد وما كان على حد الشيء أو بحذائه، ويقال: عدا طوره أي جاوز حده وقدره والصنف والنوع والحال والهيئة . ج أطوار وفي التنزيل (وقد خلقكم أطوارا). والطور: الجبل..والطوراني نسبة إلى الطور (على غير قياس)، والطوراني: الوحشي من الناس والطير، والطور : فناء الدار ج أطوار"[2].

---

[1] - أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تح عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991، ج3 ، ص 330 - 331.

[2] - إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، دار المعارف، القاهرة، ط3، 1982، ج2، ص 569- 570.

ب. مفهوم التطور في الاصطلاح

كثيرا ما يقع الخلاف بين الباحثين في تحديد المفاهيم وضبط التعريفات للمصطلحات ذات الطابع الفلسفي والعلمي واللساني، ومصطلح التطور ليس بعيدا عن هذا الخلاف فقد عرف بعدة تعريفات بعضها يقترب من بعض، وسنقتصر على ذكر شيء منها وصولا إلى المفهوم الشامل والتعريف الجامع المانع.

1. مفهوم التطور عند القدامى

يرى أرسطو في فلسفته حول التطور معنى خاصا وهو: " الانتقال من ضد إلى آخر وله ثلاثة أنواع : الأول: هو الانتقال من اللاموجود إلى الوجود، وهو التولد، أو الحدوث، أو الكون، والثاني : هو الانتقال من الوجود إلى اللاوجود، وهو الموت أو الفناء، والثالث: هو الانتقال من الوجود إلى الوجود، وهو الحركة"[1].

وعرف الإمام المناوي التطور بقوله:"التنقل من هيئة وحال إلى غيرها، و منه تطور الملك والولي "[2] ن ومن التطور ما يكون في الجوهر وسمي بالكون المطلق والفساد المطلق، ومنه ما يكون في الكيف وسمي الاستحالة ومنه ما يكون في الكم وسمي نموا ونقصا ومنه ما يكون في المكان وسمي انتقالا ومنه ما يكون في الزمان وسمي تتابعا، فإذا تطور الشيء دفعة واحدة كان تطوره دفعيا، وإذا تطور شيئا فشيئا كان تطوره تدريجيا"[3] .

كما اقترب مفهوم التطور من مفهوم التبدل والتحول والتغير "فمذهب التبدل أو التحول هو المذهب القائل بأن الأنواع الحية لا تثبت على حال واحدة بل تتبدل وتتغير بعضها إلى بعض، وهذا قريب من مذهب التطور، إلا أنك إذا جعلت تنوع الأحياء عاملا من عوامل تبدلها كالمؤالفة والتكيف والاصطفاء والانتخاب كان التبديل في علم الحياة أعم من التطور . وإذا جعلت التطور قانونا عاما يشمل ظواهر

---

[1] - جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج1، ص 311.

[2] - عبد الرؤوف بن المناوي، التوقيف على مهمات التعاريف، تح عبد الحميد صالح الحمدان، عالم الكتب القاهرة، ط1، 1990، ص 100.

[3] - جميل صليبا، المعجم الفلسفي، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، 1994، ج1، ص 311.

الكون كلها المادة والحياة والعقل والمجتمع كان معناه أعم من التبدل .. ومعنى ذلك أن التطور مذهب فلسفي عام، وأن التبدل مذهب طبيعي خاص"[1].

2. مفهوم التطور عند المحدثين

عرفه المجمع القاهري : "تطور Evolution: نمو بطيء متدرج يؤدي إلى تحولات منظمة ومتلاحقة تمر بمراحل مختلفة يؤذن سابقها بلاحقها، كتطور الأفكار والأخلاق والعادات، ولا يكون التطور مسبوقا بتخطيط ولا مستهدفا لغاية على عكس "التقدم" وهو في الجملة انتقال من المختلف إلى المؤتلف، ومن غير المتجانس إلى المتجانس، ومن اللامحدود إلى المحدود، أو بالعكس . ولا يتضمن التطور في ذاته فكرة التقدم أو الهدف وإنما يعبر عن التحولات التي يخضع لها الكائن العضوي أو المجتمع سواء أكانت ملائمة أم غير ملائمة "[2]. وسم التطور في هذا التعريف بالبطء والتدرج والتحول المنتظم المتلاحق الذي تربطه قوانين تسيره بعيدا عن العشوائية والعفوية. والتطور ذو مراحل يرتبط بعضها ببعض ارتباطا عضويا بحيث كل مرحلة تسلم إلى التي بعدها، أما مجالاتها فهي الأفكار والعادات والسلوكات والنظم وغيرها إلا أنه يسير دون ترتيب مسبق أو تخطيط قد هيئ سلفا. وهو يختلف اختلافا جوهريا مع "التقدم" الذي رسمت معالمه وهيئت خطته وعبدت مسالكه قبلا . ففي المعجم الفلسفي عرف التقديم progrès "بوجه عام مجرد السير إلى الأمام في اتجاه معين دون حكم على قيمة هذا السير . وبوجه خاص انتقال تدريجي من الحسن إلى الأحسن كالتقدم العلمي والتقدم الحضاري، ويتميز التقدم بخاصتين، الأولى : أنه مسبوق بتخطيط، الثانية أنه يستهدف غاية على غير الحال في التطور . وكثيرا ما تربط فكرة التقدم بالحتمية التاريخية، وبأن كل تطور يقود دائما إلى الأحسن، وتلك فكرة لا تخلو من معارضة"[3] وفيه إشارة واضحة إلى التباين بين التطور والتقدم.

---

[1] - المرجع السابق، ص 236.

[2] - مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة 1983، ص47.

[3] - المرجع السابق، ص 51.

ويحتك التطور في معناه بعدة مصطلحات أخرى تحمل نفس الدلالة، كالتغير والتحول "فالتغير Changement تحول صفة أو أكثر من صفات الشيء أو حلول صفة محل أخرى وهو أنواع: تغير في الكيف ويسمى الاستحالة أو في الكم بالزيادة والنقص، أو في المكان ويسمى الانتقال . أما التغير في الجوهر فهو تغير بالكون أو الفساد"[1].

ويقترب ذلك مع مفهوم التحول transformation والتحويلية transformisme وهو"نظرية بيولوجية تذهب إلى أن أنواع الأحياء غير ثابتة بل بالعكس قابلة للتحول من نوع إلى آخر، وهي أضيق مجالا من مذهب التطور "[2].

وفي هذا التعريف إ شارة إلى أن التطور أصبح مذهبا ونظرية عرف بمذهب التطور Evolutionisme وهو: "مذهب يعتمد على فكرة التطور، ويؤيد الصيرورة والتحول، ويذهب إلىأن القانون العام لنمو الكائنات يتلخص في تنوع وتكامل مستمرين"[3].

ففي تعريف التحول والتحويلية بيان أن التطور أوسع منه مجالا وأشمل مفهوما، حتى أصبح نظرية ومذهبا له رواده وفلاسفته وأسسه النظرية وقوانينه التي تحكمه"وقد اتخذ أهل زماننا من هذا الاسم فعلا جديدا، فقالوا: طور الشيء نقله من طور إلى طور، وتطور أي انتقل من طور إلى طور، كل واحد على حدة، واشتقوا من فعل طور اسم التطوير ومن فعل تطور اسم التطور "[4]. كما عرف التطور من الناحية الفلسفية على عدة معان كما في الفلسفة الحديثة "الأول هو النمو، والمقصود به أن ينتقل المبدأ الداخلي من حال الكمون إلى حال الظهور، حتى يبلغ نهايته، كمبدأ الحياة الذي ينمو وينبسط، فيخلق في المادة أطوارا مختلفة، كالنطفة، والعلقة، والمضغة، والعظام والعضلات ..الخ والثاني هو التبدل التدريجي البطيء

---

[1] - مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الفلسفي، ص50.

[2] - نفس المرجع، ص 41.

[3] - نفس المرجع، ص 175.

[4] - جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج1، ص293.

بتأثير الظروف الخارجية. والثالث هو التبدل الموجه إلى غاية ثابتة على مراحل متعاقبة يمكن تحديدها مسبقا . والرابع هو الانتقال من البسيط إلى المركب، ومن المتجانس إلى غير المتجانس، أو من الأكثر تجانسا إلى الأقل تجانسا وهو المعنى الذي ذهب إليه "هربت سبنسر" بقوله: "التطور هو إتمام وإكمال المادة مصحوب بتبديد الحركة، تنتقل المادة خلاله من حالة التجانس غير المعين، وغير الملتحم، إلى حالة من اللاتجانس المعين والملتحم، بحيث تخضع الحركة المتبقية فيه لتبديل مواز"[1]. وعند بعض الباحثين نجد أن التطور إما فرديا وإما نوعيا فالأول "نمو الفرد انتقاله من نقطة الابتداء الوحيدة الخلية إلى سن الرشد الكثيرة الخلايا " والثاني"تبدل النوع الواحد إلى أنواع كثيرة مختلفة".

هذا وإن كانت الوجهة الأولى تحديد المفهوم الاصطلاحي للتطور إلا أن هذا الاستطراد في بيان مفاهيم لمصطلحات أخرى لها صلة وثيقة به فكان الغرض إثبات هذه الصلات من جهة، والخلو صنأ لفظ التطور يحـ إليها ويـ غنى عن بعضها أحيانا من جهة ثانية . كما أن بعض المعاجم الفلسفية تشير إلى ضرورة مراجعة هذه المصطلحات لضبط مدلولاتها فعند شرح لفظ التبدل والتبديل مثلا يطلب مراجعة لفظ التطور، وعند شرح لفظ التطور يطلب النظر في معنى التغير والتحول.. وهكذا.

وعليه: هل يمكن أن نخلص إلى مفهوم اصطلاحي شامل للتطور؟ أو أن نختار من التعاريف الواردة أجمعها وأشملها؟

والذي يظهرعد إيراد هذه الـ مفاهيم مع شيء من المقارنة والمقابلة أن التعريف الذي يبد ولما بالعناصر الأساسية التي يـ تحدد بها مفهوم التطور اصطلاحا هو تعريـ مجمع اللغة العربية بالقاهرة وهو : " نمو بطيء متدرج يؤدي إلى تحولات منظمة ومتلاحقة، تمر بمراحل مختلفة يؤذن سابقها بلاحقها كتطور الأفكار والأخلاق والعادات، ولا يكون التطور مسبوقا بتخطيط ولا مستهدفا لغاية"[2]. والسبب

[1] - نفس المرجع، ج1، ص 294.

2 - مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الفلسفي، ص 47.

في هذا الاختيار أن التعريف حدد ماهية التطور وأبرز حركته ونظامه، ومرحليته وارتباط حلقات النمو بعضها ببعض، كما بين أهم المجالات التي تخضع لفعل التطور وأنه حركة ذاتية لا يسيطر عليها هدف مسبق ولا تخطيط أعد سلفا.

إلا أن الذي يظهر على هذا التعريف عدم التصريح بأن التطور خاضع في الأساس إلى عوامل داخلية وأخ رى خارجية توجه حركته وتضبط مساره وهذا ما توسع في تحليله الدارسون، وعليه يمكن أنصنوغ التعريف من جديد فنقول : "التطور نمو بطيء متدرج يؤدي إلى تحولات منظمة ومتلاحقة تحت تأثير عوامل داخلية أو خارجية، تمر بمراحل مختلفة يؤذن سابقها بلاحقها من غير تخطيط مسبق ولا غاية مستهدفة".

2. الأسس الفلسفية لظاهرة التطور

ترد ظاهرة التطور إلى أصول فلسفية عريقة حتى كانت مذهبا ونظرية لها روادها ومؤسسوها. "ومذهب التطور أسلوب "Evolutionisme " مذهب قديم ترجع جذوره التاريخية إلى الفلسفة اليونانية (أميدقلوس وأرسطو) والفلسفة العربية (إخوان الصفا، وابن خلدون)، غير أنه لم يصبح مذهبا علميا إلا في العصور الأخيرة الحية بقانون تنازع البقاء، وقانون الانتخاب الطبيعي (داروين)، أو يرجعون تبدلها التدريجي البطيء إلى تأثير البيئة والور اثة (لامارك)، أو يجعلون التطور قانونا كليا محيطا بكل شيء : من السديم إلى الشمس والكواكب السيارة، ومن الأنواع الكيميائية إلى الأنواع الحية، ومن الوظائف العضوية إلى الملكات العقلية، والمؤسسات الاجتماعية عند "هربرت سبنسر فالتطور عندهم هو التنوع المصحوب بالتكامل "[1].

واللغة ضمن تلك المؤسسات الاجتماعية التي أشار إليها، وما دام التطور قانونا كليا في نظر هؤلاء الفلاسفة فإن اللغة ليست بمنآ عنه. وكل فيلسوف مؤمن بالتغير والارتقاء، أو التنوع المصحوب بالتكامل أو باتصال الأكوان، وتبدل الموجودات، واستحالة الأشياء بعضها إلى بعض، فهو فيلسوف تطوري.

[1] - المرجع السابق، ج1، ص 295.

وعلى ذكر بعض فلاسفة الفكر التطوري، وزعماء النظرية التطورية، فإننا نجد في مقدمتهم الفيلسوف الانجليزي : تشارلس داروين (1809- 1882) " العالم الطبيعي واضع نظرية في تطور الأحياء أدت به إلى نظرية فلسفية في الطبيعة، وعالج تبعا لهذه النظرية مسائل نفسية وأخلاقية .. حاول أولا دراسة الطب فلم يتذوقه، ثم عرض للاهوت في كمبردج فما لبث أن انصرف عنه . ودفعه ميله الفطري إلى الاشتراك في رحلة علمية حول الأرض دامت خمس سنوات (1831-1836م) خلالها من الملاحظات ما كان الأساس الأول لـ نظريته وقضى بعدها زهاء ربع قرن يكمل ملاحظته وتجاربه حتى أ خرج النظرية، وقضى ربع قرن آخر يدعمها ويـ جادل عنها، ويعالج في ضوئها ما يعرض له من مسائل"[1].

أخرج داروين نظريـ ته في التطور في كتابه "أصل الأنواع عن طريق الانتخاب الطبيعي أو حفظ الأجناس المنفصلة في الصراع من أجل الحياة ". أقام فيه القضايا الأساسية لمذهبه .ثم شرح أصل الحيوانات المستأنسـ ة والنباتات بالانتخاب الصناعي فيتنوّع الحيوانات والنباتات في ظل عملية الاستئناس ".وفي كتابه : سلالة الإنسان والانتخاب بالنسبة للجنس " سنة 1871 قدم عرضا عمليا لانحدار الإنسان من الأسلاف الحيوانية .. وكانت النظرية العامة لداروين مادية، فكان مفكرا جدليا، ملحدا، حيث ساهمت أعماله في ظهور البيولوجيا"[2].

وعن النموذج التطوري الداروينـي تحدث الباحثون أن داروين "أول من مزج بين الاستقراء والاستنباط في دراسة التطور محددا لنفسه هدفين اثنين : إثبات سنة التطور واكتشاف الآلية التي يجري بها التطور، ولم يتوصل إلى إيجاد حل لهذه المشكلة إلا بعد التصدي لـ مظهريها كليهما في آن واحد، فهو من جهة جمع كميات هائلة من الأحداث والوقائع التي انطلقت منها عملياته الاستقرائية فيما يتعلق بمسارها

[1] - يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار القلم، بيروت، (د،ت)، ص 350.

[2] - روزنتال يودين، الموسوعة الفلسفية، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة، بيروت، 1967، ص 192.

التطوري، ومن جهة ثانية استنبط المبدأ اللازم للانتخاب الطبيعي انطلاقا من بعض المبادئ العامة"[1]. ولا يعتبر داروين الفيلسوف التطوري الوحيد، فهناك فلاسفة آخرون بنيت فلسفتهم، وأفكارهم على هذا القانون ، ولا يسعنا المجال للتفصيل في جميع القضايا التي تناقشها هذه النظرية، ومن هؤلاء "هربرت سبنسر " (1820-1903) الذي استفاد كثيرا من بحوث داروين. " فيقدم لنا قانونه المشهور عن التطور الذي شرحه في عشرة مجلدات استغرقت أربعين عاما فيقول :" التطور تجمع لأجزاء المادة يلازمه تشتيت أو تبديد للحركة، تنتقل المادة خلاله من حياة التجانس المنقطع غير المحدود إلى حالة التباين المتلاصق المحدود . فقد كان السديم الأول مركبا من مادة متجانسة يشبه بعضها بعضا، ولكنها سرعان ما تنوعت إلى غازات وسوائل وأجسام صلبة. فأصبحت الأرض خضراء والجبال والبحار في صورة متغيرة حتى اللغة الواحدة البسيطة التي تملأ قارات بأسرها باللهجات الكثيرة المتزايدة، والعلم الواحد الذي يتفرع عنه مائة علم، والأساطير الشعبية لشعب ما كيف تنمو وتزدهر إلى ألوف الأنواع من الفن الأدبي "[2]. لقد أكد الباحثون أن نظرية التطور عند داروين قد درست في حقول معرفية كثيرة كعلم النفس وعلم الاجتماع وغيرها بما سماه بعضهم بالداروينية الاجتماعية [3].والنفسية[4] والأخلاقية[5]. وعن الداروينية الحديثة تحدث بعض الدارسين فاعتبرها "نظرية في الوراثة وصفها "وزمان" العالم الإحيائي الألماني (1824- 1914) فذكر إمكانية انتقال التغيرات الحاصلة من السلف إلى الخلف، على أن الخلايا التناسلية تقابل سائر خلايا الجسم، وهي الأصل في استمرار النوع، وما سواها من الخلايا مجرد غلاف فردي قابل للتلف"[6].

---

[1] - داروين ، أصل الأنواع، الأنيس، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1991، ص XXVI.

[2] - ول ديورانت، قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي، ترجمة فتح الله محمد المشعشع، مكتبة المعارف، بيروت، ط4، 1982، ص 470-471.

[3] - ينظر روزنتال بدوين، الموسوعة الفلسفية، ترجمة سمير كرم، ص 193.

[4]، [5]- ينظر ول ديورانت، قصة الفلسفة، ترجمة فتح الله محمد المشعشع، ص 477 وما بعدها.

[6] - محمود يعقوبي، معجم الفلسفة، مطبعة البعث، الجزائر، 1979، ص69.

3. ظاهرة التطور في اللسان البشري

اللغة كائن حي، لأنها تحيا على ألسنة المتكلمين بها، وهم من الأحياء وهي لذلك تتطور وتتغير بفعل الزمن، كما يتطور الكائن الحي ويتغير، وهي تخضع لما يخضع له الكائن في نشأته ومراحل حياته، واللغة ظاهرة اجتماعية، تحيا في أحضان المجتمع وتستمد كيانها منه ومن عاداته وتقاليده، وسلوك أفراده، كما أن تتطور بتطور هذا المجتمع فتنحط بانحطاطه، وترقى برقيه، وليست اللغة من صنع فرد أو أفراد، وإنما هي نتيجة حتمية للحياة في مجتمع يجد أفراده أنفسهم في حاجة ماسة إلى وسيلة للتفاهم والتواصل والتعبير عما يجول في النفس، وتبادل الأفكار، تلك الوسيلة هي اللغة . " فشأنها في ذلك شأن الظواهر الاجتماعية عرضه للتطور المطرد في مختلف عناصرها أصواتها وقواعدها، ومتنها، ودلالتها، وتطورها هذا لا يجري تبعا للأهواء والمصادفات أو وفقا لإرادة الأفراد، وإنما تخضع في سيرها لقوانين جبرية ثابتة مطردة النتائج، واضحة المعالم، محققة للآثار، ولا يد لأحد على وقف عملها، أو تغ يير ما تؤدي إليه فليس في قدرة الأفراد أن يوفقوا تطور لغة ما، أو يجعلوها تجمد على وضع خاص أو يسيروا بها في سبيل غير السبيل التي رسمتها لها سنن التطور الطبيعي"[1].

فمهما أجاد أهل هذه اللغة في وضع معجماتها، وتحديد ألفاظها ومدلولاتها، وضبط أصواتها، وقواعدها، "ومهما أجهدوا أنفسهم في إتقان تعليمها للأطفال، قراءة وكتابة ونطقا وفي وضع طرق ثابتة سليمة، يسير عليها المعلمون بهذا الصدد، ومهما بذلوا من قوة في مقا ومة ما يطرأ عليها من لحن وخطأ وتحريف، فإنها لا تلبث أن تحطم هذه الأغلال، و لتف من هذه القيود، وتـ شق طريقها الذي يريدها على السير فيه سنن التطور ونواميسه"[2].

---

[1] - علي عبد الواحد وافي، اللغة والمجتمع، دار النهضة، مصر، (د، ت)، ص 91.

[2] - نفس المرجع، ص 91.

تلك خاصية أصلية من خصائص اللغات عند البشر، ومنها العربية، وإن كان لها وضع خاص، لكنها لم يشذ أحد من علماء اللغة الذين اعتنوا بالدراسات التاريخية للغات عن تأكيد هذه الحقيقة، وهي التطور والنمو، ولم تنقطع الأبحاث في ذلك منذ أمد التي ترصد القوانين والعلل والعوامل والأسباب، والمجالات والمظاهر والمستويات وغيرها."اللغة ليست هامدة أو ساكنة بحال من الأحوال، بالر غم من أن تقدمها قد يبدو بطيئا في بعض الأحيان، فالأصوات والتراكيب، والعناصر النحوية، وصيغ الكلمات ومعانيها معرضة كلها للتغير والتطور، ولكن سرعة الحركة والتغير فقط هي التي تختلف من فترة زمنية إلى أخرى، ومن قطاع إلى آخر من قطاعات اللغة فلو قمنا بمقارنة كاملة بين فترتين متباعدتين، لتكشف لنا الأمر عن اختلافات عميقة كثيرة من شأنها أن تعوق فهم المرحلة السابقة وإدراكها إدراكا تاما"[1]. واللغة ميالة إلى الـتغير، متأثرة في ذلك بعوامل الزمان والمكان فتتطور على ألسنة المتكلمين بها، فينشأ من ذا اختلاف بين لغة عصر والعصر ا لذي سبقه، وهنا يحدث الصراع بين أنصار الشكل القديم، وأنصار الشكل الجديد، وبعد فترة يصبح الجديد قديما تحت تأثير سنة التدافع، فما كان لهذه العجلة المتحركة أن تتوقف، ولا يقضي على القديم بين يوم وليلة، بل يظل التشابك قائما لفترة تطول أو تقصر، غير أنهفي النهاية تكون الغلبة للشكل الجديد، وتلك سنة وتاريخ اللغات يشهد بهذا، ولا توجد لغة على وجه الأرض جمدت على نمط واحد مئات السنين ." فالاتجاه الطبيعي للغة، وبخاصة في صورتها الدراجة أو المكتملة هو اتجاه يبعدها عن المركز، فاللغة تميل إلى التغير سواء خلال الزمان أو عبر المكان إلى الحد الذي لا توقف تياره العوامل الجاذبة نحو المركز "[2]، هذه الخاصية العالمية للغة، هامة لعالم اللغة التاريخي، حيث أنها تشكل الأساس في كل تغيير لغوي أو تطور في اللسان البشري.

[1] - ستيفان أولمان، دور الكلمة في اللغة، ترجمة كمال بشر، دار غريب، القاهرة، ط 12، 1997، ص 78.

[2] - ماريو باي، أسس علم اللغة، ترجمة أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط3، 1983، ص 73.

4. الدرس اللغوي بين المنهج التاريخي والمنهج المقارن

من المعلوم في تاريخ الدراسات اللغوية الأوروبية، أن الدراسات التاريخية المقارنة بين اللغات المختلفة ــ وبخاصة الأوروبية منها ــ قد أخذت تنشط وتزدهر في القرن الثامن عشر، ومع أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر بدأ علم اللغة يستم معالمه بوصفه علما مستقلا عن الثقافة والفلسفة. بل بدأت مناهج هذا العلم تتضح وتتميز فكان من أوضحها المنهج التاريخي ، والمنهج التاريخي المقارن، والمنهج الوصفي .وسنقتصر على الحديث عن المنهج التاريخي، والمنهج المقارن وبشكل موجز.

أ. المنهج التاريخي

والقدماء تحدثون طويلا عند هذا المنهج في الدرس اللغوي فهو " المنهج التاريخي Méthode historique الذي يتتبع ظاهرة لغوية في لغة ما، حتى أقدم عصورها التي تملك منها وثائق و نصوصا لغوية؛ أي إنه عبارة عن بحث التطور اللغوي في لغة ما عبر القرون، فدراسة أصوات العربية الفصحى دراسة تاريخية، تبدأ من القدماء لها من أمثال الخليل بن أحمد وسبويه، وتتبع تاريخها منذ ذلك الزمن حتى العصر الحاضر، دراسة تدخل ضمن نطاق المنهج التاريخي، ومثل ذلك يقال عن تتبع الأبنية الصرفية، ودلالة المفردات، ونظام الجملة"[1]. والباحث التاريخي يريد أن يبحث ظاهرة لغوية ما في العربية، فإنه يوفر لنفسه أقدم المصادر الممكنة التي استعملت هذه الظاهرة، فقد يبدأ بالنقوش المكتوبة، ثم الدواوين الشعرية والنصوص الجاهلية، ثم النصوص الإسلامية، وهكذا إلى أن يصل إلى آخر استعمالاتها الراهنة مكتوبة ومنطوقة. "وخلال هذه الرحلة الطويلة يصف الكلمة صوتا، وصرفا ومعنى، وسياقا، فيهتم ببيان ما يطرأ عليها من تغيرات صوتية، ويبين معناها بين الحقيقة والمجاز، وقد ينطلق من اعتبار ما هو حسي فيعده أقرب إلى الحقيقة، وما هو معنوي فيعده أقرب إلى المجاز . فإن كثرت المعاني الحقيقية للكلمة أو المعاني

[1] - محمود سليمان ياقوت، فقه اللغة وعلم اللغة، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 1995، ص 257.

المجازية اجتهد أن يحدد الزمن الذي يعود إليه كل معنى، من خلال العودة إلى أقدم النصوص وأوثقها.. ويحدد الاشتقاقات التي ثبت استعمالها، والسياقات النحوية والبلاغية والتاريخية التي قد يكون لها أثر خاص في إلقاء الضوء على تاريخ الظاهرة. وهو في هذا كله يراقب تطورها، ويرسم خطها البياني من حيث الاستعمال:قلة وكثرة، حيا ة وموتا، ثم يبين القوانين التي تحكم مسار التطور والعوامل المؤثرة. وصفوة القول فإن الباحث التاريخي مسؤول عن الإجابة عن تاريخ الظاهرة اللغوية: ما أصلها؟ وما أصبحت؟ ومتى؟ وإلى أين تتجه؟"[1].

والمنهج التاريخي يدرس اللغة دراسة طولية، بمعنى أنه يتتبع الظاهرة اللغوية في عصور مختلفة، وأماكن متعددة ليرى ما أصابها من تطور، محاولا الوقوف على سر هذا التطور، والكشف عن آلياته وعلله . وتتقاطع المناهج اللغوية أحيانا في دراسة الظواهر اللغوية حيث إنه لا يمكن الفصل فيما بينها وطبيعة الظاهرة هي التي تحدد المنهج الذي تتناول به وتبحث، وربما كانت صالحة لعدة مناهج في آن واحد .

"وتعد دراسة التغير في لغة بعينها جزءا من إطار العمل في علم اللغة التاريخي "linguistique historique" الذي يهتم بإعادة صياغة المعطيات للدراسة التاريخية دون أن يهتم بدراسة التاريخ نفسه؛ فالاهتمام منصب على دراسة طبيعة التغير اللغوي نفسه. ولعلم اللغة التاريخي دور رئيسي في حصر هذه التغيرات التي تصيب اللغة على مر العصور، وهو يبحث في العناصر المؤدية إلى هذا التغير، عن طريق النظر في العلاقات التركيبية، مع الاهتمام بالنتائج المصاحبة لما يتم إجراؤه من اختيارات، وذلك لفهم الظواهر الخاصة باللغة، ووظيفة الوحدات التي يمكن أن تكون موضعا للاعتبار"[2].

وأكد كثير من اللغويين على حاجة العربية إلى المنهج التاريخي لما له من فضل في الحفاظ عليها وحسن دراستها الدراسة العلمية الوافية في " مراقبة التطور

---

[1] - إسماعيل أحمد عمايرة، المستشرقون والمناهج اللغوية، دار وائل، عمان، ط3، 2003. ص 21.

[2] - محمود سليمان ياقوت، فقه اللغة وعلم اللغة، ص 257.

الدلالي للكلمات والأساليب العربية نفسها، ورصد ما خالط العربية من جراء احتكاكها بالفارسية، والتركية، والإغريقية، والسريانية وغيرها، ونحن في حاجة إلى الدراسات اللغوية التي تبين لنا تجربة الأخذ والعطاء بين العربية واللغات التي احتكت بها، ودراسات أخرى توضح تطور الألفاظ دلاليا في كل مصر، وما طرأ عليها من تغيير في الشكل والمضمون في كل عصر من عصور العربية، وقد تزداد الحاجة إلى دراسات أسلوبية تبين المعاني البلاغية والأسلوبية الجديدة سواء أكانت بفعل التطور الذاتي أم بالتطور المترتب على اطلاع الناطقين بالعربية، على الآداب الأخرى"[1].

وللمنهج التاريخي أهميته القصوى فيما يحققه من فوائد على صعيد الظاهرة اللغوية في ماضيها و حاضرها سواء على مستوى الدراسات المعجمية والنحوية والصرفية وغيرها، حيث مكنت الدراسة التاريخية في المعاجم العربية على سبيل المثال من عدة فوائد منها:

1. التمييز بين العربي الأصيل، والمعرب أو الدخيل الذي وفد على العربية من لغات أخرى على مر العصور.
2. متابعة مسيرة حياة اللفظ العربي، عبر مراحل زمنية متعاقبة، وفي مجالات استعماله المختلفة مع ملاحظة ما طرأ على الألفاظ من تطور.
3. التعرف على المؤثرات والقوانين المتحكمة في هذه السيرورة التاريخية للألفاظ العربية وهذا "يوقفنا على جانبين مهمين: جانب يقف بنا على أسباب غياب كثير من الألفاظ من الاستعمال أو انحصار بعضها في مجال استعمالي معين، أو زمن خاص . وجانب يقف على مجموعة العوامل التي تتحكم في مستقبل الثروة اللفظية المعجمية، وذلك بالوقوف على أسباب موت الألفاظ وحياتها"[2].

[1] - إسماعيل أحمد عمايرة، المستشرقون والمناهج اللغوية، ص 26.

[2] - المرجع السابق، ص 28-29.

وتعد قواعد النحو والصرف من أكثر المعايير اللغوية ميلا إلى الثبوت، أما المعاني والأساليب البلاغية فتتطور تطورا بينا، وكذلك كثيرا من القوانين الصوتية ومخارج الحروف.. وتلك مسائل سوف نبسط فيها القول في الصفحات المقبلة والفصول التالية.

ب. المنهج المقارن

يرى الباحثون في المناهج اللغوية أن المنهج المقارن في الدرس اللغوي ليس إلا امتدادا للمنهج التاريخي، وهو يولي وجهه شطر الماضي السحيق، ولا يؤتي ثماره في الواقع إلا في اتجاه عكسي، لأنه يوضح تفاصيل اللغات الثابتة بالوثائق ويضع أساسا لتصيغ المبكرة المؤكدة المأخوذة من لغات يظن وجود صلة بينها جنبا إلى جنب، ليمكن إصدار حكم فيها بعد الفحص والمقارنة بخصوص درجة الصلة بين عدة لغاتوالشكل الذي يبدو أقرب إلى اللغة الأم "[1]. ويعد المنهج المقارن أقدم المناهج اللغوية الحديثة ازدهر في القرن التاسع عشر، ولا يهتم بمقارنة لغتين من أصلين مختلفين، أو من أسرتين لغويتين متميزتين، بل يقارن اللغات التي تندرج في أسرة لغوية واحدة . " وأظهر نتيجة لنحو اللغات الهندوأوروبية المقارن، تنحصر في تحديد صلات القرابة بين هذه اللغات فكل اللغات الفارسية، والسلافية والجرمانية، والرومانية.. إذا اعتبرت من الوجهة الزمنية، تبدو للعالم اللغوي، نتيجة لسلسلة متتابعة من التباين لحالة لغوية واحدة، سابقة عليها جميعا، تسمى باللغة الهندية الأوروبية"[2].

ومن الممكن دراسة كل لغة من اللغات السامية على حدة، دراسة وصفية تاريخية منتجة إلى أقصى حد ممكن أن استنباط الأصول الأولى للظواهر اللغوية المختلفة في هذه اللغات أمر بالغ الصعوبة، وقد حاول العلماء استخدام الطرق العلمية، التي كشف عنها المنهج المقارن، وعلم اللغة الحديث في الوصول إلى هذه

[1] - محمود سليمان ياقوت، فقه اللغة وعلم اللغة، ص 254.

[2] - رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1997. ص 198.

الأصول الأولى"[1]والمقارنة تفضي إلى ثمرتين أساسيتين : " الأولى: درجة الصلة بين عدة لغات و ضعتحت الفحص إذا كانت هناك صلة . الثانية: الشكل الذي يبدو أقرب صلة إلى اللغة الأم التي وجدت في الماضي، والتي تعد الأصل المشترك لهذه اللغات، ومنها انشعبت جميعها، ولعل الباحث يكون آمنا حين يقرر انتماء لغات متعددة إلى أصل مشترك، إذا وجد بينها تماثلا كافيا في تر كيباتها النحوية ومفرداتها الأساسية، وإذا لاحظ ازدياد قرب بعضها من بعض كلما اتجهنا إلى الوراء"[2].

والدراسة اللغوية أيا كان نوعها ضمن إطار المنهج المقارن يجعلنا لا نقتصر على الصورة التي جاءت عليها في العربية، أو التفسير الذي أعط ي لها، وإنما تتعدى ذلك إلى مجالأوسع وأشمل ت تيحه لنا اللغات واللهجات المتعددة التي تشترك مع العربية في الظاهرة نفسها، ما يساعد على معرفة السبل التي اتبع هنا في تطورها ونشأتها .

"فهناك ظواهر لغوية عديدة في العربية الفصحى، منها ما يتصل بالجانب الصوتي، أو الدلالي، أو التركيبي، أو الصرفي، وهي إن اقتصر في دراستها ضمن العربية دون غيرها، فقد لا تمكننا تلك الدراسة من معرفة أصول الظواهر وامتدادها، وسبل تطورها، لأن معرفة ذلك يتجاوز الوصف والتحليل إلى ميدان آخر هو ميدان الدراسات التاريخية المقارنةفدراسة العربية مثلا من خلال العر بية، بعيدا عن أخواتها الساميات، يجعلنا في كثير من الأحيان لا نستطيع الفصل في بعض الظواهر اللغوية، فنلجأ إلى التأويل والتعليل، لكي نجد لها تفسيرا يتلاءم مع قواعد العربية، وإلا حكمنا عليها بالشذوذ"[3].

وللمنهج المقارن كغيره من المناهج أهميـ ته القصوى في الدراسات اللغوية العربية،حاجة العربية إلى اللغات الشـ قيقات، فلا شك أن قواعد هذا المنهج مفيدة بقدر كبير في تحقيق كثير من المسائل العلمية التي تعترض سبيل المعرفة العميقة للغة العربية، ومن أخواتها، وفي الوسع من خلال هذا المنهج المقارن للعربية بغيرها

[1] - نفس المرجع، ص 200.

[2] - ماريو باي، أسس علم اللغة، ص 168.

[3] - الشريف ميهوبي، دراسة في التطور والتأصيل، دار هومة، الجزائر، 2002. ص 12- 13.

أن نحقق المسائل التي لم يصل فيها الـ بحث القديم إلى نتائج حاسمة، ولعل بعض النتائج مفيد في ترجيح بعض الآراء السابقة، أو الوصول إلى وجهات نظر جديدة، وربما إلى حقائق في البحث اللغوي، ولهذا المنهج آثاره الطيبة على صعيد الدراسات المعجمية والنحوية والصرفية وغيرها، فعلى سبيل المثال : "في المجال المعجمي يتم التمييز بين اللفظ الأصيل واللفظ الدخيل، والتمييز بين ما هو عربي خالص، أو عربي مشترك بين العربية وغيرها من الساميات كالأكادية والعبرية، والحبشية، والعربية الجنوبية .. وهل ما اشتركت فيه هذه اللغات هو من باب الاشتراك في الأصل والنسب، أو هو من باب المصاهرة بغض النظر عن اشتراكها في الأصل؟ ومتى حدث ذلك؟ وفي أي سياق حضاري؟ . لقد استطاع المنهج التاريخي المقارن أن يحقق بعض النتائج المفيدة في هذا الشأن "[1]. وفي المجال النحوي نورد مثلا واحدا والأمثلة كثيرة تبين أثر المنهج المقارن في تحقيق بعض المفاهيم النحوية ومن ذلك : التنوين وهو علامة التنكير " أقدم من أداة التعريف في العربية، وهو مستخدم في أقدم ما وصل إلينا من نصوص اللغات السامية، كالأكادية (التمييم)، والأوغاريتية (التنوين). ولم تستعمل هاتان اللغتان أداة للتعريف بل الإضافة للتعريف، وهذا يؤكد أنه كانت الطريقة الأقدم في اللغات السامية، وهي تسبق التعريف بالأداة، وهذه اللغات لم تستقر على أداة واحدة "كأل" في اللغة العربية، و"هل" في العبرية، وقد أصبحت حرفا واحدا بعد اختفاء اللام فكانت الهاء للتعريف في العربية البائدة (الثمودية واللحيانية)، أما العربية الجنوبية ففيها: "أن" و"أم" مازالتا عند بعض مناطق اليمن إلى اليوم، وقد وردت "هاء" بدل الهمزة في النقوش اليمنية القديمة فقيل في "أن" "هن" وهذا ما يؤكد أصالة الهاء التاريخية في أداة التعريف، وحداثة الهمزة، وأما التعريف في الآرامية والسريانية فهو ألف في آخر الكلمة"[2].

---

[1] - إسماعيل أحمد عمايرة، المستشرقون والمناهج اللغوية، ص 62- 63- 65.

[2] - المرجع السابق، ص 74.

الفصل الأول: اللغة العربية بين ظاهرتي اللحن والتطور اللغوي

1) **مفهوم اللحن في اللغة والاصطلاح**
2) **أسباب ظهور اللحن في العربية**
3) **مستويات اللحن**
4) **حركة التأليف في التنقية اللغوية ومناهجها المختلفة**
5) **مفهوم التطور اللغوي**
6) **عوامل التطور اللغوي**
7) **مظاهر التطور اللغوي ومستوياته**

تمهيد:

الصواب والخطأ في الاستعمال اللغوي ظاهرة أغرت الباحثين واستولت على جل اهتمامهم، وما ذلك إلا لشرف الغاية ونبل المقصد، وهو الحفاظ على اللغة العربية الفصيحة وصيانتها وتنقيتها مما علق بها على مر الدهور من انحراف، وما أصابها من نمو وتطور وذلك ما اصطلح على تسميته بظاهرة اللحن، وظاهرة التطور اللغويين فكل مظاهر التغيير في اللغة لحنا كانت أم تطورا لم تحظ بقبول بعض علماء اللغة قديما وحديثا فأنكروا وسدّدوا وحكموا بالخطأ على كل ما خالف الفصحى، وجدّوا في إصلاح الألسنة التي فسدت باتساع العمران، والاختلاط بين العرب وغيرهم بعد الفتح الإسلامي، في حين تأنى في الحكم آخرون، فدرسوا ومحصوا وقبلوا من هذا التغيير ما اطمأنوا إليه، ولم يروا باسا في استعماله ولا خروجا عن مألوف المنهج العربي في اللغة، فهل كل استعمال لغوي خالف السنن العربية يعدّ لحنا وهجنة أم نموا وتطورا؟ وما هي معايير الفصاحة من أجل التفريق بين ما هو لحن وما هو من قبل التطور اللغوي؟.

وتوسم اللغة عند الدارسين بالنمو والتطور فهي كائن حي يخضع لما يخضع له الكائن الحي في نشأته وتطوره، وهي ظاهرة اجتماعية تحيا في أحضان المجتمع وتستمد كيانها منه، ومن عاداته وتقاليده وسلوكاته، وهي تتطور بتطوره وتنحط بانحطاطه. وليس في قدرة أحد أن يوقف هذا التطور بل من الواجب دراسته دراسة علمية وصفية أو تاريخية مقارنة أو غير ذلك لاستخلاص القوانين التي تحكمه واستنباط المظاهر والعلل التي تثبته وتعلن عنه.

وفي هذا الفصل سوف نقف على ظاهرة اللحن في معناها اللغوي والاصطلاحي ثم على الأسباب التي أدت إلى اضطراب اللسان العربي الفصيح، وعلى الجهود الجبارة التي عنيت برصد الظاهرة، وحركة التأليف في التقنية اللغوية ومناهجها المختلفة، ثم نتحدث عن مفهوم التطور اللغوي وعوامله، ومظاهره، ومستوياته.

1. مفهوم اللحن في اللغة والاصطلاح

أ. مفهوم اللحن في اللغة

أسهب صاحب اللسان في بيان المعنى اللغوي للحن موردا الكثير من الدلالات " فلَحَنَ من اللّحن جمعه ألحان ولحون، ولحّن في قراءته إذا غرد وطرب فيها بألحان.

ورجل لاحن ولحان ولحانة يخطئ، وفي المحكم : كثير اللحن، ولَحَنَ الرجل تكلم بلغته. ومنه قولهم : لحن الرجل، إذا فهم وفطن لما لا يفطن له غيره. قال ابن الأثير: اللحن الميل عن جهة الاستقامة، يقال لحن فلان في كلامه إذا مال عن صحيح المنطق. قال ابن بري وغيره اللحن على ستة معان: الخطأ في الإعراب واللغة والغناء والفطنة والتعريض والمعنى"[1].

وذكر صاحب القاموس اللّحْن ج ألحان ولحون، واللحن في اللغة : الخطأ في القراءة. ولحن له قال له قولا يفهمه عنه ويخفي على غيره ولحن إليه مال، وألحنه القول إياه، واللاحن العالم بعواقب الكلام، ولحن كفرح فطن لحجته و انتبه، ولاحنهم فاطنهم و"في لحن القول" أي فحواه ومعناه"[2].

وفي الأساس للزمخشري " ل ح ن : لحن في كلامه إذا مال عن الإعراب إلى الخطأ أو صرفه عن موضوعه إلى الألغاز، ورجل لحان ولحانة، ولحنته نسبته إلى اللحن، ولحنت له لحنا قلت له ما يفهمه عني ويخفي على غيره، وعرفت ذلك في لحن كلامه أي في فحواه"[3].

وفي الصحاح للجوهري : اللّحن الخطأ في الإعراب ، يقال فلان لحان ولحانة أي كثير الخطأ، والتلحين التخطئة . وهو ألحن الناس إذا كان أحسنهم قراءة أو غناء ولحن إليه، يلحن لحنا أي نواه وقصده، ومال إليه، ولحن في كلامه أيضا أي أخطأ، واللحن بالتحريك الفطنة"[4].

---

[1] - ابن متطور، لسان العرب، ج 13 ص 379- 382.
[2] - الفيروز أبادي ، القاموس المحيط ص 1587.
[3] - الزمخشري، أساس البلاغة، راجعة وقدم له إبراهيم قلاتي، دار الهدى الجزائر ط 1998 ص 597، 598.
[4] - الجوهري، الصحاح ، ج6 ص 2193- 2194

ومما يلاحظ في المعاني التي أوردها الجوهري إضافته معنى النية والقصد في معاني اللحن في حين اكتفى صاحب اللسان بالمعاني الستة التي نقلها عن ابن بري وغيره.وعند ابن فارس : "لَحَنَ: اللام والحاء والنون له بناءان يدل أحدهما على إمالة شيء عن جهته، ويدل الآخر على الفطنة والذكاء،فأما اللحن بسكون الحاء فإمالة الكلام عن جهته الصحيحة في العربية يقال لحن لحنا، وهذا عندنا من الكلام المولد، لأن اللحن محدث لم يكن في العرب العاربة الذين تكلموا بطباعهم السليمة . ومن هذا الباب قولهم هو طيب اللحن وهو يقر أ بالألحان، وذلك أنه إذا قرأ كذلك أزال الشيء عن جهته الصحيحة بالزيادة والنقصان في ترنمه، ومنه أيضا : اللحن فحوى الكلام ومعناه قال تعالى "ولتعرفنهم في لحن القول" وهذا هو الكلام المورى به المزال عن جهة الاستقامة والظهور . والأصل الآخر:اللحن وهو الفطنة يقال لحن يلحن لحنا، وفي الحديث:لعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض "[1]. اكتفى ابن فارس بمعنيين فقط هما الميل والفطنة مشيرا إلى أن كلمة اللحن من الكلام المولّد المحدث.

وفي المعجم الوسيط لحن في كلامه لحنا : أخطأ الإعراب وخالف وجه الصواب في النحو فهو لاحن ولحان ولحن الرجل تكلم بلغته، ويقال لحن بلحن بني فلان تكلم بلغتهم.لحن إليه نواه وقصده ومال إليه، ولحن القول فهمه . ولحّن في قراءته طرّب فيها وغرد بألحان. ولحن الأغنية وضع لها صوتا موسيقيا مناسبا تغنى به.ولحن فلانا خطأه في الكلام ولحن القول فحواه، وما يفهمه السامع بالتأمل فيه من وراء لفظه . وفي التنزيل "ولتعرفنهم في لحن القول"، واللحن في الموسيقى الصوت الموسيقي الموضوع للأغنية. والملاحن: مسائل كالألغاز يحتاج في حلها إلى فطنة"[2].

هذه نُقول عن أشهر المعاجم اللغوية التي فصلت القول في أصل اللحن ومعناه وبنيته واشتقاقاته المختلفة.

[1] - ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج5 ص 239، 240.
[2] - إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط ج 2 ، ص 819-820.

ب. مفهوم اللحن في الاصطلاح

اهتمت الكثير من المعاجم الحديثة بضبط التعاريف وتحديد المصطلحات في اللغة والأدب وعلوم اللسان في لغات مختلفة حيث عرف اللحن بعدة تعاريف نذكر منها:

- "اللحن الخطأ النحوي الذي يقع فيه الإنسان أثناء الكلام أو القراءة، ويكون ذلك في الإعراب، أو في ترتيب كلمات الجملة ترتيبا يخالف قواعد اللغة، وقد يكون أيضا في نطق الألفاظ"[1].
- "اللحن استعمال الكلمة في غير ما وضعت له حقيقة أو مجازا كقولك "بث الحاكم ألسنته في المدينة " تريد جواسيسه لأن الألسنة لا تستعمل في معنى الجواسيس، لا حقيقة ولا مجازا، وإنما تستعمل للعيون"[2].

أشار التعريف الأول إلى أن اللحن مخالفة قواعد النحو والخروج عن سنن العربية السليمة عند الكلام والقراءة . كما ألمح إلى بعض مستويات اللحن فقد يكون في الإعراب أو في التراكيب أو في الأصوات ويكون في غيرها أما التعريف الثاني فقد قصر اللحن في الاستعمال اللفظي حيث تستعمل الكلمة في غير موضعها الأصل إن في سياق الحقيقة أو المجاز.

- و يعرف اللحن solécisme أيضا بأنه : "بناء الجملة خارج عن العرف اللغوي أو غير مولدة بواسطة قواعد اللغة المطردة "[3]. فكل خروج عن الأعراف اللغوية السوية، وكل تصريف للفظ بعيدا عن قواعد ه السليمة يعد لحنا وانحرافا لغويا، إلا أن هذا التعريف أضاف مستوى آخر من مستويات اللحن وهو المستوى الصرفي.

---

[1] - مجدي وهبة وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان بيروت، ط2، 1984 ص 316.

[2] - نفسه ، ص 316.

[3] - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء ، 2002 ص 137.

- واللحن عند ابن المناوي :"صرف الكلام عن سننه الجاري عليه إما بإزالة الإعراب أو التصحيف، وهو المذموم وذلك أكثر استعمالا، وإما بإزالته عن التصريح وصرفه إلى تعريض وفحوى، وهو محمود من حيث البلاغة "[1]. فقسم اللحن إلى مذموم ومحمود إلا أن اللحن عند الإطلاق لا ينصرف إلا إلى المعنى المذموم،قد أضاف ابن المناوي تعريف الأصوليين :" لحن الخطاب عند أهل الأصول: الإضمار الذي لا يستغني الكلام عنه، وقيل هو فحوى الخطاب"[2].
- "اللحن استعمال الكلمة في غير ما وضعت له استعمالا خاطئا، وذلك كقولك بثّ الحاكم ألسنته في المدينة " تقصد جواسيسه، لأن الألسنة لا تستعمل في معنى الجواسيس لا حقيقة ولا مجازا".[3]
- "اللحن مصطلح عام يراد به الخروج عن الاستعمال اللغوي (الصوتي أو الصرفي، أو النحوي إلخ..) المعدود استعمالا صحيحا."[4]
- "اللحن مخالفة العربية الفصحى في الأصوات أو في الصيغ أو في تركيب الجملة، وحركات الإعراب أو في دلالة الألفاظ"[5].

والملاحظ في هذه التعاريف أنها أجمعت على أن اللحن مخالفة العربية الخالصة بالخروج عن قواعدها الأصلية، وأعـ رافها السليقة. والتعريف الذي نختاره والذي يبدو مستجمعا للعناصر الأساسية والمفاهيم الضرورية لتحديد ظاهرة اللحن في مفهومها الاصطلاحي وبشكل دقيق هو التعريف التالي : "اللحن خروج الكلام الفصيح عن مجرى الصحة في بنية الكلام أو تركيبه أو إعرابه بفعل الاستعمال الذي يشيع أولا بين العامة من الناس، ويتسرب بعد ذلك إلى لغة الخاصة."[6] وهذا التعريف جمع بين مستويات الكلام الملحون، المعجمي والصوتي والنحوي والصرفي والدلالي مشيرا إلى الاستعمال الذي يشمل الاستعمال اللغوي بشقيه الملفوظ والمكتوب.

---

[1] - ابن المناوي ، التوقيف على مهمات التعريف ، ص 288.
[2] - نفسه ، ص 288.
[3] - علية عزت عياد، معجم المصطلحات اللغوية والأدبية، المكتبة الأكاديمية القاهرة، ط1 ،1994 ، ص 78.
[4] - رمزي منير بعلبكي، معجم المصطلحات اللغوية، دار العلم للملايين، بيروت ، ط 1، 1990 ، ص 461.
[5] - رمضان عبد التواب، لحن العامة والتطور اللغوي، مكتبة زهراء الشرق القاهرة، ط2 2000، ص 13.
[6] - محمد عيد، المظاهر الطارئة على الفصحى، عالم الكتب القاهرة 1980 ، ص12.

2. أسباب ظهور اللحن في العربية

يجمع الباحثون في شؤون العربية الفصيحة وما طرأ عليها من لحن وانحراف أن العامل الرئيسي في اضطراب اللسان الفصيح هو : اختلاط العرب بغيرهم من الأعاجم الذين دعت الظروف الاجتماعية والسياسية إلى معاشرتهم والاحتكاك بهم، وما انجر على هذا الاختلاط من إختلالات على المستوى اللغوي. وعندما تثار مسألة اختلاط العرب بغيرهم فإنه يقصد من وراء ذلك جميع مظاهره وأنواعه المختلفة سواء عن طريق الفتوحات الإسلامية التي أقبل من خلالها الناس على اعتناق الإسلام، أو عن طريق التجارة والأسفار، أو المصاهرة والمساكنة والجوار وغيرها. "فعندما نبحث عن الأسباب التي أدت إلى ظهور اللحن بمعنى (الخطأ) أول ما ظهر، ثم انتشاره في الفصحى من بعد، لابد أن نجد أمامنا سببا رئيسيا هو اختلاط تلك الفصحى بغيرها من اللغات نتيجة اتصال المتكلمين بها واختلاطهم، فقد اختلطت العربية بغيرها منذ العصر الجاهلي باختلاط القبائل ممن يسكنون أطراف الجزيرة"[1]. وقد أسهب القدامى في التركيز على هذا السبب الذي كان وراء انتشار اللحن في اللغة وبيان القبائل العربية الفصيحة ومضاربها ومن ساكنها من غيرها ممن أثر على لسانها، ونال من سليقتها فالقبائل العربية التي خالطت غيرها، حتى لم تعد ثقة في فصاحة لغتها هي : لخم وجذام الذين جاوروا أهل مصر والقبط وقضاعة وغسان وإياد الذين جاوروا أهل الشام، وأكثرهم يقرءو ن العبرية، وتغلب الذين جاوروا اليونان وبكر الذين جاوروا القبط والفرس، وعبد القيس وازد عمان كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس، وأهل اليمن كانوا يخالطون الهند والحبشة، وبنو حنيفة وسكان اليمامة، وثقيف، وأهل الطائف وقد خالطوا التجار في اليمن المقيمين عندهم، ويدخل مع هؤلاء سكان حاضرة الحجاز إذ صادفهم جماع اللغة يختلطون بغيرهم من الأمم زمن الجمع".[2]

[1] - عبد الفتاح سليم، موسوعة اللحن في اللغة مظاهره ومقاييسه، مكتبة الآداب القاهرة، ط2 ، 2006 ، ص 14.
[2] - جلال الدين سيوطي، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، المكتبة العصرية ، بيروت، 1986، ج1، ص212

ولا شك أن هذا الاختلاط كان له الأثر البين على العربية وغيرها، وهو أمر تفرضه سنن التأثير والتأثر إلا أنه كان ضئيلا في العربية في بداية الأمر، وذلك لما كان يتمتع به العرب من افتخار بلغتهم وأنفة من الاختلاط، حيث كان الأمراء والخلفاء يحرصون حرصا شديدا على عدم امتزاج العرب بغيرهم، حفاظا على نقاء الدم العربي، وسلامة الفطرة واللسان العربي . ولا يمكن أن نغفل ما للاختلاط والاحتكاك بالآخرين من إيجابية في شتى مجالات الحياة . وفي الوسع العثور على شواهد كثيرة تبين تأثر العربية بغيرها والبيئة العربية ممن حولها، وتتمثل تلك الشواهد في الألفاظ الحبشية والرومية والفارسية وغيرها مما انتقل إلى العربية وجاء به القرآن الكريم . وفيه دلالة على قبول ذلك منهم، واستساغتهم جريانه على ألسنتهم حتى في أشعارهم منذ العهد الجاهلي . والتأثر من الطرفين وارد إن في نقل الألفاظ الأعجمية أو في نطق المستعربين للألفاظ العربية . " فحرفوا بعض الأصوات، لعدم وجودها في لغاتهم أصلا، أو لتعسرها على مناطقهم، كالحاء التي نطقوها هاء، والقاف التي قربوها من نطق الكاف، والعين التي نطقوها همزة، وحروف الإطباق التي استبدلوها حروفا أخف منها، ونوادرهم في ذلك متعالمة متناقلة مشهورة"[1].

إذا كان الاختلاط بين العرب وغيرهم من العجم هو السبب الرئيسي في ظهور اللحن وانتشاره كما أسلفنا، فإن هناك عوامل أخرى ساعدت على توسعه. ومنها :

أ. حركة وضع الشعر واختلاقه وأثرها في انتشار اللحن

لقد نالت ظاهرة الوضع والكذب في الشعر نصيبها الواسع من اهتمام اللغويين ما قطعوا به الطريق على الوضاعين الذين تفننوا في اختلاق الشعر والزيف على الشعراء تحت أعذار مختلفة، وليحققوا به حظوظا ذاتية من نيل الحظوة والعطايا من الحكام والولاة، أو تأييد سياسة متبعة أو نصرة مذهب أو مطية إلى المسلاة والمسامرة في مجالس التملق والتزلف في بلاط الخلفاء والأمراء ولهم في ذلك مآرب أخرى. وحركة وضع الشعر حركت اللغويين إلى الحفاظ على التراث الشعري،

[1] - الجاحظ البيان والتبين ، تح عبد السلام هارون، دار الجيل (د ، ت) ج2 ، ص168.

والحفاظ من خلال ذلك على العربية ذاتها . ولقد بحثت هذه المسائل بحثا كافيا فكل جهد بذل في هذا المضمار يضاف إلى رصيد التنقية اللغوية، باعتبار أن الشعر العربي الفصيح يعد مصدرا هاما من مصادر الـ لغة. والهدف الكبير من وراء التصدي لهذه الحركة ووقف انتشارها وتجفيف منابعها هو الحفاظ على العربية من الزوال والاضمحلال، وهو الهدف نفسه الذي رمى إليه من كتبوا في لحن العامة والخاصة، وقد لقيت هذه الحركة معارضة في طبقات فحول الشعراء إنكار لهذا الاختلاف : "فالشعر مفتعل موضوع كثير، ولا حجة في عربيته، ولا أدبا يستفاد، ولا معنى يستخرج، ولا مديح رائع، ولا هجاء مقذع، ولا فخر معجب، ولا نسيب مستطرف، وقد تداوله قوم من كتاب إلى كتاب، لم يأخذوه عن أهل البادية، ولم يعرضوه على العلماء، وليس لأحد، إذا أجمع أهل العلم والرواية الصحيحة على إبطال شيء م نه. أن يقبل من صحيفة، ولا يروي عن صحفي "[1] فليس كل من روى الشعر يصدق عليه وصف الشاعر، كما انه ليس كل من تكلم العربية عربي، فالشعر في نظر الجمحي له أصوله ورجاله وروّاته، وله مقاييسه وأوزانه، وله أغراضه ونقاده من الذين إذا أجمعوا على رد روايته من النقدة الأذكياء فلا معقب لحكمهم في ما أبطلوه ورفضوه.

وقد رصد أصحاب الطبقات مشاهير الكذابين وأسباب الوضع ودوافعه وبينوا أفحش اللحن وأخطره في الشعر، فيروى أن " حمادا الرواية أنشد بلال بن أبي بردة والى البصيرة، بيتين يمدح بهما أبا موسى الأشعري وهي:

جمعت من عامر فيه ومن جشم **** ومن تميم ومن جاء ومن حام

مستحقبات رواياها جحافلها **** يسمو بها أشعري طرفه سامي

فقال له بلال : ويحك أيمدح الحطيئة أبا موسى الأشعري،وانا أروى شعر الخطيئة كله، فلا أعرفها! ولكن أشعها تذهب في الناس"[2]. لقد كان وضع الشعر أمرا مألوفا حتى شاع بين الناس فاجترأت عامتهم على تزوير الأشعار على بعض المشهورين فيروي الجمحي في طبقاته أن هذا الشعر المصنوع تكثر به الأحاديث

[1] - ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تح محمود محمد شاكر ، دار المدني، القاهرة (د، ت) ج1 ، ص 4.
[2] - أبوا الفرج الأصفهاني، الأغاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت (د، ت) ج2 ص 175- 176.

ويستعان به على السمر والسهر عند الملوك، والملوك لا تستقصي ولا تكترث لما يروى حقا كان أم باطلا و"[1]من الخطأ غير المغفور أن يقدم عالم نحوي معدود من الثقات على وضع بعض الأشعار في موقف خاص ليخرج من سؤال محرج ليبرر جهله بالجواب. ومن ذلك ما حكى البغدادي في خزانته قصة للمبرد " أنه ورد الدينوري زائرا عيسى بن ماهان، وعندما عقد مجلس العلم، وسئل المبرد عن معنى الشاة "المجثمة" لم يكن عنده علم به فاضطر – دفعا للحرج- إلى أن يجيب بأنها الشاة القليلة اللبن، ثم أيد كلامه برجز وضعه لساعته وهو قوله:

لم يبق من آل الحميد ثمة **** إلا عنيز لجنة مجثمة

وعندما دخل أبو حنيفة الدينوري للمجلس، وكشف عن هذا الزيف أقر المبرد بوضعه واعتذر لعيسى بقوله: أنفت أن أرد عليك من العراق، وذكرى ما قد شاع، فأول ما تسألني عنه لا أعرفه"[2]. وأفحش من هذا إذا كان وضع الشعر غرضه إثبات قاعدة نحوية أو صرفية، أو إثبات لفظة علي أنها وردت عن العرب وهي غير ذلك، وهذا ما يلبس الباطل بالحق، ويلحق الزيف بالصحيح، ويجعل من اللحن المردود صوابا مقبولا، وتروى في ذلك شواهد بعد جمع اللغة، حين عكف العلماء على وضع قواعدها وألجأتهم مواقف خاصة سياسية أو علمية إلى التنازع في استنباط القاعدة واجتهاد كل فريق على الانتصار لوجهة نظره بالأدلة، ولو لم تكن في أغلبها إلا كلام العرب فاستعان بعض النحاة بالأعراب ورواة الشعر.

ب. وقوع اللحن من العلماء والحلفاء

ويقصد بذوي الشأن الساسة من خلفاء ووزراء وأدباء، وعلماء من الذين نالوا الإمامة والقدوة في اللغة وغيرها، فمجالس الحكام كانت حافلة بالنحاة والشعراء تطرح فيها قضايا لغوية متنوعة، قد تكون محل خلاف ونزاع بين العلماء وأئمة اللغة فيصدر من بعضهم اللحن أو يقع بين أيديهم فيسكتون عنه إما مجاملة لعزيز أو

[1] - ابن سلام الجمحي، طبقات فحول الشعراء، تح محمود محمد شاكر، ص 8-9 .
[2] - البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تح محمد نبيل طريفي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998 ج1، ص55.

لأغراض أخرى، وصدور اللحن من هذه الطبقة المرموقة أو السكوت عنه يفسح المجال لغيرهم من عامة الناس استساغته والتجوز فيه . وقد كان اللحن من هذه النخبة متعارفا مشهورا حتى تجاوز لغة التخاطب اليومي إلى إنشاد الشعر، بل إلى قراءة القرآن في رأي بعض الباحثين . وأعجب من ذلك إصرار بعض اللحنة على لحنهم ورفضهم العودة إلى الصواب إما استحياء أو أنفة أو استكبارا حتى يطلب من بعض النحاة أن يلتمسوا لهذا اللحن وجها في العربية. ومما روي في ذلك "غلط أمير البصرة محمد بن سليمان حينما قرأ على المنبر قوله تعالى:" إن الله وملائكته يصلون على النبي"ﷺ الملائكة فاستحيا أن يرجع، فأرسل إلى النحويين فقال :احتالوا لي فقالوا عطفت "وملائكته"على موضع "الله" وموضعه الرفع، فأجازهم، ولم تزل قراءته حتى مات وكره أن يرجع عنها، فيقال إن الأمير لحن"[1].

ولم يسلم علماء اللغة أحيانا من الوقوع في اللحن، من الذين عرفوا بالتصويب اللغوي فقد رويت عن بعضهم مآخذ " كأبي عبيدة معمر في المثنى الذي كان إذا أنشد بيتا لا يقيم وزنه، وإذا تحدث أو قرأ لحن ويقول : النحو محدود"[2]. وذكروا عن "الفراء أنه كان يجري اللحن على لسانه كثيرا، إذا ما انساق وراء طبعه، فإذا تحفظ لم يلحن على ما قال للرشيد "[3]. وقد اتهم بذلك عدد من علماء اللغة كالمبرد وثعلب وغيرهم ممن لا يجوز في حقهم الزلل في اللغة.

ج/الاضطرابات السياسية والفساد الاجتماعي وحياة الترف والبذخ وأثرها على فساد اللسان:

لا شك أن الأجواء السياسية الهادئة وحياة الاستقرار النفسي والاجتماعي لها الأثر الإيجابي على الناس، ففي ظلها تنمو المواهب وتتفجر القدرات فتزدهر الحياة المادية والأدبية وتتبجس ينابيع الإبداع والحكمة، وإذا أضفي على تلك الأجواء ضلال من الاستقامة الأخلاقية كان الحال أنقى وأرقى . أما حياة الفتن

[1] - الجاحظ، البيان والتبيين ج1،ص198

[2] - ابن خلكان، وفيات الأعيان، تح يوسف علي الطويل وآخرون، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط1، 1998، ج4 ص450.

[3] - نفسه ج5ص145- 146.

والاضطرابات، وانتشار الفساد الاجتماعي وانصراف الناس إلى الترف والمجـــون واللهو فلا يجنى منه إلا الخراب والوبال . وهذا ما فصل فيه المؤرخون الذين كتبوا عن المراحل التاريخية التي نشأ في أحضانها الأدب العربي، وتقلبت فـ ي ظروفهـــا اللغة العربية عموما، وقد ميز الباحثون بين عصور مختلفة حافظت فيها اللغة على ذاتها وعطائها وصفائها، ومراحل اضطربت السلامة اللغوية بفعل تلـــك الظـــروف السياسية والإغراق في الترف والمبالغة في اللهو والبذخ حيث " أفرط قوم من الناس في اللذائذ يتحرونها، ويتفذ ون في الاستمتاع بها وكلما ملوا نوعا ابتكروا نوعا آخر، وإذا أخذوا يهدؤون نشط الدعاة يستحثونهم على الإغراق فيها، والأخذ بـــأكبر حـــظ منها، وإذا تتبعنا تاريخ الدولة العباسية في هذا الباب وجدنا أنها كانت تسير خطوات متدرجة إلى هذه الغاية، وأن كل خليفة كان يعلو غالبـ ا درجة في سلم الترف والنعيم عمن قبله، وإننا لو خططنا رسما بيانيا لاتجه صاعدا باستمرار في عصر كل خليفة تقريبا، والناس في كل عصر وخاصة في هذه العصور تبع لإمامهم"[1].

وقد صورت الحياة السياسية والاجتماعية تصويرا مفصلا " فلا ريب فـــي أن البذخ إنما كان يتمتع به الخـ لفاء وحواشيهم من البيت العباسي، ومن الوزراء والقواد وكبار رجال الدولة، ومن اتصل بهم من الفنانين شعراء ومغنـــين، ومـــن العلمـــاء والمثقفين، وكأنما كتب على الشعب أن يكدح ليملأ حياة هؤلاء بأسباب النعيم، أما هو فعليه أن يتجرع غصص البؤس والشقاء وأن يتحمل من أعباء الحياة ما يطاق وما لا يطاق، ومرد ذلك إلى طغيان الخلفاء العباسيين الذين حرموا الشعب حقوقه وطوقوه بالاستعباد والاستبداد، وقد مضوا يحتكرون الأموال والموارد الضخمة، بحيث كانت هناك طبقة تنعم بالحياة إلى غير حد، وطبقة قتر عليها في الرزق فهي تشقى إلـــى غير حد"[2].

[1] - أحمد أمين ، ضحى الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت ط 10 ، 1933 ، ج1 ص 103 – 104 .
[2] - شوقي ضيف، العصر العباسي الأول ، دار المعارف القاهرة ، ط 12 1966 ص 45.

3.مستويات اللحن

اللحن مفسدة للغة قد أتى على جميع مستوياتها وأثر على سلامتها بشكل متفاوت، والمستويات اللحنية كالآتي:

أ. المستوى الصوتي

لقد أصاب اللحن الأصوات، وأخل في نطق بعض الحروف تارة بالحذف وأخرى بالتغيير لاسيما عند تقارب الحروف في المخارج " فيقال قد طأطأت رأسي وظهري ولا تقل قد طاطيت وقد وطأت له فراشه، ولا تقل : وطّيت، وتقول: قد تثاءبت تثاؤبا، وهو الثؤباء ولا تقل تثاوبت.. وتقول ترأست .. ولا تقل تريست.. "[1]. وعند ابن قتيبة أمثلة كثيرة تغير العامة فيها الحروف خاصة إذا تقاربت مخرجا كما بين السين والصاد في قولهم شموس ولا يقال شموص، وأخذه قسرا، ، ولا يقال : قصرا. القسر بالسين فهو القهر، وهو الرسخ بالسين، ولا يقال بالصاد "[2]. ولا يخفى أثر ذلك على المعاني والدلالات، فالخلل في الأصوات وعدم احترام ما يرقق وما يفخم وما يخفف وما يشدد وغيرها تحريف الكلم عن مواضعه.

ب. المستوى الصرفي

ويتناول هذا المستوى دراسة بنية الكلمة مفردة، وقد يقع اللحن فيه بسبب الاشتراك الكاذب بين كلمتين بينهما تشابه في الصورة الصوتية مع اختلافهما في الاشتقاق والدلالة، وهو الإخلال بقواعد العربية التي وضعها علماء التصريف، وقد نال عناية فائقة باعتباره أشد خطورة على اللغة، ومن الأمثلة على اللحن الصرفي ما ذكر ابن السكيت في " باب يتكلم فيه "بفَعَلْتُ" مما تغلط فيه العامة فيتكلمون "بأَفْعَلْتُ" تقول قد شغلته ولا يقال أشغلته .وعتبه، ولا يقال أعتبه .. وفي باب ما يتكلم فيه "بأَفْعَلْتُ" مما تكلم فيه العامة "بفَعَلْتُ" يقال: أعقدت العسل فهو معقد، وقد عقدت الخيط والعهد أعقده عقدا، وقد عقد عقدة النكاح، ويقال : أجبرته على الأمر فهو مجبر، قال أبو عمرو يقال : أزللت له زلة، ولا يقال زللت، وقد أغلقت الباب فهو

[1] - ابن السكيت، إصلاح المنطق، تح: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ،دار المعارف القاهرة ، ط4 1949، ص 145 وما بعدها.

[2] - ابن قتيبة ، أدب الكاتب، المكتبة العصرية، بيروت 2004 ص 254-255

مغلق، وقد أقفلته فهو مقفل ولا يقال مقفول "[1]. وفي أدب الكاتب أبواب كثيرة وردت فيها صيغ أخطأت العامة في استعمالها من ذلك "فَعلْت" بكسر العين والعامة تكلمت بفتحها كقضمت الدابة الشعير، وفركت المرأة زوجها إذا أغضبته ونشقت من الرجل ريحا طيبة، وضرمت النار تضرم ضرما، وما جاء في فعلت بالفتح والعامة تقوله على الكسر كعمدت لفلان، ولمحت فلانا بعيني، وخمدت النار "[2]. وأشار الكسائي إلى أنهم "يخلطون بين الناقص الواوي والناقص اليائي فلا يفرقون بين "نما" الواوي بمعنى زاد،" ونمى" اليائي بمعنى احمر واسود"[3]

جـ. المستوى النحوي

ويتناول اللفظ في إطار علاقاته السياقية من خلال الجملة وتراكيبها المختلفة، والخطأ في الكلام كما أسلفنا موزع بين الخطأ في الإعراب والخطأ في معنى اللفظ، أو الخطأ في تصريفه أو في تأليفه مع غيره من الألفاظ، وليس من سبيل لمعرفة أي الأخطاء وقع فيه العربي ولحن فيه أول الأمر، ويغلب على ظن بعض الباحثين أنه الخطأ في الإعراب وهو لا يكون إلا ضمن سلسلة كلامية متراكبة متآلفة، تظهر فيها وظيفة اللفظ النحوية، "فأول ما اختل من الكلام العرب فأحوج إلى تعلم الإعراب، ويقوي هذا الظن أمران أحدهما : أن التأليف في النحو بمعناه الخاص سبق التأليف في لحن العامة، وهو ما تضمنته كتب اللحن فالمشهور أن أول من وضع النحو أبو الأسود الدؤلي، وأول من ألف في لحن العوام الكسائي، والمعروف أن كتب اللحن تهتم بتصريف الكلمات ودلالاتها، وتأليفها، وقلما تهتم بتصحيح الخطأ الإعرابي الذي هو مقصود النحو بمعناه الخاص . والثاني:الخطأ الأعرابي أسرع إلى اللسان من غيره، لذا أضاعت اللهجات العامية الاعراب لأول عهدها، ولا يزال كثير من كلماتها على نحو ما جاء في العربية الفصحى أو قريبا منها"[4].

---

[1] - ابن الكسيت، إصلاح المنطق، ص 225-226-227.
[2] - ابن قتيبة، أدب الكاتب ص 261-262
[3] - الكسائي، ما تلحن فيه العامة ، تح رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة ط1 1982 ص 138.
[4] -عبد الفتاح سليم ، موسعة اللحن في اللغة ص 48.

واللحن على هذا المستوى خروج عن القواعد النحوية المتفق عليها، وانحراف عن المألوف في التركيب النحوي للجملة العربية. ومن الأمثلة على ذلك في باب التعريف والتنكير عرفوا ما هو معرفة بذاته لأنه من الأعلام، والمعرف لا يعرف "كقولهم أتيتك يوم العرفة، وعرفوا الدجلة وهي دِجلة"[1]، وعلى منوالهم يمكن أن نقول المكة بدلا من مكة المكرمة. وحكى الحريري "أنهم يدخلون أداة التعريف على "غير" ولا يتعرف بالإضافة ولا بأداة التعريف لتوغلها في الإبهام "[2]. أما غير الأعلام فقد حكى الأصمعي "أنهم يدخلون الألف واللام على " كل و بعض" قال أبو حاتم قلت للأصمعي: رأيت في كتاب ابن المقفع : العلم كثير ولكن أخذ البعض خير من ترك الكل، فأنكره أشد الإنكار، وقال : الألف واللام لا يدخلان في "بعض وكل " لأنهما معرفة لغير ألف ولام "[3]وفي اللزوم والتعدية ذكر الكسائي "أنهم قالوا: شكرت لك ونصحت لك، ولا يقال : شكرتك ونصحتك، وقد نصح فلان لفلان، وشكر له، و هذا كلام العرب قال تعالى: "اشكر لي ولوالديك" وقوله "ولا ينفعنكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم"."[4].

وقد وقع خلط فادح في استعمال الأدوات حيث أشار الحريري "أن العامة لا تفرق في الاستعمال بين " نعم وبلى" فيقيمون إحداهما مقام الأخرى، والمعروف أن "نعم" تقع لتقرير ما بعد الاستفهام وأن "بلى" تقع لإيجاب المنفي، مقرونا بالاستفهام أو غير مقرون به. وكذلك لا يفرقون بين حرفي الجر "من ومنذ" فيقولون: ما رأيت من أمس، مع أن من تختص بالمكان، ومذ ومنذ يختصان بالزمان كما لا يفرقون بين "أو وأم" في الاستفهام فينزلون، أحدهما منزلة الأخرى، مع أن الاستفهام مع أو يكون عن أحد الشيئين والاستفهام مع أم وضع لطلب تعيين أحد الشيئين"[5].

---

[1] -ابن السكيت ، اصلاح المنطق ص 280.
[2] - الحريري ، درة الغواص، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997، ص 41.
[3] - نفسه ، ص90
[4] - الكسائي ن ما تلحن فيه العامة ص 102-103
[5] - الحريري ، درة الغواص ص 157، 158-160.

د. المستوى الدلالي

لقد أصاب اللحن هذا المستوى، فعبر عنه بعض أهل التصويب اللغوي بما يضعه الناس في غير موضعه، وما جهلت العامة الفروق بين الألفاظ في الاستعمال وهذا ما أفاض فيه الحريري في درته فذكر"أنهم لا يفرقون بين الحث والحض وقد فرق بينهما الخليل فقال : الحث يكون في السير والسوق وفي كل شيء، والحض يكون فيما عدا السير والسوق نحو قوله تعالى"لا يحض على طعام المسكين ". وكذلك لا يفرقون بين النعم والأنعام وقد فرقت بينهما العرب فجعلت النعم اسما للإبل وللماشية التي فيها الإبل، وقد تذكر وتؤنث. وجعلت الأنعام اسما لأنواع المواشي من الإبل والبقر والغنم، حتى إن بعضهم أدخل فيها الظباء وحمر الوحوش تعلقا بقوله تعالى "أحلت لكم بهيمة الأنعام"[1].

وفي أدب الكاتب "باب ما يضعه الناس في غير موضعه كأشفار العين يذهب الناس إلى أنها الشعر النابت على حروف العين، وذلك غلط، إنما الاشفار حروف العين التي ينبت عليها الشعر، والطرب : يذهب الناس إلى أنه الفرح دون الجزع وليس كذلك إنما الطرب خفة تصيب الرجل لشدة السرور أو لشدة الجزع . والقافلة تستعمل في السفر ذاهبة كانت أم راجعة وليس كذلك، إنما القافلة الراجعة من السفر، والمأتم يذهب الناس إلى أنه المصيبة وليس كذلك، إنما المأتم النساء يجتمعن في الخير والشر"[2].

وأورد أبن الحنبلي لفظالقيلولة في معني الإقالة، فلا يقال : سألته القيلولة في البيع بل سألته الإقالة في البيع، والعامة تقول : القيلولة وذلك خطأ، إنما القيلولة نوم نصف النهار"[3].وحكي ابن بالي القسطنطيند ي عن الجواليقي في التكملة "أن العامة تذهب إلى أن اليتيم الصبي الذي مات أبوه أو أمه وليس كذلك إنما اليتيم من الناس الذي مات أبوه خاصة، فإذا ماتت أمه يقال له :العجي، واليتيم من البهائم الذي ماتت

[1] - المصدر السابق ، ص 158- 159.
[2] - ابن قتيبة، أدب الكاتب، ص 27 وما بعدها.
[3] - ابن الحنبلي، سهم الألحاظ في وهم الألفاظ، تح حاتم صالح الضامن، عالم الكتب، بيروت،ط1987،1،ص 21.

أمه"[1]من فقد أبواه سمي لطيما ولم يشر إليه ابن بالي، والعامة تلحقه باليتيم أيضاقو"لهم للقائم اجلس، والاختيار أن يقال له : أقعد وللمضطجع وأمثاله اجلس، فإن العقود هو الانتقال من علو إلى سفل والجلوس عكسه "[2].ومما تضعه العامة في غير موضعه عند ابن السكيت قولهم "خرجنا نتنزه إذا خرجوا إلى البساتين، وإنما التنزه التباعد عن المياه والأرياف، ومنه يقال : فلان يتنزه عن الأقذار أي يتباعد عنها، ففي قول الهذلي:

أقب طريد بنزه الفلا ة لا يرد الماء إلا ائتيابا

بنزه الفلاة : يعني ما يباعد من الفلاة عن المياه والأرياف. وظللنا متنزهين إذا تباعدنا عنه، وإن فلانا لنزيه كريم، إذا كان بعيدا عن اللؤم ، وهو نزيه الخلق، وهذا مكان نزيه أي خلاء ليس فيه أحد"[3].

هذه بعض الأمثلة عن مظاهر اللحن في اللغة من خلال مستوياتها المختلفة، وإن فضل الدراسات اللغوية الحديثة حول التصويب والتخطيء اللغويين يكمن في ذلك التصنيف للأخطاء اللغوية ا لشائعة عند الناس عامتهم وخاصتهم بحسب مستويات العربية حتى يتسنى لنا التفريق بين ما هو لحن في مجال النحو والصرف أو الأصوات أو الدلالة . حيث أن حركة التأليف في التنقية اللغوية عند القدامى إنصب جهدها في الجمع والاستقصاء دون العناية بالترتيب والتبويب على هذا النحو، فماذا قدم الأولون وماذا أضاف المحدثون؟ وما هي المناهج المعتمدة في حركة التصويب اللغوي؟ ومن هم الرواد الذين أغنوا التراث العربي بما صنفوه من تصانيف إستفرغوا فيها الجهد في بيان اللحن وخطره على اللسان العربي الفصيح؟ وهل يمكن التسليم المطلق لكل ما اعتبروه لحنا في الاستعمال اللغوي؟ وهل يمكن تصنيف حركة التأليف في التنقية اللغوية إلى تيار متشدد وتيار متساهل؟ كل ذلك نجيب عنه في المبحث التالي.

[1] - ابن بالي علي القسطنطيني، خير الكلام في التقصي عن أغلاط العوام، تح حاتم صالح الضامن، عالم الكتب، بيروت ط1 ، 1987، ص52.
[2] - نفس المرجع، ص 15.
[3] - ابن السكيت، إصلاح المنطق، ص 287.

4. حركة التأليف في التنقية اللغوية ومناهجها المختلفة .

كان الهم الأكبر عند علماء اللغة الذين ألفوا في لحن العامة هو الحفاظ على السلامة اللغوية ورد الخارجين عن الفصحى إلى الصواب ، فبذلوا في سبيل ذلك جهودا لا تنكر لاسيما عند فشو اللحن واستفحاله بفعل تلك العوامل التي أشرنا إليها سلفا، والتي حفزت إلى حركة لا نظير لها في تاريخ العربية، كثفت نشاطها في متابعةالأخطاء اللغوية الشائعة في زمانهم والبرهنة على فسادها بالرجوع إلى المادة التي جمعها اللغويين الأوائل من أفواه العرب الأقحاح، فكانت البديل الأصل الذي لا يعذر الخروج عنه، ولقد كان المصطلح الشائع ساعتئذ لحن العامة أو لحن العوام حيث شغف به جل من ألّف في التنقية اللغوية . "وليس المقصود بالعامة هنا الدهماء وخشارة الناس، فما كان يهم اللغويين من أمرهم شيء، وإنما المقصود بهم هم المثقفون الذين تتسرب لغة التخاطب والحياة اليومية إلى لغتهم الفصحى في كتاباتهم أو أحاديثهم في المجالات العلمية والمواقف الجدية، كموقف الخطابة والوعظ وغيرها، بل لقد وصل ببعض علماء اللغة أن يخصوا بكتاباتهم خاصة المثقفين كما فعل الحريري في كتابه: "درة الغواص في أوهام الخواص""[1].

لقد اجتهد لفيف من الباحثين في جمع تراث اللحن، فأحصوا عددا هائلا من المؤلفات والمصنفات بدءا من القرن الثاني الهجري إلى عصرنا هذا مما يتيح فرصة الدراسة التاريخية لظاهرة اللحن . ذلك الزخم من التراث اللحني قديما وحديثا يمكننا أن ندرس مبدأ التنقية اللغوية، واستنباط المناهج التي أطرت تلك الحركة في التخطيء والتصويب، وهذا ما سنحاول الحديث عنه في هذا المبحث مع التفريق بين منهج القدامى ومنهج المحدثين .وقد أحصى بعض الباحثين عددا هائلا من المصنفات في ظاهرة اللحن سوف نشير إلى عدد منها أثناء الدراسة.

[1] - رمضان عبد التواب، لحن العامة والتطور اللغوي، ص 70.

أ. منهج التصويب والتخطيء عند القدامى

عند كثير ممن ألفوا في التنقية اللغوية بعض المصطلحات أخذها بعضهم عن بعض وقد بينا مفهوم العامة والعوام، وهو يحتاج إلى تدقيق، ذلك أن هذه الألفاظ يقابلها لفظ الخاصة أو الخواص، والمشهور أن الناس عوام وخواص: فالعوام يمثلون ما نسميه بالناس العاديين الذين لم تظهر عليهم سمات ثقافية أو علمية، وقد يسميهم البعض بالدهماء وهذا لا يقلل من شأنهم، فقد نجدهم على قدر متفاوت من الثقافة والعلم والذكاء، ولكن لا يملكون المؤهلات العلمية. أما الخواص فيمثلهم خلاصة المجتمع، ونخبته المثقفة من فقهاء وعلماء وأدباء وشعراء وغيرهم، فكون اللغويين لا يلتفتون إلى شيء من أمر العوام في رأي رمضان عبد التواب قول يحتاج إلى توضيح لأن اللغة يحكمها الاستعمال سواء من العامة أو الخاصة، واللحن عند استفحاله أخل باللسانين معا، وبالتالي وجدنا من اللغويين من ألف في لحن الخواص من الناس كما فعل الحريري في درته وغيره. كما أن الأصوليين استعملوا المصطلحين معا وفرقوا بينهما فكل من فقد القدرة على الاستنباط والاجتهاد في مسائل الشريعة سمي عاميا أو مقلدا حتى اشتهر في مقولاتهم: "العامي لا مذهب له فمذهبه مذهب مفتيه" وما يقابل هؤلاء العوام، الخاصة الذين جمعوا أدوات الاجتهاد وتهيأت لديهم ملكة الاستنباط لذلك نرى أن شيوع مصطلح "العامة"و"العوام" عند كثير من علماء اللحن لا يفهم منه سوى الرصيد اللغوي المستعمل في تلك الفترة الزمنية التي شاع فيها اللحن. فبادر فريق من علماء اللغة إلى إنكاره وتصويبه. أما إن كان المقصود بالعامة هم الذين يستعملون اللهجة "العامية" التي أصبحت منذ ظهورها مستوى لغويا منفردا له ظروفه وأسبابه، ولا يمكن أن تكون بديلا عن العربية الفصيحة وإن أبقت العامية على شيء منها، حتى إن بعض الدارسين من أحصى الألفاظ الفصيحة في اللغة الدارجة العامية.

وإذا جئنا ندرس منهج القدامى في الإصلاح اللغوي، فنحن أمام مناهج مختلفة، حيث ذهب كل فريق مذهبا متباينا وإن تقاطعت المناهج أحيانا، وذلك لتأثر بعضهم ببعض. ففي أغلب المؤلفات نجد اعتناء كثيرا بالاستقصاء وجمع الألفاظ الملحونة

مجردة دون الاهتمام بسياقاتها الواردة فيها فغابت بذلك الجمل والتراكيب وكان الاعتماد في معيار التصويب عند كافة المؤلفين هو المادة اللغوية المأخوذة عن أفواه العرب الفصحاء، ولم يحاول بعضهم التفسير ولم يعتنوا بالتعليل للظواهر اللحنية بل اكتفوا بأن عابوا وأنكروا تلك الاستعمالات الخاطئة التي لم تؤثر عن عصر الاحتجاج، وفي تراث لحن العامة نجد نوعا منه قد صنف لغرض الاختصار أو الشرح أو الرد فقد استدرك بعضهم على بعض وذيل بعضهم لبعض وهذب آخرون كتبا احتاجت في نظرهم إلى حسن ترتيب وتبويب. فنجد مثلا كتاب :" ذيل فصيح ثعلب" لعبد اللطيف البغدادي، وكتاب:" فائت الفصيح" لأبي عمر الزاهد، وكتاب: "تهذيب الخواص من درة الغواص" لابن منظور الإفريقي حيث رتبها ترتيبا أبجديا، كما عمد الشهاب الخفاجي إلى شرحها، ورتب محمد بن أحمد الحنفي العلائي كتاب: "ما تلحن فيه العامة" للكسائي وضبط أبوابه في مؤلف سماه: "النصيحة التامة للخاصة والعامة".فكان الهم الأكبر عند كتّاب اللحن الجمع والاستقراء دون مراعاة منهجية خاصة واضحة فغلب عليهم السرد. فأسلوب الكسائي" غير منهجي، إذ يسرد الكلمات سردا، دون أي نوع من الترتيب أو التقسيم، وليس هذا بغريب على أول تأليف في موضوع "لحن العامة" فهو لا يهتم بجمع النظير إلى نظيره مثل: حرص، عجز، نقم، عسيت، دمع، نكل عن جاءت مبعثرة لا ينظمها عقد واحد رغم أنها من ذوات الأفعال مفتوحة العين، وكسرها لحن عند الكسائي. وكذا: صرفت فلانا، شغلني فلان عن عملي، هديت العروس إلى زوجها، حاطك الله بعونه، دفقت الإناء وهرقته يجمعها جامع واحد، وهو أنها تتعدى بنفسها ولا تحتاج إلى همزة التعدية فلا يقال: أصرفت ولا أشغلني"[1]. وذهبت ثلة من المؤلفين إلى الإقتصار على حواضر بعينها فجمعوا أغلاطها اللغوية كما فعل أبو بكر الزبيدي في كتابه: "ما يلحن فيه عوام الأندلس" فقد امتاز صاحبه بنزعته المتشددة إزاء كلام العامة، وأبن هشام اللخمي في كتابه: "المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان" وهذان الكتابان هما الباقيان في التنقية

[1]- المرجع السابق، ص 118 .

الأندلسية جمعا الكثير من خصائص لغة الأندلسيين التي انحرفت نتيجة احتكاكها بلغة أهل البلاد الأصلية، مع أن ابن هشام قد عرف بالتساهل والتيسير على العامة حتى بالغ في ذلك، وقد شاركه البطليوسي في تلك النزعة، وإن عد في زمرة المعتدلين.

ومن علماء اللحن من كانوا يعدون لفظا غير مشهور لم يتداوله الجمهور من اللغويين لحنا، وإن كان مأثورا عن بعضهم، "ففي الاقتضاب" للبطليوسي اعترض على ابن قتيبة في مواضع تسرع فيها فحكم باللحن على غير الأفصح، دون أن يذكر ما تركه من غير الأفصح، وقد تكون لغة قوم بأعيانهم، أو رأيا لبعض علماء اللغة، ومثل هذا لا يحكم عليه باللحن، "فقد رد على إنكار أن تكون كلمة وزة في إوزة من لغة العوام، إذ حكى يونس في نوادره أن الإوزة لغة أهل الحجاز، وأن الوز لغة بني تميم"[1].

ومن ملامح المنهج عند بعض القدامى إيراد الشواهد للاحتجاج على فريقين: فريق قلل من ذكر الشواهد كما فعل أبو العباس ثعلب في الفصيح لأنه كان غاية في الاختصار، وفريق آخر أكثر من إيراد الشواهد لاسيما تلك المصنفات التي تناولت بعض كتب اللحن بالشرح والتحليل، فأفاض أصحابها في شواهد القرآن والشعر والحديث النبوي كبعض الشروح على ثعلب وإسهاب الحريري في الدرة فأورد حشدا من الإستشهادات وتوسع في ذكر أخبار اللغويين، وعلى نفس المنوال نسج الجراليقي في "التكملة" التي شرح فيها الدرة. ونهج لغويون آخرون نهج الإنكار الشديد، والهجوم العنيف على ما ألفه غيرهم في اللحن فخطأ بعضهم بعضا، وسفه بعضهم آراء بعض كإنكار الزجاج على الفصيح لثعلب سبب خصومة كانت بينهما منشأها أن ثعلبا كان يعيب البصريين وفي مقدمتهم سبويه والمبرد، فثار الزجاج فسلط هجومه عليه واستدرك جملة من المآخذ، وإن كان لها وجها في العربية ولولا الخصومة ما كانت تلك المآخذ حتى علق ياقوت الحموي على ذلك بقوله: "وهذه المآخذ التي أخذها الزجاج على ثعلب، لم يسلم إليه علماء اللغة فيها، وقد ألفوا في

[1]- ابن السيد البطليوسي، الاقتضاب في شرح أدب الكتاب تح محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية بيروت، ط1، 1999 ،ج1 ص268.

الانتصار لثعلب"[1]. وقد نقل عن ابن خالويه انتصاراته لثعلب وإنصافه من الزجاج. كما رد في ابن هشام اللخمي على الزبيدي وابن مكي الصقلي وبين تعسفهما في التخطيء في كتابه:"المدخل إلى تقويم اللسان" ففرق بين ما هو ليس بفصيح ولكنه ليس خطأ، وكان يعتد بالأقوال الضعيفة، ويصحح الأشعار التي وقع فيها الغلط في ألفاظها أو نسبتها إلى أصحابها، وفرق بين الفصيح والأفصح، فيرى أن ما كان لغة لا يعد لحنا، وما كان محل خلاف خرج عن اللحن أيضا، وذهب ابن مكي الصقلي إلى تصويب ما أنكرته الخاصة على العامة في باب ما تنكر الخاصة على العامة وليس بمنكر، وباب ما خالفت فيه العامة الخاصة وجميعهم على غلط، وباب ما العامة فيه على صواب والخاصة على خطأ، كما خطأ الكتاب مثلما فعل ابن قتيبة في تقويم اليد والحريري الذي جمع طائفة من أخطاء الكتابة والإملاء"[2].

ومن علماء اللحن من كان أصيلا غير مقلد، ومنهم من نقل عن الأولين وسار على منوالهم فمن الأصلاء ابن الجوزي في كتابه: "تقويم اللسان" وهو كتاب مرتب ترتيبا أبجديا وقد عد من الرواد في حسن الترتيب والتقسيم هدفه من ذلك التيسير على الطالب.

ومنهم من ألف في غلط النحويين ككتاب: " النحو ومن كان يلحن من النحويين " لأبي زيد بن شبة البصري وهو مفقود، ويبدو من عنوانه أنه خاص بأخطاء النحاة. وهناك من كتب في لحن الفقهاء والمحدثين، ككتاب: "إصلاح غلط المحدثين" لأبي سليمان الخطابي، وقد ألفه في التصحيح اللغوي لما يلحن فيه رواة الحديث أورد فيه نحو مائة وأربعين حديثا فيها ألفاظ يخطئ فيها أهل الحديث في ضبطها أو في معناها وأشار إلى الصحيح منها يقول: "هذه الألفاظ من الحديث يرويها أكثر الرواة والمحدثين ملحونة محرفة أصلحناها وأخبرنا بصوابها، وفيها حروف تحتمل

[1]- ياقوت الحموي، معجم الأدباء، تح إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي ، بيروت، ط1، 1993، ج1 ، ص 58.

[2]- ابن هشام اللخمي، المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان، تح مأمون بن محي الدين الجنان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 1995 ص 11-46.

وجوها اخترنا أبينها وأوضحها"[1]. ومن الأمثلة " قوله صلى الله عليه وسلم في البحر: "هو الطهور ماؤه الحل ميتته"[2]. فعوام الرواة يكسرون الميم من الميتة يقولون ميتته، وإنما هي ميتته مفتوحة الميم يريدون حيوان البحر إذا مات فيه كما قالوا فلان حسن القعدة والجلسة والمشية، والسيرة... ويراد بها الحال والهيئة، ومثله قوله صلى الله عليه وسلم "إذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وإذا قتلتم فأحسنوا القتلة"[3]، وأما الذبحة بالفتح فالمرة الواحدة من الفعل"[4].

وفي أخطاء الفقهاء ألف ابن بري :"غلط الضعفاء من الفقهاء" جمع فيه ما دار على ألسنة أئمة الفقه من أغلاط فأحصى أكثر من مئة لفظة أخطأوا في ضبطها أو في معناها، وأشار إلى صوابها معتمدا على أقوال العلماء الثقات فجاءت أبوابه مصنفة من مثل: ترك الهمزة أو تسهيلها، التصحيف، التأنيث والتذكير، التسكين والتحريك وغيرها. ولم يرتب كلماته على حروف الهجاء فهو يذكر اللفظ كيف ينطق ثم يشير إلى الصواب بإيجاز من غير شواهد ولا أمثلة إلا نادرا فاستشهد بآيتين وثلاثة أحاديث وبيتين من الشعر يقول : "هذه الألفاظ ذكرها المتقدمون من علماء أهل اللغة، مما يغلط فيه كثير من ضعفاء الفقهاء وغيرهم، نقلتها عنهم كما ذكروها، وأتبعت ذلك بزيادة بيان لا غير"[5]. ومما إستدركه على الفقهاء: "ويقولون أذّن العصر، وصوابه: أُذن بالعصر، و.. ويقولون غسل الجنابة يضم الغين والأجود غسل بفتحها وهو المصدر، وبالضم الاسم، وفي حديث أبن عباس قال: قالت ميمونة وضعت للنبي صلى الله عليه وسلم غسلا فسترته بثوب فصب على يديه فغسلهما"[6].ويقولون لواحد الأنفال وهي الغنائم : نفل بسكون الفاء، وصوابه: نَفَل بفتحها، ويقولون سحور الصائم بضم السين والصواب فتحها، وكذلك الفطور بفتح

---

[1]- أبو سليمان الخطابي، إصلاح غلط المحدثين، تح حاتم صالح الضامن، عالم الكتب، بيروت ط1 ،1987، ص6.

[2]- الحديث رواه مالك في الموطأ، وأبو داود والترميذي.

[3]- رواه الترميذي والنسائي

[4]- الخطابي ، إصلاح غلط المحدثين ص 32.

[5]- ابن بري، غلط الضعفاء من الفقهاء، تح حاتم صالح الضامن، عالم الكتب ، بيروت ، ط1 ،1987، ص6.

[6]- الحديث رواه مسلم .

الفاء، ويقولون: التقصير في الصلاة، وصوابه القصر من الصلاة. قال الله تعالى: "أن تقصروا من الصلاة" ويقولون: إذا ارتفع الضحى وصوابه: ارتفعت الضحى لأنها مؤنثة"[1].

وأفرد ابن مكي الصقلي في كتابه: "تثقيف اللسان وتلقيح الجنان" في أوهام الخاصة وأغلاطهم أبوابا أحصى فيها ما أمكنه من فئات المثقفين على اختلاف مشاربهم فجمع غلط أهل الطب، وأهل السماع، وأهل الوثائق، وغلط القراء، ولحن الفقهاء والمحدثين[2]. وامتاز أبو علي التونسي عن غيره من الذين كتبوا في التصحيح اللغوي فكتب حول الأغلاط التي تؤثر على التوحيد، وتؤدي إلى انحراف في العقيدة مما يجري على ألسنة الناس فجمع ذلك في كتاب سماه: "لحن العوام فيما يتعلق بعلم الكلام"، وهذا الكتاب وإن كان لا ينتمي إلى كتب اللحن في رأي رمضان عبد التواب لأنه ألف في الأخطاء التي تمس عقيدة التوحيد، فالتراكيب صحيحة، غير أنها توهم عدم تنزيه الله تعالى عما لا يليق بعظمته وصفاته. إلا أننا نعتبر أن هذا الكتاب من صميم كتب اللحن لأنه ينبه إلى مسألة في غاية الخطورة وهي الأخطاء اللغوية الشائعة عند العامة وغيرهم التي تفسد العقيدة الصحيحة ، وهذا يزيد في استقباح اللحن واستعظامه وإن كان الأمر يتعلق بالنوايا والمقاصد. ولكن إفساد اللغة إفساد للدين أيضا، واللحن لا يكون في الشكل فحسب بل في المباني والمعاني على حد سواء. ومن الأمثلة: " التكبير في الصلاة: الله أكبار بزيادة ألف بعد الباء وذلك لا يجوز.. وفي التكبير أيضا يقول: الله وكبر بإبدال واو من الهمزة، وذلك لا يجوز في حق الله لأن الوكبر في اللغة: دويبه صغيرة، ولو قصد المعنى هنا لكان كافرا، وإن لم يقصد فمخطئ.. ويقول قائلهم: آلله أكبر على صفة الاستفهام، ولو قصد المعنى هنا لكان كافرا أيضا، لأنه يستفهم، ولا يقع الاستفهام على الحقيقة إلا من غير معتقد ما يستفهم عنه، والشك في كبرياء الله تعالى كفر صريح"[3].

---

[1]- ابن بري، غلط الضعفاء من الفقهاء، ص 18 وما بعدها.

[2]- ابن مكي الصقلي، تثقيف اللسان وتلقيح الجنان تح مصطفى عبد القادر عطاء، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط1 1990 ص 202 وما بعدها.

[3]- رمضان عبد التواب، لحن العامة والتطور اللغوي، ص 301.

ب. منهج التصويب والتخطيء عند المحدثين

لم يخرج المحدثون عند الهدف الأسمى الذي جند علماء اللغة السابقين له أنفسهم في حماية اللغة، فقد سخروا طاقاتهم في تتبع اللحن وواكبوا الحياة العصرية وتطوراتها المختلفة ، ولا شك أنهم اقتبسوا من مشارب الأولين، وتأثروا بمناهجهم فكان بعض من كتبوا في اللحن امتدادا لهم حيث حصر بعض المؤلفين في اللحن بلد بعينه ككتاب: " دفع الأصر عن كلام أهل مصر" ليوسف المغربي، "وفيه مادة نافعة لاستنباط كثير من الأحكام عن لغة مصر في القرن الحادي عشر الهجري، وعوامل تطورها من العربية الفصحى في ضوء القوانين اللغوية، التي أرسى قواعدها المحدثون من علماء اللغات، وقد اجتهد المغربي في تقليل تطور الكلمات التي أتى بها فأصاب حينا وخانه التوفيق حينا آخر"[1].

ويعد المغربي من الذين رتبوا المادة اللغوية على طريقة صاحب القاموس وذلك لييسر على الطالب العثور على مراده، وقد اختصره ابن أبي سرور البكري في كتاب: "القول المقتضب فيما وافق لغة أهل مصر من لغات العرب"، فارتكزت جهود التنقية عند بعضهم حول التهذيب والاختصار أو الجمع. ومنهم من تتبع مقالات نشرت في التصويب اللغوي فأحصاها ورتبها وأحسن جمعها في كتاب مستقل كتلك المقالات التي نشرها إبراهيم اليازجي "تباعا في مجلة "الضياء" وقد جمعها في حياته مصطفى توفيق المؤيدي ونشرها في كتابه "لغة الجرائد".. يرى اليازجي أن شيئا من اللحن في عبارات تلك الجرائد شذت عن منقول اللغة فأنزلت في غير منازلها، واستعملت في غير معناها، فجاءت بها العبارة مشوهة، وذهبت بما فيها من الرونق وجودة السبك فضلا عما يترتب على مثل ذلك من انتشار الوهم والخطأ، ولاسيما إذا وقع في كلام من يوثق به فتتناوله الأقلام بغير بحث ولا نكير"[2]. كما اجتهد بعض اللغويين في نقد لغة الكتاب فألف أحمد أبو الخضر المنسي كتابا سماه: "حول الغلط والفصيح على ألسنة الكتّاب" فنوه بجهد اليازجي ورأى أن

[1]- رمضان عبد التواب، لحن العامة والتطور اللغوي، ص 357 .
[2]- نفس المرجع، ص 381-382.

عمله امتداد له باعتبار أن الخطأ لا يزال منتشرا، وأنه قد جد من الأمر ما لم يكن في زمن اليازجي.

وألف أسعد خليل داغر كتابه " تذكرة الكتاب" ضمنه الأغلاط اللغوية الدائرة على ألسنة الخطباء والكتاب، فيرى أن الأسباب ترجع في الأساس إلى شيوع العامية وطغيانها وكثرة السماعي في اللغة، والتقليد الأعمى لمن يظن منه ا لتمكن من زمام اللغة، وإهمال اللغة من طلبة العلم حين يزهدون بعد التحصيل في إنهاء معارفهم بطول المطالعة والمراجعة، ومن الأمثلة : "تذكير الموسيقا فقالوا : نادي الموسيقا الشرقي، والسكة السكة الحديد، ويمين غليظ . وفي التراكيب قدموا لفظ التوكيد على المؤكد: فقالوا جاء نفس الرجل بدلا من جاء الرجل نفسه .. كما خطأ الحشو في الكلام كقولهم: يتغامزون عليه بالعيون لأن التغامز لا يكون إلا بالعيون لقوله تعالى"إذا مروا بهم يتغامزون ""[1]، وذهبت طائفة من الباحثين إلى تصويب لغة الصحف والمجلات فتناولت اللغة الإعلامية بالتنقية على ألسنة الإذاعيين والصحفيين ولا تخفي خطورة الإعلام مسموعا كان أو مقروءا أو مرئيا فمن الناس من يدمن على قراءة الجرائد اليومية وغيرها، فللإعلام دوره الفعال في الحفاظ على اللغة."ومع انتشار الكلمة المطبوعة، وكثرة الصحف والمجلات، وحلول العين محل الأذن في تعليم ا للغة واكتسابها حدثت كارثة التي تعاني منها اللغة العربية الآن وسبب ذلك أن طريقة الكتابة العربية معيبة لاكتفائها بتمثيل السواكن دون الحركات، مما يجعل القارئ المتلقي للكلمة لأول مرة عن طريق العين يتصرف في كيفية نطقها في الشكل الذي يراه، وتختلف صور التصرف من شخص إلى آخر، مما أدى إلى فوضى في نطق الكلمات العربية لا تكاد تراها في لغة أخرى "[2]. وكتب أيضا عن مثل هذه الأخطاء كتاب : "أخطاء اللغة العربية المعاصرة عند الكتاب والإذاعيين " تحدث في مدخل الكتاب عن الدوافع التي ألجأته إلى الكتابة في هذا الموضوع ونقد لغة الإذاعة والصحافة ووضع عددا من الاقتراحات لإصلاح ذلك كما قسم المآخذ

[1] - عبد الفتاح سليم ، موسوعة اللحن .ص 406 وما بعدها.
[2] - أحمد مختار عمر، العربية الصحيحة، عالم الكتب ، القاهرة ط2، 1998 ص 87 .

إلى صوتية نطقية، وصرفية، ونحوية ومعجمية ودلالية . وفي ختام الفصول تحدث عن بعض التدريبات والتمارين لتنمية الحس اللغوي عند الإعلاميين . يقول: "وأحب أن أوضح منهجي في جمع المادة وفي تأليف الكتاب وهو : الاهتمام على وجه الخصوص بأخطاء المشاهير من الأدباء والكتاب وأصحاب الأعمدة والمقالات الثابتة في الصحف والمجلات، والتركيز على إذاعة القاهرة في المادة المسموعة، والبرنامج الإخبارية والسياسية، والخطب والأحاديث الدينية، كما أدخلت في الاعتبار قناة التلفزيون الأو لى خاصة بعض النشرات،وعدم التعرض للأخطاء البديهية التي يقع فيها الكتاب والإذاعيون كنصب الفاعل ورفع المفعول " إلا ما كان نتيجة شبهة أو توهم، فأخذت بالمشهور الشائع من القواعد وتجاوز الخلافات النحوية، وتركت الشاذ عن القاعدة الرئيسية، ثم التوسع في القياس وفي ك ل ما ينمى الثروة اللغوية، وفي مجال المفردات والتعبيرات والتراكيب التي لا تخرق قاعدة أساسية، ولا تخالف نمطا شائعا وتبنيت الكثير من الآراء التي أقرها مجمع اللغة العربية بالقاهرة "[1]. ومن الأمثلة التي أحصاها حسب مستويات اللغة التي صنف من خلالها المآخذ، ففي الأغلاط النحوية والتركيبية التي شكلت مادة غزيرة من الكتاب " تكرار " كلما" في مثل عبارة: كلما اقترب الموعد.. كلما زاد خطر الحرب، والصواب حذف "كلما" الثانية .وحذف الفاء من جواب "أما" إذ الفصيح في لغة العرب إيقاع الفاء في جواب "أما" كما في قوله تعالى "فأما اليتيم فلا تقهر" الآية. ولكنني سمعت في برنامج: أما المستمع..بعث يسأل وصوابها : أما المستمع فقد بعث يسأل أو فبعث يسأل"[2].ومن الأخطاء المعجمية والدلالية " تجربة بضم الراء والصواب كسرها، وهي في الأصل مصدر للفعل جرب ثم أطلقت على اختبار الظاهرة وملاحظتها ملاحظة دقيقة ثم أطلقت على ما يعمل أولا لتلافي النقص في شيء وإصلاحه والجمع تجارب بالكسر

[1]- احمد مختار عمر ، أخطاء اللغة العربية المعاصرة عند الكتاب والإذاعيين ،عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2001، ص16-17.

[2]- نفس المرجع، ص180 وما بعدها.

أيضا، والرجل يحتضر والصواب يُحتضر، والخيارات بفتح الخاء والصحيح الخيارات بكسرها"[1].

ولا يمكننا في هذا المقام أن نغفل جهود مجامع اللغة العربية التي أخذت على عاتقها حماية اللسان العربي من اللحن من خلال خيرة اللغويين والباحثين . وجهود بذلها عدد من المستشرقين خدمة للتراث العربي فكان من الرواد الأب "أستانس ماري الكرملي" الذي عرف بحبه للعربية "ملما بطرف من لغات شرقية وغربية، نفاه العثمانيون خلال الحرب العالمية الأولى إلى الأناضول بسبب مناداته باللغة العربية والإشادة بمحامدها،

فكتب مقالات وتعليقات وخواطر في اللغة والنحو وفقه اللغة والتاريخ والدين والفلكلور وغيرها له أثار موزعة بين الكتب المؤلفة والمحققة والمترجمة، وكان كثير النظر في المعجمات العربية حيث أخرج منها ما بدا له صحيحا فاستدرك عليه، وضم من ذلك مادة كبيرة إلى معجمه "المساعد" وكانت أغلب مؤلفاته مقالات، وكثيرا ما كان يعلق على خطأ لغوي وقع فيه مؤلفوا المعجمات القديمة منها والحديثة. وكان من أعضاء المجمع اللغوي بمصر ودمشق، ومجمع المشرقيات الألماني "[2] ومن مؤلفاتها التي تنتمي إلى كتب التنقية اللغوية كتاب " أغلاط اللغويين الأقدمين" عرض فيه ما ورد في المعجمات القديمة من المآخذ جمعها على غير نظام معين . وفي ختام هذا المبحث نسجل جملة من المقترحات منها:

1- إدراج التصويب اللغوي في المناهج التعليمية الجامعية، وتوجيه الطلاب إلى ذلك في بحوثهم ورسائلهم الأكاديمية.

2- المحافظة على السلامة الغوية نطقا وكتابة عند تلاميذ المدارس في جميع الأطوار التعليمية.

---

[1] - المرجع السابق، ص 200 وما بعدها .

[2] - حكمت كشلي فواز،الأب انستاس ماري الكرمليو والمساعد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 ،1996.ص 8 ، 9 ، 10.

3- تشجيع حركة الكتابة في التنقية اللغوية على الأقل في الصحف والمجلات لإحياء اللغة السليمة عند القراء، وليكن من بين الأعمدة الثابتة إصلاح لغة الجرائد نفسها.

4- إعداد برامج إعلامية إذاعية كانت أم تلفزيونية تعنى بالإصلاح اللغوي يشرف عليها متخصصون لغويون، وليكن من بين برامجها وحصصه ما يصلح اللغة الإعلامية.

5- التكوين اللغوي الوافي لفئة الإعلاميين عموما من صحفيين وإذاعيين وتربويين فهؤلاء دورهم خطير ومسؤوليته ثقيلة في نقل اللغة السليمة إلى الناس.

6- التكوين اللغوي الدقيق لفئة الخطباء والوعاظ و كل ذي مسؤولية أو وظيفة دينية دعوية.

7- اعتناء الباحثين المرموقين بالإصلاح اللغوي حتى يصبح فنا يطلب، وعلما قائما بنفسه له قواعده ومناهجه ورواده.

8- الانتقال في التأليف في ظاهرة اللحن من مجرد رصد الصيغ الملحونة في الألفاظ إلى رصد الجمل والتراكيب المغلوطة وذكر سبب فسادها ومعناها.

9- تفعيل دور المجامع اللغوية وتحديث وسائلها في الإصلاح اللغوي وذلك باستحداث لجنة ضمن اللجان الثابتة خاصة بالتصويب والتخطي كلجنة اللهجات، ولجنة المعجم وغيرها كما هو الحال في المجمع اللغوي القاهري.

5. مفهوم التطور اللغوي

تطرقنا فيما سبق إلى مفهوم التطور في معناه اللغوي والاصطلاحي وأشرنا إلى أنه ذو مجالات متعددة منها الأفكار، والعادات و النظم، والسلوكات وغيرها وتعدّ اللغة ضمن المجالات التي يعمل فيها قانون التحول والتطور بشكل لفت أنظار الباحثين، فكتبوا حول ظاهرة التطور اللغوي، واستخلصوا القوانين والعلل التي تحكمه والمظاهر والصور التي تعلن عنه، وقد دفعهم إلى ذلك ما أجمعوا وآمنوا به

من أن اللغات لا تسير في حياتها على نحو من الصدفة المطلقة، ولا تخبط في تنقلها على ألسنة الناطقين بها خبط عشواء بل تحكمها في ذلك كله قوانين محددة، تكاد ترتقى أحياناً إلى مكانة القوانين الطبيعية ثباتاً وقوة ولا يعني جهلنا بها في بعض الأوقات أنها غير موجودة، ومهمة العلم هو تحديد مفهوم التطور اللغوي، والكشف عن القوانين التي تؤكد أن الظاهرة اللغوية حرة الحركة يمكن أن تولى وجهها أنى شاءت ولكن وهي محكومة بضابط لغوي معين، والمطلوب أولاً تحديد ماهية التطور اللغوي حيث عبرت بعض المعاجم التي اعتنت بتحديد المصطلحات اللغوية والأدبية واللسانية بمصطلحات مختلفة وهي تريد بذلك تحديد مفهوم التطور اللغوي ففي معجم المصطلحات اللغوية والأدبية " هو التغير الذي يصيب اللغة بفعل عوامل داخلية أو خارجية"[1]. وفيه إشارة إلى أن التطور اللغوي تحكمه عوامل داخلية وأخرى خارجية وسيأتي التفصيل فيها لاحقاً. وفي معجم المصطلحات اللغوية أن التطور اللغوي "تغير يصيب عناصر اللغة وذلك عادة خاضع لقوانين مطردة ومعقدة، ويدخل هذا المصطلح في مصطلحات أخرى تحديدية فيقال : تطور لغوي، وتطور صوتي، وعلم اللغة التطوري"[2]. والتطور اللغوي جزء من النظام التاريخي للغة وهو "نظام يبحث في تطور لغة ما عبر العصور المختلفة ودراسة مظاهر هذا التطور اللغوي من حيث المفردات والنحو والبلاغة، كما أنه يبحث في تأثر لغة ما بلغات أخرى، ومدى تأثير هذه اللغة في اللغات الأخرى، والعكس، وهو يعادل النظام الوصفي للغة"[3]. ويعد التطور خاصية مهمة للغة وهو "التطور المستمر الحاصل في اللغة، وذلك حين يلاحظ المتكلم أن كلمة أو جزءًا من الكلمة أو أجزاء صرفياً لم يعد كما كان في السابق"[4]. وإذا أطلق مصطلح التطور في العلوم اللسانية انصرف معناه إلى "أن كل لغة في تبدل مستمر وكل لغة تاريخ، ويدرس التاريخ الداخلي التغيرات الطارئة على بنية اللغة خلال تطورها بينما يدرس التاريخ الخارجي التغيرات الناتجة داخل العشيرة اللغوية واحتياجاتها في فضاء معين[5]". وتأسست بعض حقول اللسانيات

[1]- علية عزت عياد، معجم المصطلحات اللغوية والأدبية، ص 137
[2]- رمزي منير بعلبكي، معجم المصطلحات اللغوية، ص 179
[3]- علية عزت عياد، معجم المصطلحات اللغوية والأدبية، ص33
[4]- المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات، ص 29
[5]- Jean Dubois et autres, Dictionnaire de linguistique larouess, paris, Edt N°:1 1994,P189.

الحديثة على التطورات الواقعة على اللغات فظهر ما يعرف عند اللسانيين باللسانيات التطورية Linguistique Evolutive ومن مفاهيم التطور اللغوي أيضا "مجموع التغيرات الحاصلة بين فترتين من تاريخها، أي التتابع المتواصل(اللامنقطع) لحالات التوازن بين الجمود المادي العقلي للإنسان والحاجات التبليغية[1]".

6. عوامل التطور اللغوي

لا يحدث التطور اللغوي إلا تحت تأثير عوامل أفرد لها جمع من الدارسين بحوثا خاصة باعتبار أن اللغة والعربية على وجه التحديد من اللغات الحية التي تؤثر وتتأثر فلابد أن تأخذ وتعطى وتتطور لتساير ركب الحضارة ومراحل الحياة، والعوامل التي تؤثر في نمو اللغة وتطورها كثيرة ومتنوعة يمكن أن نصنفها إلى طائفتين، فهناك عوامل داخلية وأخرى خارجية على أساس أن اللغة العربية تمتلك في ذاتها وسائل التطور والنماء، وهي خاضعة لأسباب خارجية عن المدى اللغوي تعمل عملها في التوسع والثراء.

أ- العوامل الخارجية للتطور اللغوي:

التطور الذي يصيب الألفاظ والدلالات يقابله تطور في المجتمع والحضارة، وتقدم في العلوم والفنون وفي شتى المجالات، فإذا كانت الحياة منذ بدايتها لم تتوقف عن التحول والتجدد واللغة مكون أساسي في هذه الحياة باعتبارها ظاهرة اجتماعية وإنسانية خضعت بدورها لهذا النظام في سيرورتها التاريخية تحت تأثير عوامل خارجية قيل عنها أنها لم تنل حظا وافرا من قبل الباحثين ولم تحض ببحث عميق في الدرس اللغوي، وسوف نقتصر على ذكر أهم هذه العوامل بحسب أهميتها ودرجة تأثيرها في تطور اللغة ونموها.

1- الاحتكاك اللغوي:

من المسلم به عند اللغويين أن احتكاك اللغات ضرورة تاريخية وهذا الاحتكاك يؤدي إلى تداخلها إن قليلا أو كثيرا، ويكادون يقطعون بان التطور المستمر للغة من

[1]- Gorge Mounin, dictionnaire de linguistique, Quadriage, duf, paris, Edt, N°: 4, 2004, P131.

اللغات وهي منعزلة عن كل احتكاك وتأثر خارجي، يعد أمرا مثاليا أو مستحيلا، ذلك لأن الأثر البالغ الذي يقع على إحدى اللغات من لغات مجاورة لها كثيرا ما يلعب دوار هاما في التطور اللغوي إلى درجة أن بعض اللغويين ذهب إلى القول بأنه لا وجود للغة متطورة لم تختلط بغيرها فجعلوا التجاور بين لغتين تحت أي سبب من الأسباب يؤدي إلى التأثر في ظل عوامل أخرى اقتصادية وسياسية وغيرها "فمثلا الألمانية والفرنسية لغتان قويتان تستويان في القوة وبينها اختلافات لغوية كبيرة، فإذا ما تعرضتا للمنافسة والاحتكاك انحصرت المنافسة بينها في الميدان الاقتصادي وحده والعلاقات الاقتصادية... وللموقف السياسي أهمية كبرى في تمسك بعض الشعوب بلغة دون أخرى، وهناك عامل أخر يتوقف على القيمة الذاتية لكل لغة له أثره في المحافظة على سلامة الكثير من اللغات وبقائها فاليونانية مثلا كانت تمثل ثقافة من أعرق الثقافات فلم تستطع اللاتينية التغلب عليها، كما لم يستطع الاحتلال التركي للشرق خلال قرون بسياسته التتريكية أن يقضي على اللغة العربية لأن التركية لا تعد من لغات الحضارات الكبيرة خلاف لليونانية والعربية"[1]. ولا يمكن تحديد زمن لظاهرة الاحتكاك اللغوي إلا بالنظر إلى الظروف التي تحيط باللغة المغلوبة ومقدار ما فيها من عناصر الحيوية وروح المقاومة، وقد وضع علماء اللغة لذلك مراحل "فتبدأ المرحلة الأولى بطغيان المفردات للغة المؤثرة لتحل محل مفردات اللغة المستقبلة فتقل الكلمات وتكثر تبعا لتماسك وصمود تلك اللغة، فاللغات البربرية لم تترك في اللغة العربية إلا كلمات قليلة، وفي المرحلة الثانية تتغير مخارج الأصوات ويقترب النطق بها من النطق بأصوات اللغة الجديدة شيئا فشيئا وهي مرحلة تعد من أخطر مراحل التبادل اللغوي إذ يفضي إلى انحلال اللغة المغلوبة ويشتد قربها من اللغة الغالبة، وفي المرحلة الثانية يؤدي الاحتكاك إلى تغيير القواعد والقوانين اللغوية الخاصة بالجمل والتراكيب والأساليب فتفرض اللغة أخيلتها واستعاراتها ومعانيها المجازية على اللغة الأخرى فإنه متى اجتمعت لغتان في صعيد واحد فلا مفر من أن يتأثر كل منهما بالأخرى وذلك عند توفر الشروط التالية:

[1] - رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة و مناهج البحث، مكتبة الخانجي القاهرة، ط3 1997، ص 171 172

1. الشرط الحضاري: فلا تؤثر لغة ما في أخرى إلا إذا كان شعبها أرقى حضارة وأقوى سلطانا وأوسع نفوذا.
2. الشرط الزمني: فلا يمكن أن يتم للاحتكاك ثماره إلا إذا أخذ وقتا كافيا.
3. الشرط الاجتماعي: فالشعوب المعزولة عن غيرها لا تعرف لغتها طريقا إلى النمو لانعدام الاحتكاك.
4. الشرط اللغوي: فلا تأثر إلا إذا كانت اللغتان من شعبة لغوية واحدة أو من فصيلتين متجاورتين"[1]. ومن نتائج هذا الاحتكاك اللغوي أن وفد على العربية ألفاظا جديدة.

وسمى ذلك عند بعض اللغويين بالمستعار من اللغات الأخرى، أو بسياحة الألفاظ "فقد تخرج كلمة من الكلمات من موطنها الأصلي فتستعيرها أمة من الأمم، ثم تعود بعد فترة تطول أو تقصر إلى موطنها الأصلي في ثوبها الجديد، فتبدو وكأنها كلمة أجنبية، مع أنها في الحقيقية إلا اللفظة القديمة...ومن ذلك كلمة "تفيدة" المستعملة في الريف المصري، فأصلها العربي "توحيدة" وقد استعارها الأتراك وسموا بها النساء لأنهم يلفظون الواو فاء و ليس في نطقهم صوت الحاء فتحولت الكلمة إلى تفيدة. وكلمة "كابل" وهي خيوط الكهرباء التي نستخدمها اليوم أصلها في العربية من "الحبل" و"أميرال" جاء من "أمير البحر" وكلمة "الشيك" الذي نتعامل به في البنوك أصله "صك" في العربية"[2].

2. الشيوع وكثرة الاستعمال :

يعتبر الاستعمال اللغوي عنصراً من عناصر تعزيز اللفظ وتقويته شريطة ألا يكون خارجاً عن الأعراف اللغوية السليمة، ولكن من الحقائق المقررة عند المحدثين من علماء اللغات أن كثرة الاستعمال تبلى به الألفاظ، ويجعلها عرضة لإسقاط شيء

[1]- المرجع السابق، ص 174وما بعدها .
[2] - رمضان عبد التواب، التطور اللغوي، مكتب الخانجي، القاهرة، ك3، 1997، ص 148وما بعدها.

من أطرافها تماماً كما تتأثر بكثرة تداول العملات الورقية بين أيدي الناس "فالكلمات القصيرة كثيراً ما تقاوم الانحرافات، أما الطويلة فعادة ما تكون عرضة للقص، وذلك لأن المتكلم يعفي نفسه من توضيح النطق بها، مكتيفاً بصورتها المختصرة، فهذه الألفاظ حدث لها تطور في هذا الاتجاه باعتبار أن ذلك من قبيل الآلات المساعدة في اللغة، أو متداولة، لا تحتاج إلى إفهام. من ذلك كلمات التحية التي يرددها الناس باستمرار في الصباح والمساء كعبارة "عمْ صباحاً" المتطورة عن "أنعم صباحاً" وكلمة "إما لا" التي استخدمها العرب في مثل عبارة "افعل هذا إما لا" وهي مختصرة من إفعل هذا إن كنت لا تفعل غيره، وقد أصابها تطور"[1]. وإذا كثر استخدام الكلمات الدالة على العموم في مجالات خاصة انكمش المعنى وصار لا يعبر إلا على المجال الذي تركّز فيه أثناء الاستعمال "ولدينا في اللغة العربية وحدها ألاف من هذا النوع، من ذلك الكلمات التي كانت عامة المدلول، ثم شاع الاستعمال لها في الإسلام في معان خاصة تتعلق بالشعائر والعقائد كالصلاة والحج والصوم والمؤمن الكافر والمنافق.."[2].

ويحدث مثل ذلك عند استخدام كلمات خاصة يعمل في توسيع معناها كثرة الاستعمال.

3. العامل الزمني والتاريخي:

ويراد به تأثير الزمن في تحويل بعض الألفاظ من معنى إلى آخر "ففي اللغات الأجنبية كلمة « Plume » في الفرنسية تعني قلم الحبر وهي في معناها الأصلي ريشة من جناح الطائر ولما كانوا قديماً يستعملون للكتابة ريشة الطيور فقد علق بها مع الزمن هذا الاستعمال فاكتسب معنى القلم وكلمة « Fee » بالانجليزية التي يراد بها ما يترتب من مال لقاء خدمة أو عمل ينتفع به. وأصل الكلمة جرماني قديم تعنى الماشية من بقر وسواها مما يرجح أنهم كانوا قديماً يستعملون المواشي بدل النقود في البيع والشراء أو تسديد الديون وفي العربية ألفاظ لا حصر لها خضعت للتأثير

[1] - المرجع السابق، ص 135 وما بعدها .
[2] - أحمد عبد الرحمان حماد، عوامل التطور اللغوي، دار الأندلس، ط1، 1983، ص 135

الزمني قديماً وحديثاً من ذلك لفظ : "الصفر" فهي في الأصل الخلاء مطلقاً ثم استعملت في العلوم الرياضية للرتبة الخالية من الكم، و"القطار" أصله صف من الجمال يقطر بعضه إلى بعض وهو الآن يطلق على عربات سكة الحديد، و"الفنان" تعني في كتب اللغة القديمة حمار الوحش لتفننه في العدو وهي الآن لقب لصاحب الموهبة الفنية أو لمحترف الفن، و"اللغز" في الأصل جحر الضب أو اليربوع، وهو حفرة كثيرة التعاريج والتعمية، ومنها جاء المعنى الحاضر للكلام المعمى"[1].

والكلمات عرضة للتطور عند انتقالها من عصر تاريخي إلى عصر آخر نظراً لما يحدث في حياة الناس وعاداتهم وتقاليدهم ومخترعاتهم، وما يجد عليهم من صناعات وعلوم وفنون كل ذلك لا بد وأن يصاحبه تطور في الألفاظ وتغير في الدلالات، فما بين العصر الجاهلي والعصر الإسلامي حدث للغة "تغير كبير في مدلول كثير من الألفاظ والمصطلحات الدينية والشرعية والفقهية واللغوية، وكانت موجودة قبل الإسلام، لكنها كانت تدل على معان أخرى، فتحولت للدلالة على ما يقاربها من المعاني الجديدة كالطهارة، والعدة، والحضانة، والنفقة، والعتق، والتعزير، والعارية، والشفقة، وأصبحت لها شروطاً وحدوداً بسطت في مضانها...وقس على ذلك الألفاظ الإدارية والحربية والمالية، مما مست الحاجة إليه فحورت المعاني لبعض الألفاظ العربية حتى صارت تفي بالأغراض المطلوبة، وضمنت معاني اصطلاحية جديدة، حتى وقع اقتباس بعض الألفاظ الأعجمية الشائعة في البلاد المفتوحة: كالجباية والسكة والرواتب والضمان والمكوس والمنجنيق، والدبابة، والعرادة وغيرها"[2].

4. أثر العوامل الاجتماعية:

لا شك أن للعوامل الاجتماعية أثرا كبيرا في تطور اللغة، وتختلف هذه العوامل من مجتمع إلى آخر، وتختلف في المجتمع الواحد باختلاف العصور،

[1]- أنيس المقدسي، العوامل الخفية في التطور اللغوي، مجلة مجمع اللغة العربية، مجمع اللغة العربية، دمشق عدد خاص 1969، ج44، ص 293 وما بعدها .

[2] - أحمد عبد الرحمان حماد، عوامل التطور اللغوي، ص 119-120-121.

والطبقات والفئات والوظائف التي تمارسها كل فئة، واللغة من صنع المجتمع، فيه يكون استعمالها وتعلمها والتعامل بها، وبالتالي نموها وتطورها، فكل أمة تعتز بلغتها وتريد لها الحياة والبقاء، فهي الوسيلة الوحيدة للتعبير عن آمالها، وبها تكتب حضارتها ويدون تاريخها وفنونها وآدابها "واللغة تتأثر أيما تأثر بحضارة الأمة، نظمها، وتقاليدها، وعقائدها واتجاهاتها العقلية، ودرجة ثقافتها، ونظرتها إلى الحياة، وشؤونها الاجتماعية عامة، فكل تطور يحدث في ناحية من هذه النواحي يتردد صداه في أداة التعبير...وكلما اتسعت حضارة أمة وكثرت حاجاتها ومرافق حياتها ورقى تفكيرها، وتهذبت اتجاهاتها النفسية، نهضت لغتها، وسمت أساليبها وتعددت بها فنون القول، ودقت معاني مفرداتها القديمة، ودخلت عليها مفردات أخرى عن طريق الاشتقاق والاقتباس للتعبير عن المسميات والأفكار الجديدة"[1]. وبفعل العوامل الاجتماعية تتكون بالضرورة لكل طبقة من طبقات المجتمع أو فئة من فئات أو مجموعة إنسانية مهما كان حجمها لغة خاصة في التخاطب والتواصل فهناك الأسرة والمكتب والمدرسة والمصنع والمطعم والمعسكر...(فتتوالد الكلمات والعبارات والمعاني الهامشية و الألغاز و طرق التعبير الأخرى التي تختص بهذه البيئات والتي يصعب إدراكها على كل غريب عنها، وهو الشأن ذاته بالنسبة للمجموعات الأكبر والأوسع، تلك البيئات التي يربطها رباط المصالح المشتركة المهنية والحرفية والتجارية، والانتماء إلى مختلف فروع العلم والفن والصحافة، والقوات المسلحة، والكنيسة،والهيئات الأكاديمية، والرياضية وغيرها، فلكل هذه الفئات ثروتها اللفظية الخاصة بها، وهو ثروة تعكس خصائص الموضوعات والمناقشات المتناولة فيما بينها ويسهل التواصل، إلا أنها تزيد في الهوة التي تفصلهم عن غيرهم ممن لا ينتمون إليهم"[2]. فتكون هذه المجموعات الإنسانية معجماً خاصاً بها، فالخط مثلاً عند رجل سكة الحديد ليس هو الخط عند مصلحة الهواتف، أو الخطاط أو الرسام أو المهندس أو في الرياضيات أو الكهرباء، وهكذا.

[1] - على عبد الواحد وافي، اللغة والمجتمع، دار النهضة ، مصر، (د ،ت) ص 9-10

[2] - أحمد عبد الرحمان حماد، عوامل التطور اللغوي، ص 122.

5. أثر العوامل الاقتصادية والحضارية :

إذا كانت اللغة هي الوسيلة الأولى في التعامل والتفاهم، فلا بد لها أن تساير تطور الحياة في جميع مناحيها، فالتطور الاقتصادي في أمة من الأمم يتبعه تطور لغوي، ومن الطبيعي أن يتفاوت هذا التطور حسب البيئات المختلفة، وللعوامل الحضارية أثرها البالغ في الحياة اللغوية " فالأمم البدائية التي لم تنل قسطاً من الحضارة والتعليم لا تزال تعتمد مثلاً في العدّ على المحسوسات والطرق البدائية في ذلك، وتجد الدول المتقدمة علمياً وحضارياً تعتمد على أرقى الأساليب في العد فتستعمل ما وصلت إليه من اختراعات علمية، وأجهزة متطورة حديثة، فمع التطور الحضاري ظهرت عندنا هذه الألفاظ كالحاسوب والآلة الحاسبة، والنقال، وهلم جرّاً"[1]. والحياة الاقتصادية المتطورة والمعاملات المالية المستحدثة، ومختلف الاستثمارات والعقود التي اختلفت عن صورة البيوع القديمة، والتبادلات التجارية الماضية بغض النظر عن مشروعيتها وعدم مشروعيتها فإنها بلا شك أغنت اللغة بألفاظ جديدة تقتضيها تلك العقود المستحدثة في التعاملات الاقتصادية كالبيع بالمرابحة، والتقسيط، والبيع بالأجل، وفوائد البنوك وصندوق التوفير والاحتياط، وبيع المزايدة. كل ذلك يقتضي لغة جديدة تعبر عن هذه المعاملات والقاعدة عند الفقهاء أن العبرة في العقود بالألفاظ والمباني لا بالمقاصد والمعاني، وتبقى القاعدة تستقبل ما لا يحصى من الثروة اللفظية التي تعقد بها الصفات وتوقع بها المعاملات. "وأما لغة الحياة الزراعية والصناعية فإنها تمثل ألواناً من العلاقات بين اللغة والمجتمع، وأن لكل ميدان لغته الخاصة به ومفرداته المتميزة، فحديث الفلاح إلى بهيمته آلته، وغنائه عند الحرث، والري والحصاد، وكلام الحداد عند الطرق والنفخ في الكير، وغناء العمال وأرجازهم، ومن الألفاظ الزراعية التي دخلت القاموس الزراعي: المزرعة ومبيد الحشرات ودودة القطن، والرش المحوري والأسمدة، والجرّافة، والدرّاسة وهكذا"[2]. ودور المجامع اللغوية في هذا الصدد في غاية

[1] - نفس المرجع، ص 196.
[2] - المرجع السابق، ص 198.

الخطورة إذ يقع على عاتقها واجب المواكبة، حتى لا تتخلف الأمة عن ركب الحضارة " ففيها لجان لألفاظ الحضارة، وأخرى لكل أنواع النشاط الاجتماعي والعلمي والسياسي والاقتصادي، مما تتطلبه النهضة العربية الحديثة، ويكفي الرجوع إلى أعداد المجلات للاطلاع على آلاف الألفاظ...وقد تكون الدعاية السياسية والاقتصادية حافزاً كبيراً لتوليد تلك الألفاظ الجديدة الدلالة.."[1].

6. العوامل البيئية والجغرافية :

إن نظرة عامة إلى عدد من اللغات الراقية في العالم يرينا ما للواقع الجغرافي من أثر في تطوّرها " وأثر فيما تكتسبه اللغة من هجرة أهلها واستيطانهم بلاداً جديدة، فنشأت بذلك ألفاظاً ترجع إلى أسماء بعض المدن والأقاليم ففي اللغات الأوروبية مثلاً : « Dmask » كان يطلق على نسيج كان يستورد من دمشق ثم أطلق عليه اسم دمشق محرّفاً، و« Mousline » نسيج حريري رقيق مأخوذ من اسم موطنه الموصل في العراق، ولفظ "البورجوازية" ومعناها الطبقة المترفة وأصلها من « Bourg » أي المدينة وكان يدعى ساكن المدة "بورجوازي" ثم صارت تعني الطبقة الخاصة من الشعب...وفي العربية لفظ "المهنّد" أي السيف المصنوع في الهند و"الكشمير" نوع من الأنسجة نسبة إلى مقاطعة الكشمير في الهند، "وعبقري" نسبة إلى عبقر، وهي في أساطير العرب موطن الجن ونسب إليها كل رائع أو متفوق"[2]. ولقد أثبت الباحثون في تطور اللغات، ومنها العربية أن التغير والنمو في الألفاظ والدلالة حتى انقراض بعض الألفاظ، واندثار بعض الدلالات، خاضع لتطور البيئة والمجتمع والحياة والعصر، وكذا انتقال الأفراد من بيئة إلى أخرى ومن مكان إلى آخر." ومن أجل ذلك نشأت فروق كبيرة في مختلف مظاهر اللغة بين سكان المناطق الحارة والمعتدلة والباردة، وبين سكان المناطق الجبلية والصحراوية وسكان الأودية، وسكان المناطق الشمالية والوسطى والجنوبية...ومن أجل ذلك عزرت في كل لغة المفردات التي تدور حول مظاهر بيئتها الجغرافية، ودلت دلالاتها وأثبتت في

[1] - إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، دار الكتب، القاهرة، 1997، ص 147-148.
[2]- أنيس المقدسي، العوامل الخفية في التطور اللغوي، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، ص 288 وما بعدها.

شتى فنون القول، فكان قسطاً كبيراً من الخيال والتشبيه في كل لغة مستمداً من مظاهر البيئة، وما اختصت به طبيعة البلاد، فظهر في أسلوب اللغة وفنونها الأدبية ما تختص به بيئتها الطبيعية من تلبد أو صفاء، وقبح أو جمال، وصخب أو هدوء، وتنوع أو اطراد، وتقبل أو ثبات، وما ينبعث عنها من رخاوة أو قوة، وخمول أو نشاط، وخشونة أو ليونة، ولهذا يستطيع الباحث اللغوي معرفة البيئة الأولى التي نشأت فيها لغة ما على ضوء مفرداتها ومعجمها اللغوي وغزارتها في بعض النواحي وجدبها في أخرى، وما تجنح إليه أساليبها ومادتها في الأخيلة والتشبيهات وما إلى ذلك"[1].

7. الدين وأثره في التطور الغوي :

إن المعجم اللغوي لأمة ما، هو في نفس الوقت صورة مختصرة لما تعرفه هذه الأمة في حياتها اليومية، وكيانها الاقتصادي والسياسي والديني والأخلاقي...وتقدمها العلمي والتكنولوجي فكل تطور يحدث من ناحية من هذه النواحي تردد صداه في اللغة، ولهذا تعد اللغات أصدق سجل لتاريخ الشعوب، وللأديان بدورها "أثرها الكبير في تطور الألفاظ ودلالاتها وذلك لأنها تأتي بنواميس جديدة، وشرائع ومعتقدات لم تكن موجودة قبل نزول الوحي أو التبشير أو الأديان و الرسالات ولهذا لا بد من استعمال ملم يكن مستعملاً لفظاً ومعنى، فالدين الجديد يحتاج إلى لغة تكتب بها أحكامه وعباداته، وكانت العربية وهي لغة القرآن مسايرة لهذا الدين فوسعت ما جاء به وما تزال..والإسلام بشرائعه وشعائره كان له الأثر البيّن في نمو اللغة العربية وإثرائها، وما الألفاظ الدينية إلا شاهداً على ذلك حيث كساها الدين حلة جديدة من المعاني والمفاهيم الجديد. فالصلاة كانت تعني الدعاء فأصبحت في معنى العبادة المعروفة وكذا الإيمان والحج والصوم والزكاة، والركوع والسجود وغيرها ولا يقتصر الأمر على الإسلام فقط بل الدين عموماً بطقوسه وحدوده وفرائضه، وقوانينه يترك بصماته الواضحة على لغة معتنقيه"[2]. والناظر في كتب الفقه والشريعة

[1] - علي عبد الواحد وافي، اللغة والمجتمع، ص 63-64

[2] - أحمد عبد الرحمان، عوامل التطور اللغوي، ص 202-203.

وأصولها يصاب بذهول غامر من تلك التعريفات الفقهية والجزئيات من الأحكام التشريعية والاتجاهات والأقوال والمسائل التي لا حصر لها ممّا يعدّ رصيداً لغوياً إضافياً اغتنت به العربية على مرّ القرون منذ ظهور المذاهب الفقهية إلى اليوم، ويستطيع الباحث أن يظفر بمعاجم متنوعة بحسب فروع الشريعة وعلومها فبالإمكان تحديد معجم المصطلحات الفقهية أو الأصولية أو الحديث أو معجم المفسرين أو الصوفية أو المكلمين وغيرهم، " ومن جوانب استعمال الكلام في الشؤون الدينية في الإسلام لغة الآذان والأدعية والصلوات وخطب الجمع، والمواعظ والأذكار،ة واللغة المستعملة في الحج كلغة الطواف والسعي والرجم ولغة الدعاء واللغة المستعملة في الجنائز أثناء التشييع والتعزية مثل (عظم الله أجركم) و(شكر الله سعيكم) واللغة المستعملة في عقد القران ككلام المهنئين"[1] وهكذا.

8. النشاط السياسي والتطّور اللغوي:

عرفنا أن اللغة عنصر أساسي في حياة الأمم والشعوب، فبها يتم التواصل والتفاهم والتعاون في جميع أنشطة الحياة، ولقد فرضت الحياة السياسية نفسها على النشاط الاجتماعي فيحتاج الأفراد إلى لغة يتعامل بها وهذه اللغة عرضة للتحول بحسب النظم السائدة في ذلك المجتمع، ففي المجال السياسي ونشاطاته المختلفة التي تمثل الأرضية النظرية للأحزاب السياسية فوسائل الإقناع الكلامية تختلف من نظام لآخر، ففي النظام الفاشستي الهتلري أو الموسوليني تختلف عنها في نظام ديمقراطي أو شيوعي ويختلف بين شيوعية روسيا وشيوعية الصين كل ذلك يترك آثاره وبصماته على حياة اللغة العامة...ويختلف ذلك كلّه جذرياً عن الأحزاب ذات الطابع الديني والتي بدورها انقسمت إلى تيّار المشاركة السياسية ولا يمارس المعارضة الراديكالية وتيار ينهج نهج المغالبة السياسية ويرفض المشاركة بكل أشكالها، تحالفات أو عمل بياني أو غير ذلك وهذا له أثره على اللغة قطعاً " فلو درسنا الانتخابات مثلاً سنجد ألفاظاً انتخابية مشحونة بالدعاية الحزبية التي تدعو إلى

[1]- نفس المرجع، ص 200-201.

مترشح معين، والتنفير من غيره من الأحزاب المنافسة ترفع خلالها شعارات...وتقام مهرجانات من قبل المترشحين تتوالى فيها الكلمات الحماسية، وتلقى الخطب السياسية والقصائد،...ولوسائل الإعلام عموماً دورها في ذلك،واللغة في مثل هذه الحالات خاضعة للمنطق السياسي لأنها وسيلة يعبر بها السياسيون عن أغراضهم وهي تراعي مستويات المتلقين، فما يخاطب به أهل البدو غير ما يقال لأهل الحضر ويعود ذلك إلى نوع الانتخابات والمواعيد السياسية والحاجات المعيشية والانشغالات التي يطرحها كل من الفئتين..فلا بد من استعمال وسائل في الإقناع والخطاب تراعي المستوى الاجتماعي والعقلي والثقافي، وتراعي أيضاً درجة الوعي والتقدم الحضاري"[1]. ويختلف القاموس السياسي باختلاف النظام القائم، فتمتاز الأنظمة الديموقراطية بلغتها عن الأنظمة الأخرى، فتكثر المفردات التالية :"التداول على السلطة، حرية الرأي و التعبير، التعددية السياسية، الأغلبية، الأقلية، الحوار،...الخ، ففي مصر مثلاً لما تغير النهج السياسي جدّت عبارات ومدلولات لم تكن متداولة في السابق كالنظام الجمهوري، والجمهورية المصرية بدلاً من مملكة مصر، والقصر الجمهوري عوضاً عن القصر الملكي...وفي عدوان 1967 ظهرت العبارات التالية النكسة، النكبة، حرب التحرير، عبور القناة، وحرب الاستنزاف...وفي البيانات السياسية بين الدول استعمل من اللغة ما يعبر عن العلاقات المتبادلة مثل : الصداقة، الأخوة، التحالفات، المصلحة المشتركة، الاحترام المتبادل، إقرار السلام العالمي، حق الشعوب في تقرير المصير، دعم العلاقات..

هذه طائفة من العوامل الخارجية تؤثر في التطّور اللغوي، وأهمها يرجع إلى الصلات التي تربطها بحياة المجتمع، وهي تعود إلى ظواهر اجتماعية خالصة، وما تمتاز به هذه الحياة من خصائص وتسير عليه من نظم، وتسلكه من مناهج، وهناك عوامل أخرى خارجة عن الظواهر الاجتماعية بل تعود في تطبيقها إلى أسباب تاريخية وبيئية وجغرافية، وتتفاوت العوامل في أهميتها في مدى تأثيرها المباشر

[1] - المرجع السابق، ص 190-191.

على اللغة وهناك عوامل أخرى أعرضنا عن التعرض لها، وآثرنا الاكتفاء بها بما ظهرت صلته الواضحة بالتطور، ولا تكفي هذه العوامل والمؤثرات في إحداث النمو والتجديد في اللغة، فهناك عوامل ذاتية تحملها اللغة أصالة فما هي العوامل الداخلية التي كان لها دور فعّال في تطّور اللغة العربية ؟

ب- العوامل الداخلية للتطور اللغوي:

تكتسي الأسباب الذاتية في تطور اللغة العربية أهمية قصوى، فما كان للغة ما أن تتأثر بالعوامل الخارجية التي لا علاقة لها بالمدى اللغوي الداخلي إلا إذا كانت تمتلك في ذاتها القابلية للتطور والنمو، وكثيراً ما تمهد العوامل الذاتية الطريق إلى المؤثرات الخارجية، وفي كتب علم الدلالة، وفقه اللغة وبحوث مستفيضة عن هذه العوامل النبوية، غير أنها لم تظهر علاقتها المباشرة بظاهرة التطور اللغوي، وهذا ما سنحاول إبرازه مع الابتعاد عن التفاصيل الجزئية والقضايا الخلافية بين فقهاء اللغة والدلاليين والتي تبعدنا عن جوهر ما نودّ التركيز عليه وهو بنية اللغة والتطوّر ومن هذه العوامل ما يلي :

1. الاشتقاق :

يعد الاشتقاق من وسائل تطور اللغة العربية وتوالد موادها وتكاثر كلماتها، وهو عامل يثري معظم اللغات، وينتمي إلى الدراسات الصرفية القديمة، وهو" نزع لفظ من آخر بشرط مناسبتهما معنىً وتركيباً وتغايرها في الصيغة"[1]. والاشتقاق هو الفارق بين اللغة النامية المتطورة. "وللعربية دورات لغوية تبدأ من المنابع الأصلية، متجهة إلى ضروب من الاشتقاقات الملائمة لاحتياجات العصر، والتي تتسم بالصلة بين القديم والحادث في المادة ذاتها وفي الصيغة الصرفية وقد تهمل أو تتضاءل معنى المفردات المستحدثة بفعل ظروف اجتماعية أو علمية أو اقتصادية فتستخرج مفردات أخرى لكنها تخرج عن الشرطين السابقتين فيظل الحادث متصلاً بالقديم معنىً وصياغة..وللاشتقاق قدرة كامنة في كيان العربية لا يزال جزء كبير غير

[1] - ابن جني، الخصائص،تح محمد علي النجار، دار الهدى، بيروت، ط2، (د،ت)، ج2، ص 133.

مستعمل في الحالات الاشتقاقية كلّها، ويؤكد اللغويون أن الاشتقاق أداة تطورية دائمة للعربية وهي تقتضي منا أن نحسن فهم حركتها في العربية الفصحى أولاً ومن ثمّ نتمكن من استعمالها، وإنها تعطينا طبقات متعددة من الدلالات المتميزة إلا أنها غير منفصلة، ولا يحجب الواحدة منها الأخريات عن المنبع الأول"[1]. ويختلف مفهوم الاشتقاق عند الغرب منه عند العرب، فهو عند الغرب نظري عملي يعنى بتاريخ الكلمة فهو إذن "علم تاريخي يحدد صيغة الكلمة، في أقدم عصر تسمح المعلومات التاريخية بالوصول إليه، ويدرس الطريق الذي مرّت به الكلمة مع التغيرات التي أصابتها من جهة المعنى والاستعمال، وعند علماء الغرب يعتبر الاشتقاق علماً عملياً تطبيقياً لأنه عبارة عن توليد الألفاظ من بعض، والرجوع بها إلى أصل واحد يحدد مادتها، يوحي بمعناها المشترك الأصيل، مثلما يوحي بمعناها الخاص الجديد"[2]. وبهذه الصورة يكون الاشتقاق من الوسائل الرائعة التي تنمو عن طريقها اللغات وتتسع ويزداد ثراؤها في المفردات، فتتمكن به من التعبير عن الجديد من الأفكار والمستحدثات من وسائل الحياة، واختلف اللغويون في أنواع الاشتقاق فهو نوعان عند القدامى الاشتقاق الأصغر والاشتقاق الأكبر، وهو عند المحدثين أكثر من ذلك مع الاختلاف في مدلول كل نوع، فعند عبد الله أمين الأنواع أربعة "صغير وهو الاشتقاق الصرفي، وكبير وهو الإبدال، وكُبار بتخفيف الباء وهو التقليب يسمى الأكبر أيضاً وكبَّار بتشديد الباء هو النحت"[3]. وعند علي عبد الواحد وافي جعل الأنواع ثلاثة "العام وهو الصرفي، والكبير وهو التقليب، والأكبر وهو الإبدال"[4]. وذهب صبحي الصالح إلى أن الاشتقاق أربعة أنواع "الأصغر وهو الصرفي، والكبير وهو التقليب، والأكبر وهو الإبدال، والكبّار وهو النحت"[5].

[1]- فايز الداية، علم الدلالة العربية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د.ت)، ص 235-236-237

[2] - رمضان عبد التواب، فصول في فقه العربية، مكتبة الخانجي، القاهر، ط3، 1994، ص 290.

[3] - عبد الله أمين، الاشتقاق، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط1 ، 1956، ص 1-2

[4] - علي عبد الواحد وافي، فقه اللغة، مطبعة الرسالة، القاهرة، ط6، 1968، ص 172وما بعدها.

[5] - صبحي الصالح، دراسات في فقه اللغة، دار الملايين، ط1، 1986، ص 173-174

وصفوة القول أن الصيغ الاشتقاقية، والأوزان الولود لم توجد دفعة واحدة بلا شك وإنما حدث ذلك على مراحل طويلة من التطور، والحيوية التي تتمتع بها في الدلالة على المعاني حتى عند الاشتقاق العام (الصرفي) من أهم طرق تطور اللغة العربية، وإمدادها خلال تاريخها الطويل بالجديد من الألفاظ التي تستعين بها على الاستجابة لحاجات المتكلمين، ويضاف إلى هذا أن الاشتقاق بطبيعته يتيح للناطقين بالعربية صوغ المفردات حسب قواعد محددة، فللمتكلم الحرية في التعبير في النهاية عن أغراضه بما يجد في متناوله من الصيغ والأوزان ما يشبع حاجته التواصلية ويستطيع أن يشتق ما يشاء من الألفاظ ليعبر عن دقائق الأمور كالمخترعات العلمية الحديثة ما يساير ركب التطور الحضاري الذي يتحرك سريعاً دون توقف وتلزمه حركة لغوية تكافئه.

2. المجـــاز:

يعتبر التوسع المجازي من العوامل الأساسية في التوسع اللغوي وهو أول عملية للتصرف في دلالة اللفظ على المعنى، ولا يهمنا في درس المجاز إلا ما تعلق بإثراء اللغة والمساهمة في تطورها ونمائها "فبفضله اتسعت اللغة العربية للعلوم، والفنون على اختلاف أنواعها، وللحضارة على كثرة مظاهرها، فنهضت بالعلوم الشرعية واللغوية والطبيعية والرياضية والإنسانية، وصارت لسان الفلسفة والسياسية القصص والصناعة والفن ومختلف ضروب المعاملات..وبالجملة لم تقف أمام أي مظهر من مظاهر العلم أو الحضارة وقفه المتعثر الحائر بل خاضت في مختلف مناحي القول، وقويت على التعبير على شتى مظاهر التفكير"[1]. وقد توسع اللغويون في ذكر أنواع المجاز وصوره، وقوانينه وشرائطه وعلاقته بالظواهر اللغوية الأخرى كالاستعارة والكناية وغيرها، وما يهمنا هو الوقوف على أثر المجاز في تطور العربية، فالمعاني التي تحدد بحسب رقي الأفكار، واتساع العلوم وامتداد ظلال المدنية، لا بدلها من أسماء تدل عليها، وقد كان للألفاظ المنقولة على سبيل التجوز

[1] - علي عبد الواحد الوافي، فقه اللغة، ص 224.

أثر كبير في سد هذه الحاجات وتلبية هذه الضرورات، والناظر في كتب الأدب والعلوم يرى العدد الهائل من الكلمات قد دخل اللغة من هذا الطريق، ويسر على الأقلام الكتابة في موضوعات علمية أو سياسية أو غيرها لم تخض العرب فيها من قبل. " فالكاتب والمؤلف والمسرحي وغيرهم ممن يعملون في مجال اللغة، هؤلاء كثيراً ما يقفون أمام لفظ ما باحثين عن لفظ آخر في نفس المعنى ليعبر عما في خيالهم، وأفكارهم فيكون المجاز هنا وسيلة للخروج من هذا المأزق، إذ قد تكون الكلمة مستهلكة أو نابية أو تأباها الأذواق العامة المألوفة، أو يرفضها المؤلف أو الكاتب لفهم معين اقترن بها في الذهن وهو ما لا صلة للكلمة به، ويكثر هذا في النصوص المسرحية إذ يلجأ الممثلون إلى المجاز لأسباب مختلفة وذلك لأن استعمال الألفاظ على الحقيقة قد يكون فيه خروج عن المألوف والعادات والتقاليد مما يراعي فيه جهة المتلقي، شعوره وذوقه"[1]. وللمجاز أثره الكبير في خلق المفردات والدلالات، وهو يستطيع أن يبعث ألفاظا لحقها الركود والموت بفعل عوامل عديدة والتجوز بهذه القيمة أسلم وأحفظ للغة من خطر الدخيل والمعرب من الألفاظ الأجنبية دون ضوابط أو مراعاة لما قد يؤول إليه وضع العربية إذا فتح هذا الباب وتركت نهبا للغات أخرى، وقد توسع اللغويون في بسط أغراض المجاز وظلاله المتنوعة في سياق الجملة. والنفس تواقة إلى التطلع، باحثة عن الشيء الخفي أكثر من الجلي، وتطرب للتلميح أكثر من التصريح، فكل ممنوع مرغوب. ولو أردنا أن نمثل ألفاظ نقلها المجاز بعيداً عن معناها الأصلي وجال بها في سياقات مختلفة يكفي أن نستعرض ما جاءت به المعاجم العربية فعلى سبيل المثال "الحقد" يقال حقد المطر احتبس، وحقدت الناقة امتلأت شحماً، "والكره" من الأرض الكريهة أي الغليظة الصلبة، "والتفاؤل" من الفئال ككتاب وهو لعبة الصبيات يخبئون الشيء في التراب، ثم يقتسمونه ويقولون في أيها "والذكاء" يقال : ذكت النار اشتد لهبها، "المجد" من معانيه : امتلاء بطن الدابة بالعلف، "والمدح" من مدحتا الأرض والخاصرة استعتا"[2].

[1] - أحمد عبد الرحمان حماد، عوامل التطور اللغوي، ص 54-55

[2] - إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، ص 164-165

3. التـــرادف

الأصل في كل لغة أن يوضع فيها اللفظ الواحد لمعنى واحد، ولكن ظروفاً تطرأ في اللغة فتؤدي إلى تعدد الألفاظ لمعنى واحد، أو تعدد المعاني للفظ واحد، والحقيقة أنه لم تغن لغة بمثل ما غنيت به اللغة العربية من تعدد المفردات الدّالة على معنى واحد من ناحية أو تعدد معاني اللفظة الواحدة، إلى درجة التضاد بينها في بعض الأحيان من ناحية أخرى، فإذا كان المحدثون من علماء اللغات يسلمون بوقوع أمثلة من هذه الأنواع في اللغات المختلفة، فإن اللسان العربي قد طال باعه، في كل نوع من هذه الظواهر الثلاث، وهو ما يفسّر ضخامة المعجم العربي في أغلب الأحيان "والترادف هو الألفاظ المفردة الدّالة على شيء واحد باعتبار واحد"[1]. ومهما كان الخلاف حول الترادف فإن ذلك لا يحد من تطور اللغة، فأسماء الأسد الخمسمائة أو أسماء الحية المائتين التي ذكرتها كتب فقه اللغة عامل من عوامل هذا التطور، فمن بين أسماء العسل الثمانين مثلا: العسل، والضّرب، والشوب، والذوب، والجلس، والورس، والشهد، والشراب، والعذب، والصبيب، والمزج، والسلاف، والرحيق، إلى غير ذلك لا يؤثر في أن الترادف وسيلة حيوية في التطور اللغوي سواء كانت أسماء العسل هذه مترادفات أم صفات. ويشترط في الترادف:

1. الاتفاق في المعنى بين الكلمتين اتفاقاً تاماً، فإذا تبين بالدليل القوي أن العربي كان يفهم من كلمة "جلس" شيئاً لا يستفيده من كلمة "قعد" قلناً إذاً ليس بينها ترادف.

2. الاتحاد في البيئة العربية، لم ينتبه المغالون في الترادف إلى هذا الشرط، بل عدّوا كل اللهجات وحدة متماسكة، وعدّوا كل الجزيرة العربية بيئة واحدة، ولكنا نعد اللغة المشتركة أو العظمى الأدبية بيئة واحدة، وتعد كل لهجة أو مجموعة منسجمة من اللهجات بيئة واحدة.

[1] - السيوطي، المزهر، المكتبة العصرية بيروت، 1986، ج1، ص 402.

3. الاتحاد في العصر، فإذا بحثنا عن مرادف كلمة في الشعر الجاهلي لا تقاس على كلمة وردت في النقوش القديمة، ترجع إلى عهود سحيقة.

4. ألا يكون أحد اللفظين نتيجة تطور صوتي عن الآخر على اعتبار أن إحدى اللفظين يمكن أن يعد أصلاً والثاني تطورا له"[1].

وخلاصة القول أن الترادف من عوامل التوسع اللغوي المؤثرة في اللغة، قد لعب دوراً هاماً في حياة العربية، فكان سبباً في ثرائها، حيث يجد المتكلم ضالته إذا ضاق عليه التعبير بلفظ ما.

4. الاشتراك :

عُرفّ المشترك اللفظي بأنه " اللفظ الواحد الدّال على معنيين مختلفين وأكثر، دلالة على السواء عند أهل تلك اللغة"[2]. فظروف الحياة المتغيرة باستمرار، تفرض على اللغة أن توافيها بحاجاتها دائماً، فالأشياء المستحدثة يلزمها وسائل لغوية جديدة للتعبير عنها "وكذلك الأفكار القديمة هي الأخرى بحاجة إلى مثل هذه الوسائل حين يتناولها الفهم تناولاً حديثاً، وكل هذا يعني أن صورة الثروة اللفظية التي تبدو في ظاهرها ساكنة، لا بد أن تتمها صورة أخرى لثروة لفظية متحركة متطورة، حتى تسعف المتحدثين بهذه اللغة على التعبير على المعاني والمستحدثات التي تصادفهم في حياتهم، فلا يقف المتكلم حائراً أمام الألفاظ إلا وسيجد حتماً ما يسعفه منها على المعنى الذي يريد"[3]. وقد درست عوامل المشترك اللفظي كما درست في ظاهرة الترادف فذكروا منها التطور اللغوي "فقد تكون هناك كلمتان، كانتا في الأصل مختلفتي المعنى، ثم حدث تطور في بعض أصوات إحداها، فاتفقت لذلك مع الأخرى في أصواتها، وهكذا أصبحت الصورة التي اتحدت أخيرا مختلفة المعنى، أي صارت لفظة واحدة، مشتركة بين معنيين أو أكثر ومثال ذلك ما ترويه المعاجم من أن "مرد" أقدم عتا، ومرد الخبز لينه بالماء وأصل الكلمة بالمعنى الثاني هو "مرث"، ففي

[1] - رمضان عبد التواب، فصول في فقه العربية، ص 322-323.
[2] - جلال الدين سيوطي، المزهر، ج1، ص 369.
[3] - عبد الرحمان حماد، عوامل التطور اللغوي، ص 76

المعاجم : مرث الشيء في الماء، أنقعه فيه حتى صار مثل الحساء، فقد أبدل صوت الثاء هنا تاء، فصارت الكلمة "مرت"، ثم جهرت التاء لمجاورتها الراء فصارت "مرد" وبذلك ماثلت كلمة مرد بمعنى أقدم وعتا"[1]. وعلى كلٍّ فالمشرك اللفظي يساهم بدوره الحيوي في إغناء اللغة العربية بالرغم من تحكم السياق والاستعمال، والرصيد المفرداتي في معاجمنا العربية خزان ضخم يستجيب بلا شك، ويوجد التكافؤ المطلوب من الأسماء المتناهية والمسميات غير المتناهية فلو لم تكن الألفاظ المشتركة واقعة في اللغة لخلت أكثر المسميات من الألفاظ الدّالة عليها مع دعوى الحاجة الملحة إليها، ولما حلت عقده الدال والمدلول. ومن الأمثلة المكرورة في كتب اللغة لفظ "العين" التي اشتركت معان كثيرة أوصلها بعضهم إلى ثلاثة عشر وجهاً.

5. التضـــاد :

في اللغة ألفاظ تمتاز بخاصية مزدوجة تستعمل على وجهين متضادين فالتضاد عند العلماء اللغة "مأخوذ من الضد، وضد الشيء، ما نافاه نحو : البياض والسواد، والشجاعة والجبن، وليس كل ما خالف الشيء ضدًّا له، فالقوة والجهل تختلفان، وليسا ضدين وإنما ضد القوة الضعف، وضد الجهل والعلم، فالاختلاف أعم من التضاد، فكل تضاد اختلاف، وليس كل اختلاف تضادا."[2].وقد درس علماء العربية أسباب التضاد وشروطه، فمن عوامله الأساسية التطور اللغوي في جانبه الصوتي "فقد ينال الأصوات الأصيلة للفظ ما بعض التغيير أو الحذف أو الزيادة وفقا لقوانين التطور الصوتي، فيصبح متحداً مع لفظ آخر يدل على ما يقابل معناه."[3].وما قدمه الترادف والاشتراك للغة أسهم فيه التضاد بسهم، وضرب فيه بقسط، وإن كان أقل منها نظراً للاختلاف الكبير بين أهل اللغة ما بين مضيق وموسع ، فقد سد شيئاً من الحاجات اللغوية، فما من كاتب أو منتج أو شاعر إلا وجد فيه ما يناسبه من الكلمات.

[1] - رمضان عبد التواب ، فصول في فقه العربية، ص 332.
[2] - نفس المرجع، ص 336.
[3]- على عبد الواحد وافي، فقه اللغة، ص 188.

"وقد كانت الأضداد العربية مجالاً لدراسة اثنين من المستشرقين الألمان: الأول يدعى "ردسلوب" في كتابه "كلمات الأضداد العربية" طبع سنة 1873 تحدث عن نظرية العرب في تقسيم الكلمات من ترادف واشتراك وتضاد، وأن هذا الأخير على ضربين: كلمات مفردة، وتعبيرات وجمل فيحتوي الأول على كلمات لا تضاد بين معانيها كإن الشرطية وإن النافية، والثاني لا علاقة له بالتضاد تماماً، وذكر أن الأضداد يوسع مدلول الكلمات، ويرى أن العرب قد أخطأوا حين عدوا التطورات الصوتية من الأضداد، وكذلك حين عدوا التضاد صيغتين من مادة واحدة كقولهم بلج شهادته إذا كتمها، والحق أبلج أي واضح ظاهر، ثم تحدث عن العوامل التي وسعت الأضداد في العربية فذكر منها : ثراء اللغة غير العادي، والتطور غير المشروط للمعاني، وكثرة الاشتقاق، واختلاف اللهجات والصنعة والتكلف، والاختراع الذي تم على يد اللغويين. أما المستشرق الآخر فيدعى "جيسي" في كتابه : "بحوث في الأضداد" طبع سنة 1894م، حيث رفض الكثير من أضداد ابن الأنباري لأنه لم يعثر إلا على شاهد واحد من المعنيين، على كثرة ما قرأ"[1].

والأمثلة على التضاد كثيرة بسطتها كتب الأضداد لأبي الطيب وأبي الأنباري وقطرب، وأبن السكيت، والأصمعي، وأبن الدّهان، والصغاني، وأبو حاتم السجستاني.

6. النحت والتركيب:

النحت من ضروب الاشتقاق في اللغة وهو "أن تعمد إلى كلمتين، أو جملة، فتنزع من مجموع حروف كلماتها، كلمة فذة تدل على ما كانت تدل عليه الجملة نفسها."[2]. ولم تنفرد العربية بالنحت، فهناك لغات أخرى أثْرت رصيدها اللغوي بطريق التركيب، ويعد أبن فارس من اللغويين الذين توسعوا في النحت إلى حد المبالغة، فهو إمام القائلين به يقول "أعلم أن للرباعي والخماسي مذهباً في القياس، يستنبطه النظر الدقيق، وذلك أن أكثر ما تراه منه منحوت ومعنى النحت، أن تأخذ

(1) رمضان عبد التواب ، فصول في فقه العربية، ص 355-356-357.
2 - عبد الله أمين، الاشتقاق، ص 391

كلمتان وتنحت منها كلمة تكون آخذة منهما جميعاً بحظ."[1]. وبعيداً عن كل تفصيل في أنواع النحت وشروطه فإنه يعد بلا نزاع من الطرق التي كان لا بد للعلماء أن يعطوها ما تستحق من عنايتهم بحيث تمد اللغة بألفاظ جديدة، ولعل هذا الموقف المتباين حدّ نوعاً ما من فاعلية هذه الوسيلة، من وسائل تطور اللغة. وعلى كلٍ فقد ظل النحت ظاهرة مروية بأمثلتها الشائعة التي عجت بها كتب فقه اللغة "حتى كانت النهضة اللغوية والعلمية في العصر الحديث، حيث واجهت العربية تطوراً في العلوم، وأدوات الحضارة، فواجه العلماء مشكلة وضع المصطلحات العلمية للتعبير عن المسميات الجديدة فهناك كم هائل من الكلمات في اللغات الأجنبية لا يوجد له ما يقابله في العربية، فشعر القائمون على شؤون اللغة بضرورة اللحاق بكل هذا فلجئوا إلى وسائل عديدة، وكان النحت إحداها والحقيقة أننا في حاجة إلى النحت لمواكبة هذا الزخم الحضاري والتطور السريع في شتى مناحي الحياة، فهو الوسيلة الإيجابية في إثراء اللغة العربية، وتحديداً ألفاظها، من غير تنكر لطبيعتها أو عدوان على خصائصها."[2]. وتدل الشواهد أن ظاهرة النحت قديمة فبعض المنحوت من الكلمات يعود إل ما قبل الإسلام، مثل : عبدري، وعبشمي، عبقسي، ومنها ما نحت بعد الإسلام مثل: بسمل، وحيعل، وحمدل، وحوقل، وغيرها.

7. القلب والإبدال:

اختلف علماء اللغة في القلب والإبدال بين المؤيدين والمعارضين، وبغض النظر عن وجهة نظر كل فريق وأدلته فإن ما يهمنا هو أهميتهما في تطور اللغة وتجدد ثروتها، فمن سنن العرب إبدال الحروف وإقامة بعضها مكان بعض مثل مدحه، ومدهه، وفرس رفلٌ ورفن (وهو الفرس طويل الذنب) وقد اعتنى بالتأليف في القلب والإبدال عدد من اللغويين: أبن السكيت في كتابه "الإبدال" وأبن الطيب اللغوي في كتابه "الإبدال" وكتب أحمد فارس الشدياق معجمه الضخم، وكان من أوائل المحدثين الذين بحثوا في الظاهرتين في كتاب سماه "سر الليال في القلب والإبدال"،

[1] - أبن فارس، مقاييس اللغة، ج1، 328-329

[2] - أحمد عبد الرحمان حمّاد، عوامل التطّور اللغوي، ص 40.

فهناك من أرجع الإبدال إلى اختلاف لغات القبائل ولهجاتها، وعلل بعض اللغويين القلب باختلاف الحروف قوة وضعفا، فيتغلب القوي على الضعيف إلا إذا كان الحرف أصلاً فإنه لا ينقلب، فصاد "الصخر" لا تنقلب سيناً، وسين "يساقون" جاز قلبها صاداً فتصبح "يصاقون"، وهناك من ردّ هذا التعليل "والصحيح في كون تقارب المخرج يؤثر في تعاقب الحروف، وما زعم أن ما كان أصلاً فلا يعتريه التغير ليس صحيحاً لأن الكلمة إذا كانت بالسين عند جماعة أو الصاد عند آخرين، فتكون السين أصلاً عند من ينطقون بها، والصاد أصلاً عند من ينطقون بها، ولا بد من القول إن تعاقب الأحرف على طريقة الإبدال في العربية يؤدي إلى تنويع المعاني، واتساع دائرتها، فأنت ترى أن "الوشوشة" تنصرف إلى صوت لا تنصرف إليه "الوسوسة" أو "الوصوصة" وإن "الهديل" غير "الهدير" وأن "فلج" يختلف عن "فرج" أو "فلح" ومثل هذا كثير، ومعنى هذا أن اختلاف القائلين، وتقارب المخارج قد أضافا إلى العربية مادة ضخمة حفل بها المعجم العربي."[1]. وهذه الثروة اللفظية التي أضيفت إلى المعجم العربي بطريق الإبدال فيها بعض التوسع والتجور والمبالغة ففيها ما يفتقر إلى الشاهد الصحيح الفصيح، وإذا كان الإبدال من سنن العرب في كلامها "فإن من سننهم القلب وذلك يكون في الكلمة ويكون في العبارة كقولهم "جبذ" و"جذب"، "ربض"و"رضب""[2]. وتناسب اللفظين في اللفظ والمعنى دون ترتيب في الحروف، وقد نبه بعض الباحثين أن "الكلمة الأكثر شيوعاً وتداولاً ترجح بأن تجعل من إحدى الكلمتين المنقلبتين عن بعضهما أصلاً والأخرى فرعاً، وعليه يكون الجذب هو الأصل و"الجبذ" هو الفرع الذي اشتق منه لأن الأولى دائرة على الألسنة كثيراً، ومهما يكن من قلب بين لفظين فإنه لا يؤدي إلى الترادف التام بينهما، فقد يكون في "جذب" معنى لم يلحظ في "جبذ" ولعل ورود كلمة التناسب في تعريف القلب دون كلمة اتحاد يوحي بذلك."[3]. وعلى الرغم من قلة القلب والإبدال في العربية بالمقارنة

[1] - إبراهيم السمرائي، التطور اللغوي التاريخي، دار الأندلس بيروت، ط3، 1983، ص 116-117
[2] - جلال الدين السيوطي، المزهر، ج1، ص 476
[3] - أحمد عبد الرحمان حماد، عوامل التطور اللغوي، ص 32

مع ظواهر أخرى إلا أن لهما أثر في تغير المعنى وفي تطور الألفاظ ، وهما عاملان ساعدا على اتساع اللغة، فظهر بها ألفاظ جديدة، تعطي مفاهيم جديدة، وجدت طريقها في الاستعمال بين الناس، وجرت على الألسنة، وهذا ما ساهم في التطور اللغوي.

8. الاقتصاد اللغوي :

تميل اللغة في تطورها نحو السهولة والتيسير، فتحاول أن تتخلص من الأصوات العسيرة وتستبدل بها أصواتاً أخرى، لا تتطلب مجهوداً عضلياً كبيراً، كما أنها تحاول أن تتفادى تلك التفريعات المعقدة، والأنظمة المختلفة للظاهرة الواحدة، وإلى ذلك يذهب كثير من علماء اللغة. "فكل ما تكتشفه من تطور في اللغة ليس إلا أمثلة لنزعة اللغات إلى توفير الجهد، الذي يبذل في النطق، وأن هناك استعداد للاستغناء عن أجزاء الكلمات، التي لا يضر الاستغناء عنها بدلالتها."[1]. فالشرط الأساسي في هذا التخلي عن بعض أجزاء اللفظ بقاء المعنى وعدم الإضرار به، فقد تفرض كثرة الاستعمال للألفاظ شيئاً من التخفيف والتخلص من بعض حروفها من غير أن يؤثر ذلك على العملية التواصلية جوهر اللغة والاقتصاد اللغوي يراد به الميل الفطري إلى تغلب لفظ على لفظ توفيراً على الذهن ما قد يتكبده من مجهود لا داعي له، كتفضيل اللفظ السهل الواضح المألوف على الشاق غير المأنوس وهكذا تدور الألسنة والأقلام على استعمال ألفاظ دون مرادفاتها كقولنا مثلاً "المرآة" بدلاً من "السجنجل" و"السائق" بدلاً من "الحوذي" ، و"الشرطي" بلاً من "الجلوز" و"الخمر" بدلاً من "الخندريس" و"الجبة" بدلاً من "الدلق""[2]. وهذا الاقتصاد سببه توفير الجهد الذهني بالميل إلى مأنوس الألفاظ، وتحاشي غريبها، وما أهمله الاستعمال، وهناك ما يستبدل من الكلمات توفيرا للجهد العضلي والأمثلة عند القدامى والمحدثين كثيرة منها ظاهرة الهمز في اللغة العربية، ومحاولة بعض القبائل العربية القديمة التخلص منها، خاصة قبائل الحجاز، كما تخلصت منها معظم اللهجات الحديثة "فصوت الهمزة عسير

[1] - رمضان عبد التواب، التطور اللغوي، ص 75.
[2] - أنيس المقدسي، العوامل الخفية في التطور اللغوي، مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، ص 301-302.

النطق، لأنه يتم بانحباس الهواء خلف الأوتار الصوتية، ثم انفراج هذه الأوتار فجأة، وهذه عملية تحتاج إلى جهد عضلي كبير، كما هو الشائع في لهجة قريش الجاهلية إسقاط الهمز في غير أول الكلمة، غير أن التسهيل امتد إلى الهمزة في أول الكلمة كذلك وهو شائع في اللهجات العربية الحديثة أيضاً"[1]. والأمثلة في سقوط الهمزة كثيرة في القديم والحديث كإسقاط همزة "أبو" كما في "بومدين" "بوتفليقة"، "جميلة بوحيرد"، "بولنوار"، "بولشفار".

7. مظاهر التطوّر اللغوي ومستوياته :

اللغة موزعة على مجموعة من الأنظمة، والتي تبدأ بالنظام الصوتي بصوامته، وصوائته، وفونيماته، ومقاطعه وما يسود فيه من ظواهر النبر والتنغيم وغيرها، وتمر بالكلمات من حيث بناؤها، ومورفيماتها، ودلالتها على المعاني المختلفة، في أذهان الناطقين بها ساعة الاستعمال، وتنتهي ببناء الجملة ووظيفة الكلمات داخل الجمل، وعلاقة بعضها ببعض إلى غير ذلك، والتطور اللغوي له مظاهره المختلفة الموزعة توزيعاً متفاوتاً على هذه الأنظمة أو المستويات اللغوية التي تأثرت بفعل التطور ولكن بنسب متباينة وحركة ليست في سرعة واحدة "وعناصر اللغة ليست كلها على سواء في قبول سرعة التطور، فهناك فرق في تطور اللغة بين الصوتيات، والصرف والمفردات."[2]. فما هي مظاهر التطور اللغوي، وما هي المستويات اللغوية التي نالت حظها من ظاهرة التطور وكانت عرضة للتغير المطرد.؟

أ. المستوى الصوتي :

لقد وصف علماء اللغة المستوى الصوتي في الدرس اللغوي عند العرب من آصل الجوانب التي تناولوا فيها دراسة اللغة، ومن أقربها إلى المنهج العلمي، وهو الأسبق من حيث الواقع العملي "ذلك أن أساسه مبني على القراءات القرآنية، وهو علم وإن كان متأخراً من حيث الوضع النظري عن بعض علوم العربية الأخرى، كالنحو، فإنه أسبق منها من حيث الواقع العملي، فإن قراءة القرآن جعلت علماء

[1] - رمضان عبد التواب، التطور اللغوي، ص 76.
[2] - المرجع نفسه، ص 15

العربية القدماء، يتأملون أصوات اللغة ويلاحظونها ملاحظة ذاتية التي أتيحت في وقت مبكراً دراسة طيبة للأصوات العربية لا تبتعد كثيراً عما يقرره المحدثون"[1]. والتطور في مستواه الصوتي لا يرقى في قوانينه التي تحكمه على قوانين علم الطبيعة أو الكيمياء أو غيرها فهي تصدق دائماً رغم ظروف الزمان والمكان "فالتيار الكهربائي مثلاً إذا وقع تحت ظروف معينة سوف يحلل الماء إلى أوكسجين وهيدروجين، في أي زمان، وفي أي مكان وسوف يكون باستطاعتنا أن نتنبأ النتائج الأخرى إلى حدّ معين، أما الأصوات فليست لها مثل هذه الخواص، إنها تنبي فقط عن قدر معين من الإطراد في التطورات السابقة في حدود معينة، من حيث الزمان والمكان، أي أنها تشير على أن الصوت الفلاني قد تطور إلى صوت آخر بذاته، في فترة كذا وفي لغة كذا، تحت ظروف معينة، ومحددة تحديداً دقيقاً ."[2]. ولا تتطور الأصوات ويؤثر بعضها في بعض إلا إذا التقى في الكلام صوتان من مخرج واحد، أو من مخرجين متقاربين، واختلفا صفة حدث بينهما شد وجذب، كل واحد منهما يحاول أن يجذب الآخر إلى ناحيته، ويجعله يتماثل معه في صفاته أو في بعضها "فالصوت لا يمكن أن ينقلب إلى صوت آخر، بعيداً عنه في المخرج جداً، فلا ينقلب صوت من أصوات الشفة أو الأسنان مثلاً إلى صوت آخر من أصوات الحلق، وكذلك العكس."[3]. وهناك عدد من الحروف العربية حدثت لها تغيرات تاريخية في أصواتها، مما لفت أنظار الدارسين إلى رصد وتتبع المراحل والمظاهر التي تقلبت فيها تلك الحروف، لاسيما الذين اعتنوا على وجه الخصوص بدراسة وتحليل الأصوات اللغوية دراسة مقارنة.

ويعد صوت الجيم في العربية من الحروف التي خضعت لتغيرات تاريخية في الأصوات، فالنطق الأصلي لهذا الصوت، كان بغير تعطيش، كالجيم القاهرية تماماً "فقد تحوّل من الطبق إلى الغار، أي من أقصى الحنك إلى أوسطه، كما تحوّل من

[1] - عبده الراجحي، فقه اللغة في الكتب العربية، ص 129-130
[2] - ستيفان أولمان، دور الكلمة في اللغة،ترجمة كمال بشر، دار غريب، القاهرة، ط12، 1997، ص 213.
[3] - رمضان عبد التواب، التطور اللغوي، ص 30-31

صوت بسيط إلى صوت مزدوج يبدأ بدال من الغار، ثم ينتهي بشين مجهورة، ففي اللهجات العربية الحديثة انحل إلى دال كما تنطق بذلك بعض مناطق الصعيد المصري كقولهم "دمل" و"داموسة" في "جمل" و"جاموسة" وقد حدث ذلك مبكراً في اللهجات العربية القديمة، وأقدم من ذلك انحلال الجيم الفصيحة إلى شين مجهورة، وقد ضاع منها الجهر فصارت شيناً مهموسة، كالشين الأصلية في العربية، فقد روي عن قبيلة تميم أنهم يقولــون في المثل " شر مــا أشاءك إلى مخه عرقوب " بدلاً من "أجاءك" أي ألجأك. وروى أبو عمرو الشيباني في الجيم "المعجم" شيئاً من هذا، فالإشاءة الاضطرار، وأهل الحجار يقولون الإجاءة، قال تعالى :" فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة ".. وهناك تغير ثالث تاريخي للجيم في اللهجات العربية، وهو تحوّلها إلى "ياء" كما في لهجة تميم فهم يقولون في :"الصهريج" وفي جمعه "صهاريج" وهو الذي يجتمع فيه الماء "الصهري والصهاري"."[1]. وقد تتبع علماء اللغة أصواتها في حياتها وتطورها، وأنها في تغير مستمر ونمو مطرد ، وهي في ذلك متأثرة بعوامل شتى سبقت الإشارة إلى أهمها، وفي سياق وصف الصوتيتين للعمليات التطورية للأصوات اللغوية انتبه فريق منهم إلى أن التطور الصوتي يتصف بعدة خصائص بعضها يتعلق بحركته وتلقائيته فلا دخل فيه لإرادة المتكلم وبعضها يتعلق بجبريته، إذ تحكمه ظروف الزمان والمكان ويتسم بالعموم، وتفصيل هذه الخواص فيما يلي :

1. **اللاشعورية** : فهو تلقائي، غير متعمد، ولا دخل فيه للإرادة الإنسانية "فالطفل يعتقد أنه يقوم بنفس الحركات الصوتية التي يقوم بها أبواه، مع أنه يخالفهما، فعدم شعورية التغيير هو الذي يفسر لنا استمراره، لأن الطفل قد يسعى إلى تصحيح خطئه لو أنه شعر بذلك."[2]. فتغير الذال إلى دال والظاء إلى ضاد، والثاء إلى تاء، وظاهرة تسكين الأواخر التي قضت على الوظائف الإعرابية

[1] - رمضان عبد التواب، التطور اللغوي، ص 25-26-27 .
[2] - تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، عالم الكتب، القاهرة، ط4، 2001، ص 94-95.

للكلمات في الجمل...كل ذلك يحدث بشكل تلقائي وبطريق آلي لا دخل للتواضع أو إرادة المتكلمين.

2. **الجماعية** : "فقد ساد شطراً طويلاً من الزمن الاعتقاد بأن كل تغير صوتي إنما يصدر عن الفرد، وأنه لم يمكن إلا تغييراً فردياً ثم عمم، وهذا غير صحيح، فليس في إمكان فرد أن يفرض على جيرانه نطقاً تنبو عنه فطرتهم...فيجب أن يكون لدى كل أفراد هذه المجموعة ميل طبيعي لتحقيقه من تلقاء أنفسهم، فالنطق الشاذ لا يجلب اتباعا، إنما يجر السخرية والاستهزاء."[1].

3. **البطء والتدرج** : فتطور الأصوات لا يحدث فجأة بين يوم وليلة، وإنما يظهر أثره عبر أجيال "لأن اختلاف الأصوات من جيل عما كانت عليه في جيل سابق له مباشرة لا يكاد يتبينه إلا الراسخون في ملاحظة هذه الشؤون، ولكنه يظهر جلياً إذا وازنا بين حالتيهما في جيلين تفصلهما مئات السنين. فلغتنا لا تختلف في أصواتها عن لغة آبائنا المباشرين، ولكن تختلف اختلافاً بيناً بيننا وبين أجدادنا في العصور الوسطى أو في صدر العصور الحديثة."[2].

4. **التحدد بالزمان والمكان** : فمعظم ظواهر التطور الصوتي يقتصر أثرها على بيئة معينة أو عصر خاص، ولا نكاد نعثر على تطور صوتي لحق اللغات الإنسانية في صورة واحدة، ويقتصر أيضاً على زمن معين "وهذا يعني أنه قد ينتهي أثره بعد فترة زمنية محدودة."[3]

5. **الاطراد** : فالتطور الذي يصيب صوتاً من الأصوات يسري على هذا الصوت في جميع أحواله،ويظهر أثره في جميع الكلمات المشتملة عليه، وعند جميع الأفراد المتواجدين في هذه البيئة "لأنه لما كان التغير لا ينحصر في كلمة منعزلة، بل في آلة النطق نفسها، فإن جميع الكلمات التي تتبع آلية واحدة في النطق، تتغير بنفس الصورة."[4]. "وإذا حدث لأي تطور صوتي أن صار فعالاً

[1] - على عبد الواحد وافي، علم اللغة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ط7، 1982، ص 53.
[2]- نفس المرجع، ص 285-286
[3] - رمضان عبد التواب، التطور اللغوي، ص 22.
[4] - تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، ص 95-96.

في منطقة معينة وزمن بعينه، فإنه يتوقع له أن يكون تأثيره عاماً، إلا إذا دخلت عليه عوامل أجنبية كالتأثيرات التعليمية، أو الافتراض الأجنبي، أو اللهجي أو القياس."[1]ولا شك أن التطور الصوتي الذي أصاب العربية قليل جدا مقارنة باللغات الأوروبية.

ب. المستوى الدلالي :

حظي التطور الدلالي بدراسات وافية، وجَازَ النصيب الأوفى في المباحث الدلالية عند علماء الدلالة على وجه الخصوص، فكتبوا في العوامل والخصائص، والمظاهر، ويعد المستوى الدلالي في التطور اللغوي من أهم المستويات وأغناها إلى جانب صنوه المجال الصوتي، الذي نال عناية واسعة من علماء اللغة، ولاشك أن أكثر المظاهر ــ التي تؤسس نظرية التطور في اللغة العربية وغيرها، وتفسر الحركية والديناميكية في لغات البشر، والنمو اللامحدود ــ هي التطورات الدلالية، والتي سبق الحديث عنها بشيء من التفصيل عن العوامل العامة التي تعلل نمو الألفاظ والدلالات، إلا أن التطور الدلالي تتلخص عوامله في عاملين أساسيين لكل منهما عناصره ومقوماته وهما الاستعمال والحاجة "نراها ذات شطرين، منها تطور لا شعوري يتم في كل لغة، وفي كل بيئة، ثم لا يفطن له إلا بعد المقارنة بين عصور اللغة، ومنها ذلك المقصود الذي يقوم به المهرة في صناعة الكلام، أو تقوم به الجامع اللغوية لهدف ما أو لآخر، وهذا التطور المقصود المتعمد أقل أثراً في اللغات بوجه عام ، فقد نراه خلال حياة الجيل الواحد من الناس."[2] وكثرة دوران الكلمة في الحديث له أثره في الدلالة، فإننا نلاحظ أن معنى اللفظ يتعرض للتغير كلما زاد استعماله وكثر في نصوص مختلفة، "فالعقيقة" تعني الشعر الذي يخرج مع الولد عند خروجه من بطن أمه، وانصرف إلى معنى ما يذبح من الأنعام عند ولادة المولود. ولفظ "الوغى" بمعنى اختلاط الأصوات في الحرب، فأصبح يطلق على الحرب نفسها. وللتطور الدلالي جملة من الخصائص تشبه خواص التطور الصوتي

[1] ـ ماريوباي، أسس علم اللغة،ترجمة أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط3، 1983، ص 140.
[2] ـ إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، ص134

التي أشرنا إليها من قبل. وأكثر ما يظهر التطور الدلالي بجلاء في الصور والمظاهر المختلفة التي تعرض لها أهل اللغة بشكل دقيق وأهمها: التخصيص والتعميم والارتقاء والانحطاط والانتقال "فمن حالات التخصيص الدلالي تلك الحالة التي يطلق فيها الاسم العام على طائفة خاصة ككلمة "الطهارة" التي خصت بمعنى "الختان" في أذهان الناس، ومنه "اللحاف" الذي يعني كل ما يلتحف به، فخص بما يوضع على وسط الجسم، وأما حالات التعميم الدلالي فهي إطلاق اسم نوع خاص من أنواع الجنس على الأجناس كلّها كحال الأطفال الذين يطلقون "النهر" على كل نهر يرونه لأنه يشبه ما تعودوا عليه في بلدتهم وإطلق "البأس" على كل شدة، وهي في الأصل تعني الحرب ففي التنزيل "وحين البأس"[1].

ومن مظاهر التطور الدلالي ما يصيب الدلالة من بعض الانهيار أو الضعف فتراها تفقد شيئاً من أثرها في الأذهان بما سماه بعض العلماء بانحطاط الدلالة "فهناك ألفاظ تبدأ حياتها لتعبر في قوة عن شيء فظيع تفزع الآذان لسماعها، ففي لغة التشاجر مثقلاً تستعمل كلمة "القتل" وهي عادة ما تعني الضرب وتبادل اللطمات، وقد كانت هذه الكلمة قد تنخلع لها قلوب السامعين. ولفظ "اللئيم" كانت دلالته أقوى في الأساليب القديمة مما هي عليه على ألسنة الناس اليوم، وما يقابل الانحطاط الدلالي، الارتقاء، فكما أن الدلالة قد تنحط في ألفاظ قد تقوى في أخرى، غير أن ضعف الدلالة أو انحطاطها أكثر ذيوعاً في اللغات بوجه عام فكلمة "السفرة" تعني في الأساليب القديمة طعام المسافر، وهي الآن تعني على ألسنة تجار الأثاث شأناً آخر أرقى، ولفظ "السلطان أو الملك" لا نكاد نلمح فرقاً بينهما، فكلاهما يطلق على صاحب ولاية أو حكم مهما صغر شأنه فأصبح لقباً عظيماً لأصحاب الحكم والولاة."[2]. وقد تنتقل الدلالة من مجال إلى آخر لوجود علاقة ما أو ملمح مشترك بينهما يسوّغ هذا الانتقال، وله مبرراته ودوافعه وهو الذي يسمى بالمجاز، فيتغير به فضاء استعمال الألفاظ فتحال المحسوسات إلى مجال الدلالات المجردة، ومن أجل

[1] - رمضان عبد التواب، التطور اللغوي، ص 195وما بعدها.
[2] - إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، ص 156-157-158

فهم المجردات يستعان بالملموس المحسوس، ويغطي الانزياح عموماً مثل هذه النواحي ،ويفي بأغراضها الدلالية، وتلعب الاستعارات والكنايات دورها الفعال في هذا المضمار ""فالرطانة" في المعاجم العربية: الإبل مجتمعة، وهي تصدر أصواتاً مبهمة، هذه الدلالة يمكننا أن ننقلها إلى كل كلام مبهم بلغة أجنبية، فلم نعد نرى معناها المحسوس لكثرة شيوع معناها المجرد.

ج. المستوى الصرفي :

يعنى علم الصوف بدراسة الوحدات الصرفية، وهي الوحدات التي تعد أصغر الوحدات ذات معنى تكوّن الكلمة أو أجزاء الكلمات. "وهو أحد نظامين فرعيين لنظام القواعد في اللغة حيث تبنى الكلمات من العناصر الصغرى بطرق معينة، ثم توضع هذه الكلمات بجوار بعضها في جمل بطرق مختلفة."[1]. وأنظمة اللغة العربية موسومة بالثبات والاستقرار من خلال أنها مجموعة من القواعد تحكمها شبكة من العلاقات "فالنظام الصرفي ثابت، وأن استقراره يتطلب وقتاً أطول ولكنه بعد أن يستقر لا يعتريه تغير يذكر، ذلك لأن الصرف لا يتغير في أثناء جيل واحد، بل هو كالصوتيات، إنما يتغير في الانتقال من جيل إلى جيل فالنظام الصوتي والصرفي، إذا ما اكتسبا مرة بقيا طول العمر، وهما يدينان باستقرارها إلى استقرار ذهينة المتكلم."[2]. وتختلف العربية عن اللغات الحية المعاصرة، فهي دائمة التطور والتغير لقصر عمرها، لأنها لم ترتبط بكتاب مقدس خلافاً للعربية التي ارتبطت بالقرآن الكريم منذ قرون، ودوّن بها التراث العربي الضخم، ودراسة التطور في العربية يكون أجدى عندما يعالج من الناحية الوصفية التاريخية، وليس من الناحية المعيارية باعتبار أن اللغة كما أسلفنا تمتلك في ذاتها القابلية للتطور، والباحث اللغوي يرصد القوانين والمظاهر والعوامل التي تصاحب اللغة العربية في مراحلها التاريخية المتعاقبة.

[1] - هويدي شعبان هويدي، التطور اللغوي منهج وتطبيق ، مطبعة المدينة، دار السلام 1985، ص 83
[2] - رمضان عبد التواب، عن كتاب اللغة لفندريس، ص 246-247

واللغة في مستواها الصرفي قد نالها حظ من هذا التطور وإن كان لا يلاحظ إلا بعد مئات السنين كما يرى اللغويون. ومن مظاهر التطور الصرفي التي حظيت بدراسة مستقلة قام بها الشريف ميهوبي في كتابه "دراسة في التطور والتأصيل تطور الفعل الرباعي في العربية ولهجاتها مقارنة بأخواتها الساميات". "فقد اتفقت الكتب القديمة في أغلبها بوصفه موضوعاً صرفياً على أنه أصل من أصول العربية دون التعرض في كثير من الأحيان إلى السبل التي سلكها في تطوره، والقول بأن الفعل الثلاثي أكثر تداولاً من الفعل الرباعي لأسباب منها الخفة والتمكن والفصاحة تؤكد النظرة القائلة بأن الرباعي طارئ جديد حدث نتيجة تطور للأصول الثلاثية، أو يعود إلى أصول اسمية."[1]. والخلاف في هذه المسألة طويل.

د. المستوى النحوي:

إذا كان علم الصرف يركز في تحليله للغة على بنية الكلمة كما أسلفنا، فإن النحو يعنى ببنية التركيب، فيحلل بنية الكلمة في ضوء علاقتها بالكلمات المجاورة لها في جملة ما فهي أبسط وحدة للتحليل النحوي، فلكل كلمة موقع محدد في التركيب، ولا يجوز التعديل إلا وقف قواعد مرسومة وضعها علماء النحو، والتحليل النحوي أعم من التحليل الصرفي. ومن أبطأ مظاهر التطور اللغوي في العربية وغيرها، التطور النحوي، ومن الأمثلة مسألة "الإعراب وترتيب الجملة، حيث كانت الجملة العربية تحظى بحرية واسعة إلى حد ما في ترتيب أجزائها، بسبب وجود الجملة، ومن هنا تعددت أشكال الجملة العربية من ناحية موقع كل جزء، فجملة "ضرب محمد علياً" يمكن أن تقال بأوجه مختلفة.. تبعا لاختلاف المقصود من الكلام، والجزء الذي يعني المتحدث إبرازه والاهتمام به أكثر من غيره."[2]. والذي ساعد على هذا التنوع في الجملة العربية وجود الإعراب، فلمّا فُقد كان الواجب أن تلتزم الجملة نظاماً واحداً، وهو ما حدث في اللهجات العربية الحديثة لغياب المحدّد الإعرابي، وهناك ظواهر أخرى من التراكيب أصابها التطور كقضية المطابقة،

[1] - الشريف ميهوبي، دراسة في التأصيل والتطور، دار هومة، الجزائر، 2002.
[2] - رمضان عبد التواب، التطور اللغوي، ص 207.

والرتبة، والتعدي، واللزوم "فأدوات الاستفهام ورتبتها الأصلية الصدارة والأصل في إفادة الاستفهام هو "الهمزة" ولذا جاز حذفها، ومنه قول الشاعر :

فوالله ما أدري وإن كنت دارياً * * * * بسبع رمين الجحر أم بثماني

فبعض اللهجات تميل إلى التخلص من همزة الاستفهام، وتعويضها بالتنغيم مثل : أنت سافرت ؟ بدلاً من التعبير الفصيح : أسافرت؟ أو هل سافرت؟، أو أأنت سافرت ؟ ويعني هذا أن التركيب كلّه يفيد لاستفهام، والتطور هنا سلبي لأنه تغير بالنقص."[1].

هـ . المستوى المعجمي :

تعد المعاجم العربية الوعاء الأكبر الذي صبت فيه الألفاظ صباً، وما كان لجمّاع اللغة الأول أن يضطلعوا بمهمة جمع اللغة وحفظها، وكابدوا في ذلك الصعاب والأهوال لولا إيمانهم الراسخ بأن اللغة هي الحياة، ولقد بينا فيما سبق أن اللغة تتسع وتنمو وتتطور على مرّ العصور سواء من حيث قواعد نحوها، وصرفها، أو من حيث مفرداتها وتراكيبها وأساليبها، تبعا لتطور الناطقين بها فكرياً وحضارياً واجتماعياً، وأن مجموعة كبيرة من صيغها وألفاظها تتغير من مدلولاتها ومفاهيمها نتيجة عوامل وظروف طبيعية وحضارية مختلفة، ولقد أكد الباحثون أن من الصعوبة بمكان أن يحيط الإنسان بألفاظ العربية إحاطة مستوعبة بل يكاد يكون مستحيلاً، وهذا العجز الذي له ما يبرره لا يدل دلالة قاطعة على حاجة الإنسان الماسة إلى مراجع يعتمد عليها وتمده بما يحتاج من لغة (مفردات ودلالات) "فإن من أعظم ما ابتكره الإنسان لحماية اللغة والحفاظ عليها حية نامية متطورة تأليف المعجم تحفظ المفردات وتتولى تفسيرها، وتتكفل بيان صور استعمالاتها، وتمييز الأصيل من الدخيل، والحقيقي من الزائف، والحي من الميت، والشائع من النادر.. فالمعاجم هي خزائن اللغة التي يستمد منها الإنسان ما يغني حصيلته اللغوية وينميها...والمعاجم على اختلاف أنواعها وأحجامها ومناهجها ووظائفها، فلكل نوع من أنواعها قديمها

[1] - هويدى شعبان هويدي، التطور اللغوي، ص 100

وحديثها وظيفة معينة وغرضا خاصا ودورا مهما في تطوير وتنمية الثروة اللغوية، والحفاظ عليها، وفي تنمية المهارة البيانية للإنسان."[1]. وتطور الحياة بجميع مظاهرها ومجالاتها، اللامنقطع، يفرض على مستعملي اللغة مواكبة جميع التحولات، ابتكار ما يكافئها لغوياً، وهذا ما تضطلع به الصناعة المعجمية، ويلبي احتياجاته التنظير المعجمي قديماً وحديثاً.

التطور اللغوي وإن كان بطيء الحركة في مستواه الصوتي والدلالي، وهو أشد بطءا في مستواه النحوي والصرفي، فإننا نستنتج أن الأمر يختلف تماماً في المستوى المعجمي حيث يعد أسرع المستويات تطوراً باعتبار أن الحياة تتطور تطوراً سريعا ونحن في عصر السرعة والحاجة، أم الاختراع، فلا يتصور حياة سريعة التحول بهذا الشكل العجيب، من غير حركة لغوية مساوية لها في السرعة، معادلة لها في الاتجاه والبحث التاريخي للمفردات العربية وجهة بعض علماء العربية المحدثين ومحط أنظارهم، ومنتهى اهتمامهم، وذلك بالعمل على إنشاء معجم تاريخي عربي "والمقصود به، التعرّف على التحوّل الزماني لمفردات العربية، من حيث معناها ودخول مفردات جديدة كمصطلحات علمية، أو حرفية، أو ألفاظ حضارية وتحديد معانيها، واختفاء بعض المفردات، وغير ذلك."[2]. وبغض النظر عن ما وجه إلى المعاجم العربية من مآخذ وانتقادات، تبقى الحاجة ماسة إليها، فاللغة في تطور وتغير عبر التاريخ، وفي مختلف البيئات التي يعيش فيها أهلها، فستحذف ألفاظ وتموت أخرى، وتختص فئات مختلفة بألفاظ اصطلاحية مغلقة على غيرها من البشر كمصطلحات الجندية والبحرية، والصناعية، والزراعية، والفنية، والعلمية، إلى غير ذلك فيظهر في اللغة ما يسمى بالغريب، وهو يحتاج إلى معجم ليضبط نطقه ويشرح معناه، فاللغة أصبحت تورث كالفكر، وأصبح المعجم بالنسبة لها هو الخزان الذي يحفظ هذا الميراث.

[1] - أحمد محمد المعتوق، الحصيلة اللغوية، عالم المعرفة، الكويت 1996، ص 222-223-224.
[2] - عبد الرحمان الحاج صالح، المعجم التاريخي وشروط إنجازه، مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، المجمع الجزائري للغة العربية، الجزائر، العدد الخامس، جوان 2007، ص 17.

وتحت تأثير العوامل المذكورة آنفاً سواء الداخلية والخارجية، نحن أمام كمية لا حصر لها من الألفاظ ، وبشكل مفتوح تنتظر جهود أهل اللغة في الجمع والترتيب وحسن الشرح التبويب، تنآ بحمله الجبال.

وفي ختام هذا الفصل يمكن أن نخلص إلى بعض النتائج وهي:

1. دراسة الظواهر اللحنية في اللغة العربية في ضوء ظاهرة التطور اللغوي دراسة مفيدة في تفسير وتعليل الكثير من مظاهر اللحن في العربية سواء على مستوى اللفظ أو الدلالة.

2. دراسة التطور اللغوي يعين على إيجاد نقطة الاعتدال بين المسرفين والمضيقين في ظاهرة اللحن في العربية.

3. الحذر من الغلو في التطور اللغوي حتى لا تفقد العربية أسسها القواعدية، وحتى لا يسكت عن اللحن تحت غطاء التطور. ومن الألفاظ ما طاله التطور وحافظت على فصاحتها.

4. خضوع كل من اللحن والتطور في العربية إلى نفس القواعد والقوانين التي تمكننا من التفريق بين ما هو لحن وما هو من قبيل التطور اللغوي، فقد يتطور اللفظ ويبقى مع ذلك موسوماً باللحن والخطأ.

5. بفضل قانون التطور اللغوي أصبح للعربية الفصحى مستويان، والذي عبر عنه بعض الباحثين بمستوى الفصحى القديمة، والفصحى المعاصرة، وهناك دراسات حول هذه الأخيرة.

6. إن المتحكم في سرعة التطور وبطئه سرعة التحولات في مجالات الحياة واتساع الحاجات التواصلية، واحتكاك اللغات ببعضها، ازدياد عدد الناطقين بها وتنوعهم.

7. إن كلاً من العوامل الداخلية والخارجية للتطور اللغوي يعمل بدرجات متفاوتة، وبتأثير غير متوازن، قوة وضعفاً.

الفصل الثاني : "يوهان فك" وكتابه "العربية"

1) نماذج من المستشرقين في المدرسة الألمانية
2) يوهان فك حياته وآثاره
3) كتاب العربية منهجه ومحتوياته
4) قيمة الكتاب وآراء النقاد والدارسين فيه

تمهيد:

لقد أصبح الاستشراق الـ يوم علما له كيانه ومنهجـــه، ومدارســـه وفلـــسفته، ودراساته ومؤلفاته وأغراضه وأتباعه، ومعاهده ومؤتمراته ..وهو اتجاه فكري يعنى بدراسة حضارة الأمم الشرقية بصفة عامة وحضارة الإسلام والعرب بصفة خاصة، وقد كان مقتصرا في بداية ظهوره على دراسة الإسلام واللغة العربية، ثـم اتـ سع لدراسة الشرق كله بلغاته وتقاليده وآدابه، ولقد نالت ظاهرة الاستشراق حظا وافـرا من الدراسات والأبحاث، واختلفت الآراء حولها، وكانت محط جـدل واسـع بـين مؤيدين ومعارضين، بل نستطيع الجزم أن هذه الظاهرة من أكثـر المـسائل إثـارة للجدل والنقاش، وسوف يستمر لأزمنة لاحقة، حتى يتم فهمها فهما علميا بعيدا عـن التعصب والولاء، والهوى والأحكام المسبقة.

وكثيرة هي الدراسات والمؤلفات التي غرقت في إبراز وتحليـل الجوانـب الفكرية، والأيديولوجية لظاهرة الاستشراق إلى حد التطرف في أن كل مـا أنتجـه المستشرقون حول الدراسات الإسلامية والعربية ملـ غوما ولا يمكـن اعتبـاره مـن المراجع العلمية الموثوقة، وغرق فريق آخر في التبجيـل والتعظـيم لمـا أنتجـه المستشرقون عن الشرق وحضارته وآدابه وكـل مـا يتعلـق بـه، "والدراسـات الاستشراقية وإن كانت قد تعددت أغراضها، وتباينت أهدافها إلا أنها لم تكن خاليـة من الفائدة العلمية الـ تي لا مناص لنا من الاعتراف بها فالمستشرقون قـاموا بجمـع المخطوطات العربية والإسلامية والشرقية وفهرستها، وحققوا العديد منهـا بـأعلى المقاييس العلمية والمتعارف عليها، ونشروها نشرا علميا خالصا، وترجمـوا الآلاف من هذا التراث إلى اللغات العلمية، وعرفوا الآخرين بحضار تنا وتراثنا، ومن هنـا فإن هذه الدراسات الاستشراقية تستحق منا الإطلاع عليهـا ودراسـتها لا بالثنـاء المطلق، ولا بالتحامل المطلق، بل نخضعها لمعايير البحث العلمي الصارم، ومهمـا بلغت هذه الدراسات من الموضوعية في مضمونها إذا سلمت من التعصب والهوى، فإنها لا تخلو من هنـ ات وأخطاء لغوية أو علمية أو تاريخية سـببها الجهـل باللغـة

العربية أو اللغات الشرقية الأخرى، فهؤلاء القوم مهما بلغت معرفتهم بلغتنا وحضارتنا، فقد يغيب عنهم فهم العديد من المصطلحات والتعابير اللغوية ..ولا ننسى أن الإطلاع على الدراسات الاستشراقية يقودنا إلى الاستفادة من تلك المناهج العلمية التي طبقها المستشرقون في دراساتهم خاصة تلك المناهج الموسومة بالعلمية والموضوعية، والدقة في التحقيق والاستقراء، كما لا يغيب عن أذهاننا ما يمتاز به المستشرقون من الصبر والمثابرة، وتجشم الصعاب والأخطار، والتضحية بالنفس والمال، تكاد تكون مضرب الأمثال"[1].

لقد ألم المستشرقون بجميع مناحي الحياة الشرقية والإسلامية ولم يدعوا مجالا إلا وأدلوا فيه بدلو، ولم يتركوا شاردة ولا واردة إلا وكان لهم فيها مقال، ولم يهملوا جزئية أو رأيا مهما كان تافها، إلا وأشبعوه بحثا وتحليلا، فمن واجبنا أن نطلع على دراستهم ومؤلفاتهم حول تراثنا العربي والإسلامي والحكم عليها من خلال المنظار الموضوعي بعيدا عن التعصب والأحكام المسبقة . وفي حدود علمنا تعد الدراسات العربية حول الإنتاج الاستشراقي في مجال الثقافة الإسلامية عموما غزيرة كالمستشرقين والقرآن أو السنة النبوية أو السيرة والتاريخ الإسلامي أو الفقه والتشريع وغيرها. أما حول الإنتاج الاستشراقي في مجال الدراسات اللغوية والأدبية فقد كان قليلا لاسيما الأبحاث والدراسات المتعلقة بالدرس اللغوي عموما، فلقد أسهم فيه المستشرقون بقسط كبير، ولم ينل ما يستحق من العناية والدرس . وكان حظ المدارس الاستشراقية الكثيرة متفاوتا في الدراسات اللغوية والأدبية، فبعضها جمع بين المجالين، وبعضها نحا منحى التخصص. وهذا ما سنتوقف عنده في هذا الفصل، والفصل الذي يليه، حيث نركز على المدرسة الاستشراقية الألمانية في خصائصها وأهم إسهاماتها اللغوية من خلال أبرز كبار المستشرقين الألمان الذين تناولوا اللغة العربية بالدراسة والبحث، ثم نقف عند علم من أعلامها المرموقين وهو "يوهان فك" فنبين حياته وآثاره، ثم تناول كتابه "العربية" لنتعرف على منهجه ومحتوياته، ثم

[1] - ساسي سالم الحاج، الظاهرة الإستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية، الجامعة المفتوحة، طرابلس، ط3، 1997، ص 7- 8.

نعرض لقيمة الكتاب وآراء الدارسين والنقاد فيه ولا يفوت نا أن نشير إلى أن عناية الاستشراق باللغة العربية تركز على " دراسة كل ما يتصل بها فبحث في فقهها، وأصواتها، ولهجاتها، وصرفها ونحوها، ومعاجمها، وأطوارها، ومادتها، وبلاغتها، وفلسفتها، وعلاقتها باللغات الأخرى، خاصة السامية، ومميزاتها وعناصرها، وتاريخها، ونقوشها، وكل ما أنتجته هذه اللغة حتى يبدو وكأنه قد صب اهتمامه كله عليها، وذلك لصلتها الوثيقة بالقرآن والحديث والشريعة على حد سواء."[1].

1. نماذج من المستشرقين في المدرسة الألمانية

تتمثل جهود المستشرقين على مدى تاريخهم الطويل بما في ذلك المدرسة الألمانية في أعمال م ختلفة تشكل في مجموعها كلا واحدا لخصها المهتمون بشؤون الاستشراق في جملة من الأعمال الكبرى يأتي في مقدمتها : التدريس الجامعي حيث لا تكاد تكون هناك جامعة في أوربا أو أمريكا إلا وقسم أو معهد منها خاص بالدراسات العربية والإسلامية بل يوجد أحيانا في بعض الجامعات أ كثر من معهد للاستشراق مثل جامعة "ميونيخ" تقوم هذه المعاهد بالتدريس وتعلم العربية وتخريج الدارسين في أقسام الماجستير والدكتوراه، ولكل معهد مكتبة عامرة بالكتب العربية والإسلامية "وكان اهتمام المستشرقين بجمع المخطوطات منقطع النظير مبنيا على وعي عميق بقيمتها وما تحمله من تراث غني في شتى المجالات العلمية .. وقد قام المستشرق "آلوارد" "Ahlwardt" بوضع فهرس للمخطوطات العربية في مكتبة "برلين" في عشرة مجلدات بلغ فيها الغاية فنا ودقة وشمولا صدر في القرن التاسع عشر، واشتمل على عشرة آلاف مخطوط، ومن الإنصاف القول أن انتقال هذا العدد الهائل من المخطوط إلى أوربا قد يصل إلى الآلاف قد تهيأت له وسائل الحفظ والعناية الفائقة والفهرسة الدقيقة "[2]. ولم يقتصر عمل المستشرقين على جمع المخطوطوفهرستها بل تجاوز ذلك إلى التحقيق والنشر فقد قاموا بتحقيق الكثير

[1] - يحيى مراد، معجم أسماء المستشرقين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004، ص79.
[2] - محمود حمدي زقزوق، الإستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط1، 2008، ص 58-59.

من كتب التراث، وقابلوا الفروق بين النسخ وأثبتوها، ورجحوا ما حسبوه الأصح والأعدل، وأضافوا إلى ذلك فهارس أبجدية للموضوعات والأعلام، وقاموا أحيانا ببعض الشروحات لبعض الكتب فكان عملا مفيدا . ومن الكتب الكثيرة نذكر على سبيل المثال لا الحصر : الإتقان للسيوطي، وكتاب سبويه، والاشتقاق لابن دريد، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي، واللمع لابن نصر السراج، والبديع لابن المعتز، والكامل للمبرد، والجمهرة لابن دريد والتعريفات للجرجاني، والمقتضب لابن جني، والأغاني للأصفهاني، وعدد هائل من الدوواين وكتب لا حصر لها في الشؤون الإسلامية.

ومن الوسائل التي عمد إليها ا لمستشرقون في خدمة التراث أنهم " قاموا بترجمة مئات الكتب العربية والإسلامية إلى اللغات الأوروبية كافة، وتعددت أيضا مجالات التأليف عندهم، فبلغ عدد ما ألفوه في الشرق في قرن ونصف أي منذ أوائل القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين ستين ألف كتاباً، وفي بعض ما ألفوه فائدة علمية للباحثين، ولهم مؤلفات مليئة بالطعن في الإسلام، وهذا ما تصدى له العلماء والمحققون "[1]. غير أن ما لاحظه الدارسون للظاهرة الاستشراقية أن معظم الدراسات التي أجراها المستشرقون حول الثقافة الإسلامية عموما لم تخل في أغلبها من التشكيك وإثارة الشبه ات، وبث السموم تحت تأثير الأهداف السياسية غير المعلنة، ولكننا نلاحظ أن الأمر يختلف عنه في الدراسات اللغوية والأدبية إلا شيئا قليلا مقارنة بالدراسات الإسلامية التي كانت أكثر خصوبة للتشويه والتلغيم.

وتعد المدرسة الاستشراقية الألمانية رائدة في الدراسات اللغوية على وجه الخصوص بفضل كثرة روادها فقد أحصينا في كتاب العقيقي "المستشرقون" وحده عددا جاوز 240 مستشرقا[2]. ناهيك عن المعاجم التي ألفت تحصى تراجم المستشرقين الألمان وغيرهم على اختلاف مدارسهم

[1] - نفس المرجع ، ص 59-60.

[2] - يرى بعض الباحثين ضرورة الإشارة إلى أنه منذ صدور كتاب نجيب العقيقي وعبد الرحمن بدوي حول المستشرقين، وقبل أكثر من ثلاثين سنة لم تصدر كتابات تهتم بسير المستشرقين المعاصرين وتراجمهم.

وتفاوت إسهاماتهم وإنتاجهم الثقافي لغويا كان أم أدبيا أم إسلاميا." وبالرغم من اتصال ألمانيا بالشرق منذ الحروب الصليبية الأولى، وانشقاقها عن الكاثوليكية بعد الثورة الدينية التي قادها "مارتن لوثر" وبالرغم من تدبيج بعض الكتب عن اللغة العربية وخاصة كتاب "كريستمان" الذي أعده لتعليم كتابة الحروف العربية منذ 1585م، و بالرغم من حاجة المذهب البروتستانتي الجديد لدراسة التوراة لمقارعة ومجادلة الكاثوليكية، فإن الدراسات الاستشراقية الألمانية لم تزدهر إلا في القرن الثامن عشر خلافا للبلدان الأوروبية الأخرى، وبلغت هذه الدراسات أوجها بعد أن تخرج على يدي "دي ساسي" عشرات من المستشرقين الألمان"[1].

وسوف يطول بنا المقام لو رحنا نستعرض المستشرقين الألمان ومساهمتهم العربية والإسلامية، وما يهمنا الحديث عنه هو أهم الأعمال والمنجزات التي لفتت أنظار الباحثين العرب في المجال اللغوي، وأولوها عنايتهم الخاصة، معترفين أن ما قدمه المستشرقون من الـ مدرسة الألمانية لا ينبغي الاستهانة به، أو تجاهل القيمة العلمية لجل الدراسات الاستشراقية لهذه المدرسة في اللغة العربية علما أن فريقا من المستشرقين الألمان توجه إلى الدراسات الإسلامية، ومنهم من ولى وجهه شطر اللغة العربية وعلومها وآدابها، واختار فريق ثالث الد راسات الإسلامية والعربية ليضرب في كل منها بسهم وافر، وإنتاج زاخر . وتمتاز المدرسة الاستشراقية الألمانية عن غيرها من المدارس الكثيرة على وجه العموم بجملة من الخصائص حيث " يؤكد معظم الباحثين العرب أن الاستشراق الألماني لم يخضع لغايات سياسية أو دينية أو استعمارية بحجة أن ألمانيا لم يتح لها إستعمار البلاد الإسلامية، ولم تهتم بنشر الدين المسيحي في الشرق، وهذه الخاصية ليست صحيحة في إطارها العام لأن الاستشراق الألماني كان مبعثه تحقيق الأهداف الدينية .. وإن ألمانيا لم تتعفف عن استعمار البلاد العربية والمشرق، ولكن الظروف الدولية منعتها من ذلك، خاصة المنافسة البريطانية لها، ولا يمكن أن نبرئ ألمانيا من نواياها الاستعمارية . ولقد تميز الاستشراق

[1] - ساسي سالم الحاج، الظاهرة الإستشراقية، ص 155.

الألماني بالدراسات الشرقية القديمة والحقبة الإسلامية واهتم بالآثار والأدب والفن، وهذا النوع من الدراسات عادة ما يكون خاليا من تحقيق أي غرض من الأغراض السياسية. وإن هذه المدرسة امتازت أيضا عن غيرها بغلبة الروح العلمي على أبحاثها والتي تتسم غالبا بالموضوعية والتجرد و الإنصاف، وهذه الروح التي امتازت بها المدرسة الألمانية مبعثها تلك الخصال المميزة للشعب الألماني المجبول على الدقة البالغة ، والعناية الفائقة، والصبر الجميل، وإتباع المنهج العلمي الصارم بأعلى المقاييس العلمية المتعارف عليها، ومع ذلك لا يمكن أن يخلو من تحقيق أهداف سياسية. نعم لقد جاءت الدراسات الاستشراقية الألمانية خالية من العداء للعرب أو التحامل عليهم . والسبب في ذلك في رأينا هو اهتمام هذه المدرسة بالتراث العربي القديم والآداب والآثار القديمة، وكان اهتمامها مميزا في الدراسات النحوية، والصرفية والبلاغية والعروضية، وفي فقه اللغة."[1]. ومهما يكن من خلاف في مسألة الأهداف السياسية والدينية في نشاط المدرسة الألمانية فإننا نؤكد مرة أخرى على أن أعمال المستشرقين عموما في الدراسات الإسلامية لا تخلو من الشبهات والأحقاد والطعون، فهو ظاهر لا يستطيع المستشرقون أن يتجاوزوه، ولكن دراساتهم في مجال اللغة يكاد يخلو من التعصب والهوى والكراهية والعداء رغم التباين العقدي والفكري والمنهجي والحضاري .. ولذلك لا يمكننا بحال من الأحوال " أن ننكر مساهمات المدرسة الألمانية في نشر الثقافة الإسلامية، وبيان الحضارة العربية، وذلك لما نشرت من نصوص قديمة ساعدت على نشر آلاف من أمهات الكتب العربية والإسلامية. وجعلتها ميسورة للمثقفين الغربيين، كما كانت مجهوداتها لا تنسى ولا تجحد في مجال فهرسة المخطوطات العربية، وقيامها بتصنيف العديد من المعاجم العربية، واهتماماتها بالدراسات المختلفة في ميادين الثقافة الإسلامية، واتباعها لمنهج علمي دقيق فرضته الطبيعة الألمانية وخصال شعبها، واهتمام هذه المدرسة بعد الحرب الثانية بأحوال الوطن العربي ودراسته من جميع جوانبه، وهذه

[1] - المرجع السابق، ص 160، 161 ، 162.

جميعها خصائص إيجابية لا ننكرها، أو نقلل من قيمتها . ومع ذلك تبقى هذه الدراسات غير مبرأة من الأهواء، وتحقيق أغراض لا علاقة لها بالمنهجية العلمية والموضوعية والحيادية أحيانا."[1].

وتألقت المدرسة الألمانية في سماء العلوم العربية وغيرها على أيدي عدد هائل من المستشرقين علا كعب فريق منهم في التأليف والتصنيف، والأبحاث والتحقيق أخذت اللغة العربية جل اهتمام كثير منهم، فكان التفاوت والتباين ملحوظا في إنتاجهم كما وكيفا، وسوف نقتصر على إبرار بعض الشخصيات الاستشراقية اللامعة التي كانت لها اليد الطولى في إثراء الثقافة العربية، والتراث العربي، ونسلط الضوء على الذين عرفوا بغزارة الإنتاج وسعة الإطلاع، وتنوع التأليف، والذين اشتهروا بالإنصاف والروح العلمية، والدقة والعمق في تناول الظواهر اللغوية، ممن شهد لهم بذلك جمهور اللغويين، وتلقوا أعمالهم وإسهاماتهم بقبول حسن، وصنفت على أنها جهود في خدمة التراث العربي لا يمكن تجاوزها أو الاستخفاف بها .

وعكف جمع من الباحثين العربية في شؤون الاستشراق وإسهاماته اللغوية أو الأدبية على جمع ودراسة الكثير مما أنتجه المستشرقون من ذلك ما لوحظ أن " البلاغة العربية والنقد الأدبي العربي حظي باهتمام المستشرقين الألمان فقد أصدر "أوجيست فون ميرن" "August von mehren" سنة 1853 كتابا عنوانه "بلاغة العرب" وقف فيه عند عدد من المصطلحات البلاغية وشرحها شرحا عميقا .. ويعد "فلفهارت هاينرشس"من أهم المستشرقين المهتمين بالدرا سات العربية المتصلة بالأدب والنقد القديمين والبلاغة وله بحوث عديدة منها: مؤلف عن "صلة النقد عند حازم القرطجني بالنقد عند أرسطو " وقد نشر بالألمانية سنة 1969. ومنها: "يد الشمال": آراء حول الاستعارة. وبحث حول العلاقة بين البديع والاستعارة في الكتابات النقدية العربية

[1] - المرجع السابق، ص 162.

القديمة نشر بالانجليزية عام 1984.ومنها بحث حول :البّديع عند أبـــي نـــواس ". ودراسات أخرى."[1].

ويعمل بعض الباحثين العرب علـــى جمـــع أعمـــال المستـــشرقين اللغويـــة ويتناولونها بالتعليق والشرح والتحليل كما فعل يّوسف أبو العدوس " فـــي كتابـــه " الاستعارة في دراسات المستشـ رقين". وكتبت مقالات كثيرة على هذا المنوال كالمقال الذي كتبه "ملك ميمون" بعنوان المستشرقون ودراسة العروض العربي " حيث اعتبر أن من "المستشرقين الذين تناولوا العروض العربي بدراسة والتحليل "فايـــل" "weil" الألماني إذ نجد له مقالا في دائرة المعارف الإسلامية ســـنة 1960 تحـــت عنـــوان "العروض" والمقال من عشر صفحات سبع منها خصصت للمعلومـــات التاريخيـــة العامة عن العروض، والأخرى للحديث عن النبر، كما نجد "لفايـــل" "weil" كتابـــا خاصا عن العروض العربي طبع سنة 1958 وهو بالألمانية"[2]. تلك إشارة عابرة إلى ما بذله المستشرقون الألمان، وسوف نقف على مزيد من التفاصيل لذلكم المنتـــوج الزاخر عندما نتعرض لتراجم نخبة من المشاهير، والرواد في المدرسة الألمانيـــة .

وقبل ذلك نود أن نشير أن "ادوارد سعيد" ناقد الإستشراق الـــشهير الـــذي اســـتثنى الاستشراق الألماني من هذا البحث وقدم تبريرات لذلك في حوارات أجريت معه، لكن هذا الاستثناء شكل ميزة اعتبرها كثير مـــن النقـــاد والبـــاحثين صـــك بـــراءة للاستشراق الألماني من المثالب التي كشفها "ادوارد سعيد" حول الاستشراق الغربي عموما وقد اهتم النقاد بتجربة سعيد المعرفية والفكرية والثقافية حيث استثنى بوضوح الاستشراق الناطق بالألمانية من النقد، وذلك لارتباط أغلب الدراسات الاستـــشراقية المكتوبة بالألمانية بفقه اللغة، وتتأسس مقولة سعيد " بأنـــه لا ينبغـــي أن نـــصنف الاستشراق الناطق بالألمانية في نفس الدرجة التي يصنف بها الاستشراق البريطاني والفرنسي وذلك على فرضية أن مفهوم "الشرق" نتيجة لمشروع ثقـــافي بريطـــاني

[1] - يوسف أبو العدوس، الاستعارة في دراسات المستشرقين فلفهارت هانيريشس نموذجا، الأهلية للنشر والتوزيع، لبنان، ط1، 1998، ص 8 وما بعدها.

[2] - ملك ميمون، المستشرقون ودراسة العروض العربي، عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والعلوم، الكويت، المجلد العدد.

وفرنسي خاص مرتبط بالتورطات البريطانية والفرنسية في الشرق، وكان سعيد يرى أن البلدان الإسلامية في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كانت مستعمرة من قبل بريطانيا وفرنسا فقط وسيطرت عليها منذ نهاية الحرب العالمية الثانية المصالح السياسية للولايات الـ متحدة الأمريكية"[1]. وهذا الاستثناء للاستشراق الألماني في نقد سعيد قد أثار انتقادات بعض الدارسين، وبغض النظر عن ما وجه إليه من استدراك إلا أن كلامه يعزز ما وصف به الاستشراق الألماني من غلبة الأنصاف والعلمية على أبحاث ودراسات جمهور الألمان للتراث العربي . وفيما يلي نقف عند أبرز الشخصيات الألمانية التي شاعت بإنتاجها الواسع للعربية وعلومها، وآثارها التي لفتت الأنظار.

1. رايسكه. ج. ج "Johann Jakob. Reiske"

كانت حياة "رايسكه" ما بين 1716- 1774 وهو أول مستشرق ألماني جدير بالذكر، ولد في "تسوبج" وتعلم اللاتينية واليو نانية بدار الأيتام في "هاله"، والعربية دون معلم في "ليبزيج" كان ينفق ما يحصل عليه على اقتناء الكتب . " اتصل بيوهان كريستوف فولف " فأعطاه مخطوط مقامات الحريري فنشر إحداها، وذهب إلى "ليدن" فلقي المكتبة مقفلة لفصل الصيف، ولا مال عنده فاستخدمه الكتبي "لوزاك" مراجعا لمنشوراتها، ثم علم اللاتينية واليونانية وعاش عليهما، وتبحر في العربية على "سخولتنس"، وبفضله دخل مكتبة "ليدن" وفهرس مخطوطاتها، وقد وجهة الشعر العربي، فاستنسخ أشعار جرير، ولامية العرب للشنفرى، والحماسة للبحتري، والمعلقات إلا أن خلافا نشب بينه وبين "سخولتنس" في الأدب العربي عطله على نيل الدكتوراه، فدرس الطب وأحرز الدكتوراه فيه عام 1746 ولم يزاوله، ورجع إلى ليبزيج عام 1747 حيث عين مديرا لإحدى مدارسها الثانوية سنة 1748، وعلم بعض مريديه العربية وترجم وصنف حتى جعل المدينة مركزا هاما للدراسات العربية في أوربـا، فمنحه البلاط لقب أستاذ ورتب له راتبا إلا أنه توفي مسلولا

[1] - إدوارد سعيد، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط4، 1995، ص 52-53.

فأهدت امرأته مكتبته إلى "ليسنج" الشاعر الألماني الشهير، ثم اشتراها دانمركي، ووقفها على مكتبة كوبنهاجن."[1].

أما آثار "رايسكه" ودراساته فتعددت في مجالات شتى أغلبها كان إنتاجا أدبيا ترجم أعمالا كثيرة إلى الألمانية، وحقق ونشر، وكانت له تفسيرات وتعليقات وشروحات وحواشي ومقارنات " فتناول معلقة طرفة بين العبد بشرح ابن النحاس متنا وترجمة لاتينية بتفسير وحواشي ومقارنتها بديوان الهذليين، وحماستي البحتري وابن تمام وشعر المتنبي وأبي العلاء، فوضع بها الأساس العلمي للشعر العربي حتى اليوم.. ونشر رسالة هجو لأبي نواس بشرح الصفدي، والرسالة الجدية لابن زيدون بشرح الصفدي متنا وترجمة لاتينية، ولامية الطغرائي متنا وترجمة ألمانية، ومنتخبات من أشعار المتنبي متنا وترجمة، وسبعة أمثال للميداني وغيرها، وكتب مدخلا عاما إلى تاريخ الإسلام استنادا إلى حاجي خليفة في ثلاث مجلدات، وقد أطرى فيه تاريخ الإسلام ولام على إهماله، وأوصى بدراسته."[2].

وكلما درس العربية ازداد بها ولوعا، واستطاع إتقان النحو العربي، وحرم نفسه من الضروريات من أجل اقتناء الكتب العربية، "وأدرك أنه لن يشبع هذا الولوع إلا إذا اطلع على مخطوطات مكتبة ليدن الغنية، ورفض أي عرض من شأنه أن يصرفه عن العربية ودراستها، فلم يكن همه سواها، رغم قلة ما في اليد، حيث عاش ظروفا معيشة صعبة، ولم يشغل "رايسكه" نفسه بدراسة اللغات السامية الأخرى، رغم نصيحة بعض المستشرقين له لقناعته أنه لا فائدة من ذلك ترجى بالنسبة إلى دراسة العربية وكان يقول :" لو شاء المرء النهوض، فينبغي عليه ألا يتناولها تناول اللاهوتي" وعهد إليه ترتيب المخطوطات في مكتبة جامعة "ليدن" فتهيأت له فرصة ممتازة لتحقيق أمانيه في الإفادة من هذه المخطوطات، فقام ينسخ لنفسه المؤلفات التي

[1] - نجيب العقيقي، المستشرقون، دار المعارف، القاهرة، ط5، 2006، ج2، ص 354-355.
[2] - نفس المرجع، ج2، ص 355.

تهمه من تلك المخطوطات فنسخ "المعارف"لابن قتيبة، و تاريخ أبي الفدا " و"البلدان" لأبي الفدا، وتاريخ "حمزة الأصفهاني"، وغيرها."[1].

2. إيفالد هينرش Ewald Henrch

عاش "إيفالد" ما بين فترتي 1803-1875 بدأ دراساته الشرقية في ألمانيا ثم قصد "دي ساسي سلفستر" مع "فلايشير" فأخذا عنه وتخرجا بالعربية على يديه ويدين كثير من المستشرقين الألمان وغيرهم لدي ساسي الذي كان له الفضل في التعليم والتكوين لأعداد غفيرة من المغرمين بالشرق ." فلما رجع إيفالد وفلايشير إلى ألمانيا أسسا أسس العلمية فيها . فكان "إيفالد" أستاذا للغات الشرقية في "جوتنجين" فوجهها وجهة تاريخ العرب وأديانهم وآدابهم، فغدا من أعلام المستشرقين، وذهب له في اللاهوت البروتستانتي صيت بعيد، فتوافد الطلاب عليه من جميع الأقطار وترجمت آثاره إلى الإنجليزية وغيرها، إلا أن وقته لم يتسع للتصنيف الوافر ولاسيما بـ عدما وشى به بعضهم، فسجن ثم أطلق سراحه، وأكثر ما طبع له منها بعد وفاته ونشره "فللهوزن" تلميذه وخليفته في جوتنجن، وأهم أثاره :"العروض العربية "، وفتوح أرمينيا وبلاد ما بين النهرين للواقدي متنا وترجمة، وفهرس المخطوطات الشرقية، وكتب قواعد اللغة العربية بالألما نية في مجلدين، وجمع شعر على بن أبي طالب، وعدي بن زيد "[2]. " وقد كان كتابه دز"اسة نقدية لقواعد اللغة العربية " الذي صدر سنة 1831-1833 في مجلدين، محاولة جادة لوضع تفسير منطقي جديد لصيغ اللغة مكان نظام قواعد العربية الفصحى، وفي عمله حول "علم العروض العربي " سنة 1825، وفي الملحق الذي يحمل نفس الاسم، وبرهن فيه على طبيعتها النوعية، منتهكا بذلك حركة قواعد الفصحى وبموضوعية متشددة، وجنوح إلى الخيال غير مرة. فقد قدم "إيفالد" دفعا قويا للدراسات العربية. ولعل مما يضفي عليه أهمية خاصة أن المستشرقين: "نولدكه" و"فللهاوزن" عادة ما قدما نفسيهما بصفتهما تلميذين "لإيفالد" اهتماماته الأولى دراسة العهد القديم، ثم توجه إلى دراسة اللغات ..

[1] - عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، دار الملايين، بيروت، ط3، 1993، ص 298- 299.
[2] - نجيب العقيقي، المستشرقون، ج2، ص 365.

فقد كان يسعى إلى تفسير صيغ اللغة بمساعدة القوانين العامة عقلانيا عبر المنهج التركيبي التأملي، متسلحا بالمعرفة الغزيرة والذكاء الخارق، من خلال المقارنة لما يربط هذه اللغات من أواصر قربى."[1].

3. جولد تسيهر (اجنتس) Ignaz Gold Ziher

ليس في حياة "جولد تسيهر" الظاهرية شيء يستحق التسجيل. فهي حياة هادئة لم تخرج عن دائرة الحياة العلمية الخالصة، ولم تتعداها إلى الحياة العامة إلا بمقدار قليل، أما حياته الباطنة فكانت خصبة حافلة بالنشاط والحركة، نمت سريعا، واستمرت قوية وثابة سائرة نحو غايتها دون انقطاع . " كان ميلاده في 22 يونيو 1850 بمدينة "أشتولقيسنبرج" في بلاد المجر، وأسرته يهودية ذات مكانة عالية، وكان عامل الانتماء الوطني (المجر)، وعامل الانتماء العقدي (اليهودية) أثر كبير في تحديد خصائص جولد تسهير ونظرته إلى الحياة، ولم يشارك في الحياة السياسية العامة ولا الخارجية كما هو شأن جل المستشرقين.

أما دراسته فقد قضى السنين الأولى منها في "بودابست" ثم ذهب إلى "برلين" في 1869 فظل بها سنة ثم انتقل إلى جامعة "لبيتسك" وفيها درس على "فليشر" أحد كبار المستشرقين آنذاك، وعلى يده ظفر جولد تسيهر بالدكتوراه الأولى عام 1870، وكانت حول شارح يهودي للتوراة في العصور الوسطى وهو "تنخوم أورشلمي". ثم عاد إلى بودايست، فعين مدرسا مساعدا في جامعتها سنة 1872 ولم يستمر طويلا حتى أرسل إلى الخارج في بعثة دراسية فاشتغل سنة في "فيينا" وفي "ليدن"، وارتحل إلى الشرق في 1873 وأقام بالقاهرة، ثم سافر إلى سوريا وفلسطين، وأثناء إقامته بالقاهرة كان يختلف إلى بعض دروس الأزهر، ثم عين في بودابست واعتنى بالدراسات العربية والإسلامية خاصة فأصبحت بفضله تنمو وتزداد، فنال شهرة عظيمة، حتى صار أستاذ للغات السامية في 1894، ومنذ ذلك الحين لم يغادر وطنه

[1] - يوهان فك، تاريخ حركة الاستشراق، الدراسات العربية والإسلامية في أوربا حتى بداية القرن العشرين، ترجمة عمر لطفي العالم، دار المدار الإسلامي، ط2، 2001، ص 167.

إلا مدعوا لغرض علمي بحت ."[1]. لم يعرف جولد تسيهر بكثرة التنقلات، فقد لازم مكتبه وعمله أكثر من ربع قرن ظل خلالها يرسل البحوث والمؤلفات، ما مهد به السبيل أمام الباحثين في ا لوثائق، فنما جيل ضخم ممن أصبح اليوم من أئمة المستشرقين. كانت حياته حياة القراءة والتحصيل، لا التجربة والاتصال الخارجي، فلم يعن بأحوال الشرق المعاصر ولا الأحداث الحية التي تحدث فيه سواء السياسية أو الثقافية أو الدينية وغيرها وهو يختلف اختلافا بينا عن أغلب ا لمستشرقين إن في مادة بحثه أو في منهجه، فكثير منهم كان عمدته في البحث المشاهدة والمعاينة والاتصال الحي المباشر فإذا كان قد أعوزته التجربة الخارجية المباشرة، فقد كان يمتلك تجربة روحية إذا جاز هذا التعبير فقد أكب على النصوص والوثائق الشرقية يكتشف منها عالم الشرق بكل تفاصيله . إن كثيرا من الدارسين وقفوا طويلا عند الخصائص الذاتية والمنهجية والعلمية التي كان يمتاز بها جولد تسيهر عن غيره "فقد كان شديد الاحتياط في استخدام منهجه في الاستدلال، فكان يقبل على النصوص وفي ذهنه جهاز من المقولات والصور الإجمالية يحاول تطبيق ها عليها، من غير إرهاق أو ضغط، وكان يسوق الشواهد ليؤيد ما يذهب إليه . وكان يعتمد على البصيرة والوجدان، قوي البراعة فيما يتصل بالمقارنات، يكتشف الفروق الدقيقة، والجزئيات التي قد لا ينتبه إليها غيره . بدأ الكتابة منذ سن مبكرة جدا فنشرت بعض المجلات أعماله وكان في كل سنة يخرج بحثا أو طائفة من البحوث يصل الواحد منها أحيانا إلى حجم المجلد له عدد كبير من المقالات والتعليقات النقدية وغيرها . بلغت مجموعة أبحاثه كما بينها في فهرست مؤلفاته 592 بحثا."[2]. إلا أن معظم مؤلفاته وتراثه يختص بالدراسات الإسلامية لاسيما المذاهب الفقهية وأصولها التشريعية، والبحث في تفاصيلها معتمدا على منهج المقارنة بشكل لافت للنظر، كما كان اهتمامه بالفرق الإسلامية وتاريخها، ومناهجها واتجاهاتها العقدية والفكرية [3]. وما يهمنا من

[1] - عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص 197-198.

[2] - نفس المرجع، ص 199-200.

[3] - اهتم جولد تسيهر إضافة إلى كل هذا بالقرآن والتفسير والمفسرين ويشكل ذلك أحد الخطوط العريضة في تراثه الضخم، إضافة إلى اهتمامه بالصوفية والتصوف.

هذا كله هو إسهاماته في الدراسات الأدبيـــة واللغويـــة وإن كانـــت قليلـــة مقارنـــة بالدراسات الإسلامية " فكتب عن آداب الجدل عند الشيعة بالألمانية، وبحث فلـــسفي في فقه اللغة العربية بالألمانية في مجلدين عام 1896. ونشر ديوان الحطيئة بشرح السكري متنا وترجمة مع الكثير من التعليقات، وله في دواوين العـــرب مقـــالات، والخطب عند العرب، والكتابة في الجاهل ية، وأمثال العرب..."[1]. كانت وفاته في 13 نوفمبر 1921 بالمدينة التي قضى فيها الشطر الأعظم مـــن حياتـــه وهـــي مدينـــة "بودابست".

4. نولدكه نثودور Theodor Noldek

ولد في "هامبورج" التي أطلق اسمه على أحد شوارعها سنة 1836 من أسرة عريقة قاتل قدماؤها الرومان، وشغل أفرادها مناصب علمية وإدارية كبيرة، تعلـــم اللغات السامية والفارسية والتركية والسنسكريتية على يد "إيفالد" في جوتنجين عـــام 1953 ونال الدكتوراه سنة 1856، واستكمل دراسته في ليبزيج، وفيينـــا، وليـــدن وبرلين، ونال جائزة مجمع الكتابات والآداب في بـــاريس علـــى رســـالته " أصـــل وتركيب سور القرآن" (1856- 1860) وزار إيطاليا عام 1860 وعين أستاذا للغات السامية والتاريخ الإسلامي في جوتنجين سنة 1861، ثم خلف "ديلمان" فأستاذا فـــي ستراسبورج للغات الشرقية ما بين (1872-1920) فجعلهـــا مركـــزا للدراســـات الشرقية في ألمانيا . وتوفي سنة 1930، ومن تلاميذه "بروكلمان" و"زاخاو" و"ياكوب" وغيرهم، وقد عرف بتضلعه في العربية واللغات السامية، يتقن لغات شتى : اليونانية والفرنسية والانجليزية والإســـبانية والإيطاليـــة والإيرانيـــة والتركيـــة والحبـــشية والأرامية."[2]. اشتهر نولدكه بمتانة الخلق وسعة المعرفة ووضاحة التفكير، والتزم في مصنفاته أسلوبا علميا حديثا صارما لا يقبل فيه إلا ما يقوم على المنطق، طبع بـــه الدراسات الشرقية طول السبعين سنة الأخيرة، وخلف تراثا متنوعا ما يـــزال فـــي "ستراسبورج" " وأشهرها ديوان عروة بن الورد متنا وترجمة إلى الألمانية بشروح،

[1] - يحيى مراد، معجم العلماء المستشرقين، ص 285- 286.
[2] - نجيب العقيقي، المستشرقون، ج2، ص 379- 380.

وكتاب في سبيل فهم الشعر الجاهلي " و"قواعد العربية الفصحى "، و" المعلقات الخمس ترجمة وشرحا "، و"معجم اللسان العربي الفصيح " وعدد من الدووين، ودراسات أخرى إسلامية وتاريخية."[1].

"وفي يناير 1861 عين معيدا في جامعة "جويتنجن" الشهيرة فكلفه "إيفالد" بإلقاء دروس في تفسير العهد القديم، ودروس في النحو العربي، لكن في نفس الوقت أقبل على دراسة الشعر العربي القديم، مستعينا بما نسخه من مخطوطات خلال رحلاته المتكررة كانت حصيلة ذلك عدة مقالات وأبحاث جمعت في كتابه، " أبحاث لمعرفة شعر العرب القدماء "، وقد مكنته رحلته إلى "ليدن" من الإطلاع على المخطوطات العربية الوفيرة، وعقد صداقات حميمة مع كبار المستشرقين، وعكف على قراءة المخطوطات العربية الثمينة."[2].

5. برجشتراسر Golthelf Borgstrasser

عاش برجشتراسر في الفترة ما بين 5 أفريل 1886 و 16 أغسطس 1933 مسيحي برز في نحو العبرية واللغات السامية عموما، وعني بدراسة اللهجات العربية، وبالقراءات القرآنية . " تعلم في جامعة "ليبتسك" الفلسفة وعلم اللغة، والفيلولوجيا الكلاسيكية (اليونانية واللاتينية) . ثم تفرغ لدراسة اللغات السامية، وكان أستاذه الكبير فيها "فيشر أوجست" وبعد تخرجه عين أستاذا ثانويا، ثم حصل على الدكتوراه في 1912 في رسالة عنوانها "حنين بن إسحاق ومدرسته" اهتم فيها بدراسة أسلوب "حنين" ــ شيخ المترجمين ــ في الترجمة من اليونانية إلى العربية والسريانية، وفي فبراير 1914 رحل إلى إستنبول، وسوريا، ومصر، وفي نهاية 1915 عي أستاذا في جامع ة "استنبول" وكلفته وزارة الحربية الألمانية برحلة استكشافية لسوريا وفلسطين سنة 1917، وبعد الحرب الأولى عين أستاذا في جامعة برلين في 1919"[3].

---

[1] - المرجع السابق، ص 380-381.
[2] - عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص 595-596.
[3] - نفس المرجع، ص 85.

" وفي العام الجامعي 1930/1929 و1932/1931 دعته كلية الآداب بالجامعة المصرية القديمة لإلقاء محاضرات في النحو وتاريخه، و في فن تحقيق النصوص فنشرت محاضراته في كتاب التطور النحوي للغة العربية " وكتاب "نقد النصوص ونشر الكتب " ."[1] استغل وجوده بالقاهرة لتسجيل بعض الإسطوانات لمختلف القراءات القرآنية لعدد من مشاهير القراء في مصر، واطلع على المخطوطات في علم القراءات، كما عني باللغة ا لعامية المصرية وسجل اسطوانات مع الأطفال في القاهرة . " نال دكتوراه في جامعة "ليبزج" عام 1911 عن "استعمال حروف النفي في القرآن الكريم " . وكان برجشتراسر يكره "هتلر" ودعوته إلى النازية، وكان لا يرى مانعا من حمل بند قبته والخروج لمحاربته فدفع إليه "هتلر" بمن يقتله، وكان برجشتراسر مغرما بتسلق الجبال، ففي إحدى المرات، حيث كان يتسلق الجبال، ومعه طالب من طلبته، إذ تعلق الطالب بقدمه فهوى من ارتفاع شاهق إلى قاع الوادي، حيث لقي حتفه في جبال الألب بنواحي "برشسجادن" جنوبي ألمانيا."[2].

أما آثاره فقد تنوعت في نشاط علمي واسع ما بين اللغات السامية، وتاريخ العلوم عند العرب، وقراءات القرآن " فكتب معجم قراء القرآن وتراجمهم، واللهجات العربية العامية في سوريا وفلسطين، وله دراسات حول كتاب : اللامات لأحمد بن فارس، وقراءة الحسن البصري، وقراءة القرآن في القاهرة، والقراءات الشاذة في كتاب "المحتسب" لابن جني، وفي مجال النشر تولى نشر أمهات الكتب العربية فنشر لأبن خالويه: القراءات الشاذة في القرآن "، و"طبقات القراء" لابن الجزري، وتهذيب اللغة للأزهري، ومن مباحثه : قواعد العربية لأحمد بن فارس، وله في ميدان القراءات القرآنية عمل مميز لما تهيأ له من معرفة واسعة بالكتب العربية المؤلفة في

[1] - التطور النحوي للغة العربية، أخرجه وصححه وعلق عليه رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1997، ص 3-4.
[2] - رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة، ص 158.

هذا المجال والتي جمع لها مادة ضخمة مثل "الميكروفلمات" من خـزائن إسـتنبول والقاهرة."[1].

وله في الدراسات الفقهية عمل رائد، ثاقب نذكر على سبيل المثال : "أوليـات وخصائص الفكر الفقهي في الإسلام " و"مناهج البحث في الفقه". وكان يدعو إلى عدم المبالغة في دعوى القانون المقارن والبحث عن المـؤثرات الأجنبيـة فـي الفقـه الإسلامي، ومن أعماله اللغوية البارزة والتي تناولها بعض اللغويين "الأطلس اللغوي الذي عمله لبلاد سوريا وفلسطين، فقد قام بعمل تسجيلاته كلها بنفسه عام 1914 بعد أن حصل على إجازة من جامعة "ليبزج" ليقضي شهورا في بلاد الشرق فتنقل بـين أرجاء المعمورة باحثا وراء اختلاف اللهجات الدارجة فزار دمشق وحلب والجنوب ثم فلسطين ولبنان وكانت حصيلة هذه التسجيلات أن وضع أطلسا لغويـا فـي 42 خريطة تفصيلية، وواحدة إجمالية مع شرح لغوي مستقل طبع سنة 1915. وكـان يرى أن بحث اللهجات العربية قبله كان مقصورا على دراسة كل لهجة محلية دراسة مستقلة، وبين أن هذه الدراسات السابقة تفتقر إلى التكملة بدراسة الفروق اللغوية، في مناطق كبيرة، باستخدام الجغرافيا اللغوية، وعلى الرغم من تقدم هذا الفرع من فروع الدراسة اللغوية في أوربا وأمريكا، فإنه لا يزال غض الاهاب في بلادنا وليس لدينا لغتنا العربية، إلا محاولة هذا المستشرق الألماني "برجشتراسر" ولا يخفى ما لهـذه الأنواع من الدراسة من الفوائد الجليلة على الدرس اللغوي."[2].

6. فيشير أوجيست Fischer August

" ولد فيشير سنة 1865 وكانت و فاته في 14 فبراير 1949، اختص باللغة العربية نحوا وصرفا، ومعجما مواصلا الدرب الذي رسمه أستاذه اللغـوي الكبيـر "هينرش فليشر" مؤسس مدرسة في الاستشراق الألماني، وعلى منهجه سار، ويقـوم هذا المنهج على الاستناد الوثيق إلى الشواهد اللغوية العربية في المقام الأول، وإلـ ى

[1] - نجيب العقيقي، المستشرقون، ج2، ص 450- 451، وينظر أيضا عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص 86-87.

[2] - رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة، ص 157-158.

أعمال اللغويين والنحاة العرب، والابتعاد عن الفروض التي قد تكون بارعة ولكنها واهية الأساس. حصل على الدكتوراه الأولى نهاية 1889 من جامعة "هاله" عنوانها تراجم حياة الرواة الذين اعتمد عليهم ابن إسحاق " ونشرها عام 1890، واعتمد على كتب الرجال والتراجم خاصة "ميزان الاعتدال" للذهبي . كان يتمتع بقدرة فائقة في اللغة، وعلى فهم العربية ونصوصها الشعرية الجاهلية ..عمل في معهد اللغات الشرقية في "برلين" من خريف 1896 إلى ربيع 1900 مدرسا للغة العربية وأمينا للمعهد ومحافظا لمكتبتهوفي هذه الفترة أتقن لغة التخاطب العربية، خاصة للهجة المغربية المراكشية، بفضل مدرس للهجة المغربية يدعى "الجيلاني الشرقاوي " وكانت ثمرة ذلك عدة مقالات عن هذه اللهجة، بدأها بواحدة جمع فيها أمثالا مغربية عنوانها "أمثال مراكشية"توالت المقالات في هذا السياق ."[1].كان "فيشير" شديد الاهتمام باللهجات العربية الحية لاعتقاده أنه يلج منها إلى استخلاص نظرات ثاقبة في سر العربية وكذلك فهم اللغات السامية بوجه عام . ويبدو أنه سيطر عليه هذا الشغف باللغة العربية اتصاله بالعالم العربي ورحلته إلى المغرب زار أغلب مدنها الكبرى. " وفي عام 1899 نقل كرسي اللغات الشرقية في جامعة "لبيتسك" وهو الكرسي الذي شغله أساتذة "فليشر" من قبل بدأ عمله فيه عام 1900 وكان مركزا قويا للدراسات الشرقية، وخصوصاً العربية في ألمانيا، فأمها دارسوا العربية وعلومها من سائر الأنحاء، ويذكر تلاميذه أنه كان نموذجا في دروسه ومحاضراته من حيث التدقيق في فهم خفايا النصوص العربية التي كان يشرحها، واستمر في منصبه حتى 1939. وبعد تقاعده استمر في التدريس في بيته، ورغم أنه كان في الرابعة والثمانين من العمر كان يشرح لبعض تلاميذه "ديوان امرئ القيس ". وكان حريصا على التأكيد لطلابه على أهمية اللغة العربية ومعرفة دقيقة شاملة للنحو والمعجم والاستعمال اللغوي، وذلك قبل التصدي لأي بحث في ميدان الدراسات العربية والإسلامية، ويندر من يمتلك هذه الرؤية عند المستشرقين الآخرين."[2].

[1] - عبد الرحمن بدوي ، موسوعة المستشرقين، ص 303-304.
[2] - نفس المرجع ، ص 404.

ويبدو أنه كان يرى أن دراسة النحو هي لب الدراسات العربية برمتها فقد أخذت المسائل النحوية مكانا واسعا في أبحاثه ومقالاته، كما عني بدراسة تاريخ اللغة العربية منذ أقدم نصوصها حتى لهجاتها الحالية، وكان ميالا إلى تحليل لغة الشعر لأنه وجد فيها أرسخ الشواهد لمعرفة العربية. ومن هنا اهتم بجمع كل الشواهد الشعرية الواردة في كتب النحو وشروح الشواهد. " وفي هذا الميدان صنف "فهرست الشواهد" هو ثبت شامل للشواهد بحسب القوافي والشعراء . وكان "فيشير" يكره الاتجاه الذي ساد عند المستشرقين الباحثين في القرآن وهو إبراز تأثير الاتصال مع اليهود والنصارى باعتبار أن النبي صلى الله عليه وسلم نشأ في بيئة عربية وثنية، بعيدة كل البعد عن أي بيئة أخرى. أما عن العربية الفصحى والإعراب فكان يرى أن الفصحى لم تنشأ عن لهجة قريش من الشعر الجاهلي ، وأنها لم تكن لغة للعرب القدماء بوجه عام بل لابد أن تكون قد قامت على لهجة واحدة من لهجاتهم . وفيما يتصل بالإعراب يرى "فيشير" أن سكان مكة والمدينة وأجزاء من المناطق المحيطة كانوا قد تخلوا عنه في زمن النبي وقبله، ويرى أن ثمة أربعة أصناف مميزة للغة العربية وهي 1. لغة الشعر الجاهلي 2. لغة القرآن. 3. لغة النثر الواردة في "السير والمغازي". 4.لغة الحديث النبوي ."[1]. إذا كانت هذه الأربعة بمثابة المصادر الأولى للعربية الفصحى فإن القرآن والحديث النبوي ينبغي أن يتصدرا هذه التي سماها الأصناف، على خلاف في مصدرية الحديث والاحتجاج به في اللغة وتلك قضية نالت حظا واسعا من المدارسة والبحث.

" وخير ما خلف "فيشير" هو معجم اللغة العربية القديمة مرتبا على المصادر، وقد قضى أربعين سنة في جمعه وتنسيقه، وقدم جذاذاته إلى المجمع اللغوي بمصر، وكان الدافع في التأليف هو الشعور بنقص المعاجم العربية وافتقارها إلى الشواهد في كل حالة. فجاء معجمه يستند في كل معنى ينطوي عليه اللفظ إلى شواهد خصوصا الشعر الجاهلي والأموي على وجه التحديد، وأعلن عن مشروعه الأول عام 1907

[1] - المرجع السابق، ص 405.

أثناء انعقاد مؤتمر الفيلولوجيين الألمان في "بازل" 1907، ثم في المؤتمر الدولي المنعقد للمستشرقين في "كوبنهاجن" 1908. وجمع في معجمه العربية القديمة لغة الشعر من بدايته إلى العصر الأموي، ولغة القرآن ولغة الحديث، ولغة المؤرخين، واستغل المواد المعجمية التي خلفها "فليشير" و"توربيكه" و"جولدسيهر" وغيرهم، وبدأ فيشر عمله سنة 1913 مستخرجا مواده من المعلقات والمفضليات والأصمعيات والحماسة والهاشميات، وشعر المراثي .. وفي الحديث اعتمد على البخاري، وأجزاء من تاريخ الطبري . فبلغ عدد الجذاذات في 1918إثناء عشر ألف جذاذة وكان بمساعدة بعض الألمان والمصريين ."[1]. ولما أنشئ مجمع اللغة العربية في مصر في 1932 عين فيشر عضوا فيه فاستأنف العمل بحماسة فصار يتردد على القاهرة في شتاء كل عام حتى 1939، ولما قامت الحرب لم يستطيع العودة إلى مصر بعد أن ألغيت عضويته في المجمع، ولكن مصير المواد التي جمعها وضعت لدى أمانة المجمع فضاعت ولم يبق منها إلا النزر القليل، حاولت بعض الجامعات الألمانية الحصول عليها لاستكمال الجهد ولكنها فشلت " والملاحظ على إنتاج فيشر الاقتضاب وعدم التوسع في بعض أبواب النحو واللغة، فكانت غالبية أبحاثة تعليقات صغيرة، وتصحيحات لغوية مفيدة نذكر منها : "المسألة الزنبورية" وأسماء الإشارة للمؤنث هذّه، ذه ، ته، هذه، ذه، وهذهي، ذهي، تهي " و" تركيب المصدر : ضرب عمرو زيد" و" الكلمة العربية أيش"."[2]

7. بروكلمان كارل Carl Brockelman

عاش بروكلمان ما بين 18 سبتمبر 1868 و6 ماي 1956 ولد في مدينة "روستوك" " كان أبوه تاجرا فيما يسمى بسلع المستعمرات، وكانت أمه كما يقول عنها كارل في ترجمته الذاتية سيدة موهوبة روحيا، ومنها ورثت ميولي العلمية، وهي التي فتحت لابنها آفاق الأدب الألماني ولكن من سوء الأحوال المالية عاشت الأسرة في ضيق شديد، و في المدرسة الثانوية في "روستوك" بدأ يظهر ميوله إلى

[1] - نجيب العقيقي، المستشرقون، ج2، ص 415-416.
[2] - عبد الرحمن بدوي، موسوعة المستشرقين، ص 406.

الدراسات الشرقية يقول "بروكلمان" :" وفي الصفوف العليا تجلت الميول التي ستسيطر على حياتي، بكل وضوح، وكانت هناك جمعية للقراءة تجتمع مرتين في الأسبوع لقراءة أبرز المجلات الجغرافية، وكان الوقت وقت الاكتشافات ا لجغرافية العظيمة في آسيا وإفريقيا، وعلى الطريق ارتبط خيالي بالمشرق، وكنت أهتم في المقام الأول بما يرد فيها من أخبار عن اللغات، ولهذا فإنني وأنا لا أزال تلميذا في المدرسة الثانوية وضعت مشروعا لكتاب نحو لهجة "البانتو" التي كان يتكلم بها في المستعمرة البرتغالية "أنجولا" وكان أشد أماني إلحاحا علي أن أعيش فيما وراء البحار."[1]. درس بروكلمان على كثيرين العربية والحبشية، ففي أول أكتوبر 1890 عين مدرسا في المدرسة البروتستنتي ة في "اشتراسبورج" أولا تحت التمرين ثم مساعدا وفي نفس الوقت واصل دراساته العربية . "وما لبث أن ت بين له أنه لا مستقبل له في هذه الثانوية البروتستنتي ة قرر أن يبحر لوظيفة مدرس مساعد فيعد نفسه للانخراط في التدريس الجامعي فانتقل إلى "برسلاو" وحصل على الدكتوراه للتأهيل للتدريس في يناير 1893 برسالة عنوانها "عبد الرحمن أبو الفرج بن الجوزي"تلقيح فهوم أهل الآ ثار في مختصر السير والأخبار، أصدر معجما سريانيا في فبراير 1895 ودعي إلى إعداد نشرة نقدية محققة لطبقات ابن سعد، والسفر إلى لندن واستنبول فلم يكتف بمهمته حول الطبقات بل انتهز الفرصة فنسخ نسخة من "عيون الأخبار" لابن قتيبة، وعاد إلى "برسلاو"وكان بروكلمان مكلف ا بتحقيق الجزء الثامن من طبقات ابن سعد وتولى نشر عيون الأخبار بنفسه، ووجد في "قيمار" ناشرا مستعدا لتحمل النفقات بشرط أن يقدم له بروكلمان كتابا آخر أكثر رواجا فقرر أن يصنف كتابه العظيم "تاريخ الأدب العربي " امتد طبعه من 1898 إلى 1900 وكان بروكلمان يتقن إحدىعشر لغة شرقية ."[2]. رحل "كارل" عن عمر يناهز التسع والتسعين عاما وترك بعده تراثاً واسعا أبهر الكثيرين، وشكل مادة دسمة لأبحاثهم وطروحاتهم، وخدم هذا المستشرق الفذ التراث العربي، خدمة لا نظير لها بشهادة

[1] - نفس المرجع، ص 98.
[2] - المرجع السابق، ص 100-105.

الدارسين للظاهرة الاستشراقية فعرف "بكثرة نشاطه وغزارة إنتاجه الذي اتصف بالموضوعية والعمق، والشمول والجدة، مما جعله مرجعا للمصنفين في التاريخ الإسلامي، والأدب العربي، إذ قل منهم من لم يستند إليه قنوع إنتاجه ما بين نشر وترجمة، وتعليقات وشروحات وتحقيقات وتأليفات، فكتب : الكلمات اليونانية الدخيلة على الأرمينية. والمعجم السرياني، ورسالة في لحن العامة للكسائي مذيلة بتعليقات وفوائد، وعن كتابه في الأدب العربي النفيس عرض فيه تراجم العلماء والأدباء في العصور الإسلامية جمعاء، وذيل كل ترجمة بمصادرها، ووصف الكتب وميزاتها وتاريخ طبعها، ومكانها في الشرق والغرب، وأحصى المخطوطات في مكتبات أوربا، فجاء نموذجا في ترتيبه وسعته ودقته وحسن إخراجه، نقل منه عبد الحليم النجار ثلاثة أجزاء إلى العربية، ونشرته الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية .

وكتب عن قواعد علم النبر والعروض في اللغة السريانية، ومؤلفات ابن المقفع في البيان والبلاغة، وملاحظا ت على علمي النحو والصرف في العربية والأرامية وكتاب المفصل في علم النحو والصرف المقارن للغات السامية، والصيغ المتشابهة في اللغات السامية، والجوهري وترتيب الهجائية العربية، وأسماء التصغير والتكبير في اللغات السامية . وملاحظات على سر الصناعة لابن جني وما قاله في اسم الإشارة المؤنث، واشتقاقات مصرية قديمة ومناسبتها للغات السامية، واشترك مع "شبولير" و"هوفنير"، و"فوك" في تصنيف كتاب العربية فقها وأدبا كما أسهم كارل بدراسات واسعة جدا في دائرة المعارف الإسلامية[1]" [2] .

8. دايم فرنر Deum werner

" ولد في باهيل في ألمانيا بتاريخ 25 جانفي 1944، ودرس فقه اللغات السامية في جامعة "ميونخ" ما بين 1963 و1968، وحصل على الدكتوراه سنة 1978 وعين في المعهد الشرقي بميونخ عدة سنوات وفي المعهد الشرقي لاتحاد

[1] - لا يسعنا المجال لذكرها لكثرتها وتنوعها ما بين شخصيات أدبية، ولغوية، وتاريخية، وإسلامية، وعلمية وغيرها..

[2] - نجيب العقيقي، المستشرقون، ج2، ص 424 وما بعدها .

المستشرقين الألمان في بيروت، للإسهام في الدراسات الخاصة بفقه اللغة واللهجات في جمهورية اليمن في الفترة 1970 و1971 وعين أستاذا مساعدا في المعهد الشرقي بجامعة "ميونيخ" ما بين 1971 و1976، ثم استدعي لتولي كرسي فقه اللغات الشرقية في جامعة "كولن"، وعين مديرا للدراسات الشرقية منذ 1976، ويعنى باللغة العربية القديمة واللهجات قديمها وحديثها وضبط الإملاء فيها ومقارنة العربية فيها بالآرامية ولاسيما السريانية والأرمينية الحديثة والأثيوبية القديمة، وكان يعنى بأدب العربية الفصحى منذ الجاهلية وحتى العصر الحديث ."[1]. وكانت إسهاماته لغوية في أغلبها حيث كان من آثاره " كتاب الجيم لأبي عمرو الشيباني، ولهجة اليمن في ثلاثة أجزء..ومن دراساته :"فعل في اللغة العربية" و"ضمير المفرد المؤنث في اللهجات السورية – اللبنانية – الفلسطينية" و" باب القاف من كتاب الجيم لأبي عمرو الشيباني" و"المصطلحات العربية الإسلامية " و"الموصوف والصفة في قواعد اللغة العربية" و" الإملاء العربي" و" الاسم والفعل في اللغات السامية" ."[2].

وكان الاقتصار على هذه النخبة من المستشرقين الألمان عينة تنبئ عن مدى الشغف الذي سيطر على نفوس الباحثين في الشرق ولغته من كبار المدرسة الألمانية. ولا يعني ذلك أن ما ذكر من هذه الأسماء اللامعة، أنه لا يوجد غيرهم من الذين كرسوا أعمارهم في البحث عن اللغة وأسرارها، وعلومها، وفقهها إلى غير ذلك. " فلقد اعتنى المستشرقون الألمان بالعربية منذ فترة مبكرة، فقد نشر الألماني "فلهلم بوستل" "wilhelm postel" سنة 1538م مصنفه الأول في "قواعد العربية" "Grammatica Arabica" ولكنه كان باللاتينية كما هي الحال السائدة في أوربا آنذاك. وقد زاد نشاطهم واهتمامهم بالعربية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهي فترة طويلة نسبيا، صنفوا خلالها كثيرا من البحوث العلمية والكتب التعليمية، وتأثرهم واضح بالدرس اللغوي عند العرب، خاصة الجيل الأول منهم مثلا: "فلايشر" "Fleischer"، و"كاسبراي" "Caspori"، و"ركندورف"

[1] - يحيى مراد، معجم أسماء المستشرقين، ص 329.
[2] - نجيب العقيقي، المستشرقون، ج2، ص 484.

"Reckendorf"، ثم أخذ يقل تدريجيا إلى أن أصبح بدرجة أقل عند "سوتزين" "Socin" و"بروكلمان" "Brochelman" وقد اهتم المستشرقون في الماضي بالفصحى التراثية التي أسموها العربية الكلاسيكية، ثم اهتموا بالعربية المعاصرة التي أسموها بالعربية المعاصرة المكتوبة، والعاميات المعاصرة ."[1]. وقد تناول بعض الدارسين جهود الألمان اللغوية، وأولوها عناية خاصة ذلك لما تمتلكه هذه المدرسة من تراث واسع حول اللغة العربية على وجه التحديد[2].

والمدرسة الألمانية الاستشراقية كغيرها من المدارس الأخرى قد جعلت العرب والمسلمين وتراثهم وحضارتهم موضوعا للدراسة سخروا ما بوسعهم من جهد مادي ومعنوي للتحقيق ما يهدفون إليه من وراء اهتمامهم المتميز بالشرق ولكن لكل مدرسة استشراقية خصائصها وخطتها وخلفيتها الفكرية والمذهبية تتجلى أثناء البحث والدراسة لشؤون الشرق عموما والشرق العربي والإسلامي على وجه الخصوص ولكن " يتميز الاستشراق الألماني بميزة خاصة حيث لم يرتبط إلا في القليل النادر بالاستعمار الذي سيطر على عالمنا الإسلامي ردحا من الزمن، ومن هنا حظي بسمعة طيبة، وذلك فضلا عن تميزه في كثير من الأحيان بالموضوعية. ونذكر في هذا المقام كتابات العديد من المستشرقين الألمان بدءا من "رايسكه" وانتهاء "زغريد هونكه" و"آناماري شميل"في العصر الحاضر . وهناك بطبيعة الحال أمثلة أخرى كثيرة تتسم بتلوينات سلبية سواء كان ذلك عن قصد أو سوء فهم للنصوص، أو خطا في الاستنتاج أو غيرها."[3].

لقد تناول بعض الباحثين في الشؤون الاستشراقية الاستشراق الألماني بالدراسة الوافية، وقد سبقت الإشارة إلى أولائك المهتمين بهذه المدرسة وما ألفوه

---

[1] - اسماعيل أحمد عمايرة، بحوث في الاستشراق واللغة، دار وائل للنشر والتوزيع، عمان، ط2، 2003، ص 321- 322.

[2] - أنظر على سبيل المثال مقالات وبحوث لاسماعيل أحمد عمايرة في كتابه "بحوث في الاستشراق واللغة" المقال بعنوان "الفصحى في الدرس اللغوي وكتب تعليم العربية عند المستشرقين الألمان"ص 319، ومقال آخر بعنوان: "المراحل الزمنية للغة العربية الفصحى" بقلم المستشرق: "فولف ديتريش فيشير" ص 485 ومقال بعنوان: "الجمل المصدرة ب أن و "أن" لنفس المستشرق، ص 493، قام عمايرة بترجمتها عن الألمانية.

[3] - أحمد محمد هويدي، الاستنشراق الألماني تاريخه وواقعه وتوجيهاته المستقبلية، مطابع دار التعاون للطبع والنشر، القاهرة، 2000، ص 3.

حول روادها وأبرز سماتها الفكرية، وأصولها المنهجية وأهم توجهاتها في دراسة التراث العربي والإسلامي، والمراحلالتاريخية التي مرت بها . " فأهم السمات التي اتسم بها الاستشراق الألماني ما يلي :

1. تعدد مجالاته سواء أكان ذلك في موضوعات الاستشراق التقليدي أم في الموضوعات المعاصرة.
2. أن علم الشرق المرتبط بالعصر الحاضر، يقصد منه دراسة الشرق على مستوى العلوم الإنسانية والعلوم التطبيقية.
3. عدم اختفاء الهدف التنصيري في أعمال عدد من المستشرقين الألمان حيث ساهموا في رحلات البحث إلى فلسطين على اعتبار أنها أرض الكتاب المقدس، كما تم إنشاء المعهد الانجليزي في فلسطين.
4. كان الهدف الاستعماري من بين الأسباب التي أدت إلى الاهتمام بالدراسات المعاصرة في العالم الإسلامي، ويظهر ذلك في أعمال كارل هينرش بيكر "، والذي أسس معهد المستعمرات في هامبورج.
5. تميز الاستشراق الألماني بوجود التخصصات البينية للمساهمة الشاملة في دراسة الشرق حيث تتعاون تخصصات غير استشراقية مع تخصصات استشراقية في إصدار أعمال شاملة عن الشرق.
6. وجود معاهد بحث خاصة بالأبحاث المرتبطة بالشرق، وغير تابعة للجامعات مثل معهد "ماكس بلانك".
7. رغم التطورات العديدة التي طرأت على الاستشراق الألماني، وميل غالبية الباحثين إلى الدراسات المعاصرة، إلا أن الاستشراق التقليدي لا يزال الأساس الذي يعتمد عليه الاستشراق المرتبط بالعصر الحاضر."[1].

وكان اهتمام المدرسة الاستشراقية الألمانية كغيرها من المدارس الأخرى ببعض القضايا التي لا تخلو من أهداف وأغراض، ولكن قد تكون بدرجات متفاوتة

[1] - المرجع السابق، ص 19.

بين المدارس الاستشراقية كقضية التصوف والمتصوفة لاسيما ما يعدونه من قبل الاضطهاد ومصادرة للحريات لفئة من أهل التصوف الذين كانت لهم آراء شاذة كالحلاج، وابن عربي وغيرهما.

وقضية اللهجات، واللغات الدارجة والتي قدم فيها المستشرقون عموما دراسات مستفيضة، ومسألة الفرق الإسلامية وطروحاتها الفكرية والعقدية خاصة تلك التي عانت عبر التاريخ كالمعتزلة وا لشيعة وغيرها من المسائل التي جذبت انتباه المستشرقين وقدموا فيها رسائل أكاديمية ونالوا بها رتبا علمية مرموقة . وعن الأصول المنهجية المدرسة الألمانية فقد عدها الدارسون فرنسية الينابيع والأصول " ففي مطلع القرن التاسع عشر وبفضل العلامة "دي ساسي" أستاذ العربية والفارسية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس الذي جدد الدراسات العربية، ولاسيما علمي النحو والصرف في أوربا جمعاء، فقصده الألمان وغيرهم، وتتلمذوا عليه وتأثروا به ومن أشهرهم "فلايشير" و"إيفالد" فعدا مؤسسي الدراسات العربية في ألمانيا وتخرجا عليهما كبار المستشرقين."[1].

ويرى الباحثون في الاستشراق الألماني أنه مر بتطورات متعددة خلال تاريخه " فمع انتهاء الحرب العالمية الأولى يلاحظ اتجاه علماء الدراسات الإسلامية بقوة نحو الموضوعات التاريخية والتركيز على العمل الفيلولوجي، فقد كان من الطبيعي أن يؤدي انتقال السلطة إلى النا زيين، إلى إبعاد عدد من المستشرقين الألمان المشهورين إلى الخارج بعد 1933 لأسباب سياسية وعنصرية، وقد كان النازيون يميلون إلى التقليل من الدراسات الشرقية، وذلك بإدعاء أن الدعم للاستشراق لمدة عقود طويلة أدى إلى تحويل النظر عن دراسة الثقافة الألمانية المميزة ..وقد أدى هذا إلى أن تحتل علوم الإسلام مكانة ضئيلة في خريطة البحث الألماني مثلها مثل علوم الاستشراق بصفة عامة."[2].

[1] - نجيب العقيقي، المستشرقون، ج2، ص 341.
[2] - أحمد محمود هويدى، الاستشراق الألماني، ص 163.

ويعد صلاح الدين المنجد من المتخصصين في الاستشراق الألماني كما ذكرنا قبل، حيث أثرت عنه دراسات واسعة، أحاطت بشؤون هذه المدرسة المتميزة في نظره. فكتب تحت عنوان: "لمحات من عظمة الاستشراق الألماني" " والمتتبع لحركة هذا الاستشراق يلاحظ أنه اختص بمزايا واضحة، وهي في رأيي:

1. لم يخضع لغايات سياسية أو استعمارية أو دينية، كالاستشراق في بلدان أوروبية أخرى فألمانيا لم يتح لها أن تستعمر البلاد العربية أو الإسلامية، ولم تهتم بنشر الدين المسيحي في الشرق لذلك لم تؤثر هذه الأهداف في دراسات المستشرقين الألمان، وظلت محافظة على الأغلب على التجرد والروح العلمية . وإذا ظهر في بعض الدراسات الاستشراقية الألمانية بعض الانحراف في الرأي، أو الخطأ، فهذا أمر لا يمكن تعميمه في الدراسات كلها .

2. لم تكن دراسات المستشرقين الألمان عن العرب والإسلام والحضارة الإسلامية العربية متصفة على الأغلب بروح عدائية . نعم لقد وجد بعض المستشرقين الذين أتوا بآراء لا توافق العرب والمسلمين، أو بآراء خاطئة تماما كبعض آراء "نولدكه" عن الشعر الجاهلي والقرآن الكريم، أو آراء "فوللرز" "Vullers" عن القرآن وتهذيبه، لكن هذه الآراء معدودة، فالاستشراق الألماني لم يعرف مستشرقين جعلوا ديدنهم عداء العرب والإسلام، وتعمدوا الدس والتشويه في دراساتهم، بل العكس وافقت هذه الدراسات روح إعجاب وتقدير وحب وإنصاف فعلى سبيل المثال نجد "رايسكه" سمى نفسه "شهيد الأدب العربي" . حتى إن بعضهم أسلم حبا للعربية والإسلام مثل: "ريشر" الذي سمى نفسه "عثمان" بعد إسلامه، وقد نال بعضهم الكثير من المتاعب والأذى في سبيل العربية، ومنهم من كف بصره وهو يبحث لسنوات في النصوص العربية يحققها على نفقته الخاصة.

3. المنهج العلمي الدقيق الذي يعتبر عند بعضهم مثالا نادرا يحتذى.

ولست أنكر أن في إنتاج بعض هؤلاء المستشرقين نقصا وأغلاطا، ولكن يكفي أنهم عملوا بحماسة وحب بقدر ما أسعفتهم به المعرفة والمصادر، ولقد استدرك بعضهم على بعض بإخلاص، وصحح بعضهم أخطاء بعض، وكانوا علماء حقا يقبلون كل نقد وتصحيح ."[1].

2. "يوهان فك" "Johann Föck" حياته وآثاره

سبق التعرض في المبحث السابق لشخصيات استشراقية من المدرسة الألمانية كان لها العطاء الغزير في ميدان الدراسات العربية وتركوا البصمات الواضحة على تراثنا العربي، وكان الوقوف على أبرز هذه الوجوه العلمية على سبيل التمثيل وليس الحصر، وقد نالت هذه المدرسة قسطا من البحوث والمؤلفات من قبيل الجمع والاستقصاء، أو النقد والتقييم فبالإضافة إلى موقف ادوارد سعيد من الاستشراق الألماني الذي أشير إليه آنفاوهناك آخرون برأوا ساحة هذه المدرسة من الخلف يات الإيديولوجية أو الأهداف غير العلمية، ومن بين هؤلاء " صلاح الدين المنجد الذي كان أكثر من كتبوا عن الاستشراق وتعاطفوا مع الاستشراق الألماني، وتبرئته من التبعات غير العلمية التي ألصقت بالمستشرقين من جنسيات أخرى، وظهر منه ذلك في عدد من الدراسات الهامة، والأ عمال المتخصصة، والتي ركز فيها على هذا النوع من الاستشراق منها : " المستشرقون الألمان وتراجمهم وما أسهموا به من الدراسات العربية"، ومنها :" المنتقى من دراسات المستشرقين"، وكذلك : "الاستشراق الألماني في ماضيه ومستقبله"."[2]. ومن المستشرقين المرقومين الذين سطع نجمهم في سماء العلم بالعربية ولهجاتها وأساليبها المستشرق الألماني "يوهان فك"، فما هي محطات حياته ومراحلها ومسيرته العلمية؟ وما هي آثاره ودراساته؟

[1] - صلاح الدين المنجد، المستشرقون الألمان، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط1، 1978، ج1، ص 7- 8- 12.
[2] - علي بن إبراهيم النملة، المستشرقون والتنصير، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط1، (د- ت).

أ. ترجمة "يوهان فك"

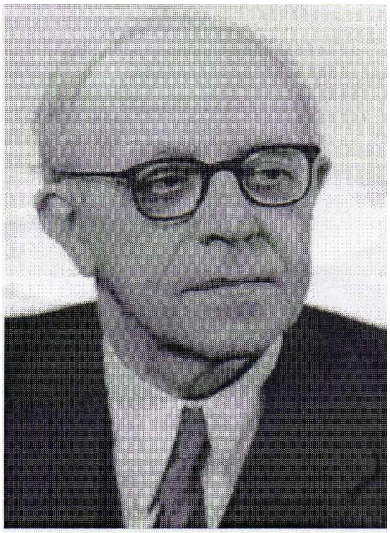

" ولد يوهان فك في 8 جويلية 1894 بفرنكفورت أماين وتوفي في 24 نوفمبر 1974بهاله كان كاڤ وليكي المعتقد وكان أبوه نجارا . درس الفيلولوجيا الكلاسيكية من 1913 إلى 1916 في جامعات هاله وبرلين وفرنكفورت، وما بين 1916 إلى 1917أدى الخدمة العسكرية . وفي فبراير 1918 إلى 1920 بقي متربصا في الجامعة وفي 1921 بدأ في التحضير لرسالة الدكتوراه في الفيلولوجيا، وما بين 1921 و1930 درس اللغة العبرية في جامعة فرنكفورت، وفي 1929 تخصص في الدراسات الإسلامية، في 1930 إلى 1935 انتقل إلى الهند أستاذا وفي نفس الوقت كان مديرا لفرع اللغة العربية والإسلام، ثم من 1935 إلى 1938 درس العربية وعلومها في جامعة فرنكفورت وفي 1936 أصبح أستاذا حرا (فوق العادة) في نفس الجامعة، وفي 1938 استدعى من قبل جامعة هاله ليرأس مكتبة دول الشرق الأوسط وفي 1962 أحيل إلى التقاعد.

وقد امتاز يوهان فك بأنه كان من المدرسين الممتازين يميل إلى البساطة، كان كثير التواضع دقيق الملاحظة حاضر النكتة، وكان حريصا جدا على تنمية القدرات الكلامية عند طلابه، وكان يرفض أن يشرف غيره على تدرس اللغة العربية لشعوره بمسؤولية كبرى نحوها لاعتقاده أنه يملك أسرار العربية ما لا يملكه غيره خوفا من التشويه والطمس . توفي في مدرج جامعة هاله وهو يلقي محاضرة وقد جاوز عمره الثمانين، وبوفاته فقدت الساحة العلمية الألمانية شخصية علمية غير عادية"[1].

[1]- http://www.catalogus-professorum-halensis.de/fueckjohann.html. 29/06/2008

ب. آثار "يوهان فك" ومؤلفاته

أحصى الباحثون للمستشرق "يوهان فك" عددا من المؤلفات والمقالات والبحوث نشرت في مجالات مختلفة، كان أغلبها يتمحور حول قضايا اللغة العربية وأبرز هذه الآثار : " العربية لغة وأسلوبا. في "برلين" 1950، وقد نقله إلى العربية عبد الحليم النجار في القاهرة 1951، ونقله إلى الفرنسية "نيزو"، ونشره بمقدمة المؤلف ومدخل "لكانتينو" في باريس 1955، وبمعاونة "بروكلمان"، و"شبولير"، و"هوفنر". وكتب: العربية فقها وأدبا، وألف "العربية"بحوث عن تار يخ لغتها وأسلوبها في ليدن 1954 وله: الدراسات العربية في أوربا عام 1944- 1955 في "ليبزيج" ومن مباحثه: محمد بن إسحاق، وفي الآداب الشرقية كتب "القرآن" في 1933، و"حديث البخاري" في 1938 و"الإسلام" في 1938، و"الصوفية" عام 1940، و"ترجمة القرآن" سنة 1944، و"الموسيقى العربية" في 1953. وفي المجلة الشرقية الألمانية نشر فهرست ابن النديم وهو يعد طبعة جديدة له، و "أصالة النبي محمد" في 1936، و"تصغير الجمع" عام 1936، ومكانة المحدثين في الإسلام " في 1939، و"أوجيست فيشير" في 1950، وفي غيرها "الحديث"، و"الكيمياء في كتاب الفهرست" في 1951، و"البيروني" في 1952، ومحمد شخصيته ودينه "، و"محمد إقبال" و"المعتزلة"، و"كارل بروكلمان". وكتب حول اللغة العربية والتاريخ الإسلامي، ومحي الدين الأصفهاني، وتقويم قرطبة، ومحمد بن سعيد العوفي وأصل التشريع الإسلامي."[1]. يبدو أن "يوهان"اهتم بما اهتم بـ ه غيره من المستشرقين خارج الدراسات اللغوية الذين كتبوا حول قضايا تقصدوها، وكأن لهم من ورائها مآرب وأغراض كموضوع الفرق الإسلامية، والتصوف والصوفية، وبعض الشخصيات الإسلامية والرموز التاريخية، والتي كانت لها مواقف متباينة . والأهم من هذه الدراسة هو الوقوف على ما ألفه "فك" حول العربية، وما دقق النظر فيه فعد عملا

[1] - نجيب العقيقي، المستشرقون، ص 463- 464.

رائدا يستحق التنويه، فحظي بالترجمة والتعاليق والشروحات، فكان في المقام الأول كتابة "العربية دراسات في اللغة واللهجات والأساليب".

3. كتاب "العربية" منهجه ومحتوياته

كتاب "العربية" "ليوهان فك"كتاب أغرى بعض اللغويين لدراسته بعد ترجمته وتحقيقه وفهرسه موضوعاته، وتصحيح أخطائه تصحيفا أو تحريفا، واعتبره آخرون مرجعا هاما، فما من كتاب في اللغة إلا وكان "العربية" في الغالب ضمن المراجع الأساسية التي لا يستغني عنها في البحث اللغوي . وإذا كان بعض الباحثين في الظاهرة الاستشراقية يحلو لهم أن يصنفوا المستشرقين إلى منصفين غرضهم بين في البحث العلمي والموضوعية، ومتعصبين متحاملين أهدافهم ابتعدت عن العلمية، والتجرد للحقيقة، فإنه يمكن أن يصنف كتاب "العربية" "لفك" في إطار المؤلفات التي خدمت العربية بعيدة عن التحامل والأحكام المسبقة، وكانت الأهداف الدافعة للدراسة علمية خالصة لا يقصد منها إلا البحث والتمحيص . " ودراسة التراث العربي والإسلامي دراسة تجلو الحقائق الخافية، وهذا الصنف من المستشرقين وإن كان قليلا فإنه يدل على اختلاف المتلقي الآخر لتراثنا، وهم مع إخلاصهم في البحث لا يسلمون من الأخطاء والاستنتاجات البعيدة عن الصواب، إما لجهلهم بأساليب العربية، وأما لجهلهم بالأجواء الإسلامية التاريخية، فيتصورون العربية كما يتصورون مجتمعاتهم، ناسين الفروق الطبيعية والنفسية والزمنية التي تفرق بين الأجواء التاريخية التي يدرسونها، وبين الأجواء الحاضرة التي يعيشونها، وهذه الفئة أسلم الفئات في أهدافها، وأقلها خطرا، إذ سرعان ما يرجعون إلى الحق حين يتبين لهم ومنهم من يعيش بفكره وقلبه في جو البيئة التي يدرسها، فتأتي نتائجه مطابقة للحق والواقع."[1]. وأمثلة المنصفين[2] من المستشرقين كثيرة منها المستشرق الإنجليزي "توماس أرنولد" الذي كتب كتابه العظيم "الدعوة إلى الإسلام" الذي أنصف

[1] - مصطفى السباعي، الاستشراق والمستشرقون، دار الوراق، المكتب الإسلامي، بيروت، ط2، 2001، ص 31-32.

[2] - هناك من يرفض أن يقسم المستشرقين إلى طبقتين: متعصبين ومنصفين ويعتبر أنه لا مبرر لهذا التقسيم، ولسنا نميل إلى هذا الرأي.

فيه المسلمين حيث برهن على تسامح المسلمين في جميع العصور مع مخالفيهم في الدين، ويعتبر هذا الكتاب من أدق وأوثق المراجع في تاريخ التسامح الديني في الإسلام، فما من حادثة تذكر إلا أرجعها إلى مصادرها، ومن هؤلاء الذين أدى بهم البحث الخالص إلى اعتناق الإسلام، والدفاع عنه في أوساط الغربيين المستشرق الفرنسي الفنان "دينيه" الذي عاش في الجزائر فأعجب بالإسلام وأعلن إسلامه، وسمى نفسه ناصر الدين دينيه " وله كتاب أشعة خاصة بنور الإسلام "، بين فيه تحامل قومه على الإسلام ورسوله، وقد توفي هذا المستشرق في فرنسا، ونقل جثمانه إلى الجزائر ودفن بها . ويعتبر هذا التقسيم في ذاته إنصافا من قبل القائلين به من الباحثين العرب. وهذا الكلام يقودنا إلى أن الدراسات الاستشراقية في اللغة والأدب قد حظيت بدورها بشيء من الإنصاف والعلمية، وليس "يوهان فك" بمنآى عن هذه الدائرة. ويستنتج ذلك من الترجمات التي حظي بها الكتاب إذ لم يؤثر عن أحد من المترجمين أنه عثر على شيء يخدم هدفا أيديولوجيا أو سياسيا . وقد خط المؤلف لنفسه منهجا في دراسة العربية وجاءت محتويات الكتاب ما يشبه دائرة معارف واسعة، فما هو المنهج المتبع؟. وما هي محتويات الكتاب ومادته؟

أ) منهج الكتاب

لا ريب أن المنهج يكتسي أهمية قصوى لأي علم من العلوم، ولعل جل الأسباب التي تكمن وراء الأخطاء الفادحة التي قد يقع فيها الباحثون يعود إلى المنهج إما لعدم وضوحه، أو السير على خطواته عل ى غير بصيرة إلى غير ذلك . ومن الضروري لمن أراد أن يفهم وجهه نظر غيره، فضلا أن يحاكمها، أن يكون على بصيرة كافية بطبيعة المنهج الذي صدرت عنه، وإلا كان حكمه على تلك الأفكار حكما انفعاليا بعيدا عن العلمية أو متسرعا ينقصه النضج والتمحيص . " وفهم مناهج الآخرين لا يلزمنا بالسير عليها، والاحتكام إليها، إلا بمقدار قناعتنا بها، واتفاقها مع النتائج والأهداف المرجوة منها، بل إن في فهم تلك المناهج ما يعين على معرفة المسلمات التي تمثل نقاط التقاء بيننا وبينهم. ومناهج البحث العلمية على أية حال

تمثل في الأغلب قواسم مشتركة بين الباحثين على تنوع انتماءاتهم الثقافية، فالمناهج وسائل نتوسل بها إلى دراسة اللغات في العصر الحديث. والدراسات الاستشراقية في أساسها الأول انطلقت من مناهج طبقت على اللغة العربية، وقد أسهم المستشرقون في إنضاج الكثير من المناهج عندما توسلوا بها إلى دراسة العربية فكان لهم الفضل في ذلك، فلا شك أن كثيرا من هذه الدراسات اللغوية قد اتسم بالصبر والأناة، واستكمال العدة في البحث، من إطلاع على مناهج البحث اللغوي، وقدرة على الموازنة بين الظواهر اللغوية في لغات مختلفة، فمن أراد أن يدرس جهودهم لابد أن يأخذ في الحسبان، الصبر والأناة، والمعرفة الدقيقة بمناهج البحث اللغوي الاستشراقي، والقدرة على الربط بينها وبين مناهج البحث اللغوي عامة ثم الانتباه إلى مواطن القصور وأسباب الخطأ في الحكم على العربية."[1].

وقد أكد غير واحد من اللغويين أن مناهج المستشرقين في تناول العربية كان بالمعايير النقدية التي عالجوا بها لغاتهم، فالمستشرق يسعى إلى اختراق الأفق الفكري الذي تفرضه البيئة من حوله بإلقاء نظرة على الشرق، وهو في الوقت نفسه يطبق على المؤلفات العربية التي يشتغل بها المعيار النقدي نفسه الذي يطبقه على فكره ولغته، وتبقى الصلة وثيقة بين اللغة والاستشراق، بمناهجه، ونتائجه " حتى لقد بالغ أحدهم في هذا التقدير فذهب إلى أن الاستشراق علم يختص بفقه اللغة خاصة والمستشرقون – وهم يدرسون العربية – ينطلقون في الغالب من المناهج التي تدرس بها لغاتهم، أو من خلال تأثرهم الكبير بتلك المناهج .. ومن المعلوم في تاريخ الدراسات اللغوية الأوروبية أن الدراسات التاريخية المقارنة بين اللغات المختلفة – وبخاصة الأوروبية منها قد نشط وازدهر في القرن 18 م ومع أواخره ومطلع القرن 19 م أصبح علم اللغة مستقلا، وبدأت مناهجه تتمايز فكان من أوضحها : المنهج التاريخي، والمنهج التاريخي المقارن وغيرهما، فمن المستشرقين من أسرف في الالتزام بمنهج بعينه، حتى صرفه ذلك عما سواه ومنهم من سبر أغوار الظاهرة

[1] - إسماعيل أحمد عمايرة، المستشرقون والمناهج اللغوية،ص 11- 12- 13.

اللغوية بمناهج متعددة ."[1]. ويعد "يوهان فك" من المستشرقين الذين درسوا العربية دراسة تاريخية تطورية، قدم بكتابه "العربية"إلى المتخصصين في علم اللغة العربية عملا رائدا، والكتاب بفصوله الأربعة عشر بالإضافة إلى الملحق الذي تضمن دراسة معجمية دلالية لكلمة "لحن" واشتقاقاتها. وعمل "فك" في مجموعه " ليس في الواقع إلا نوعا من تأريخ التطور للعربية، أو على وجه الدقة للعربية المولدة التي على حد ما قاله "فك" حينما انتقلت العربية بعد وفاة الرسول (عليه الصلاة والسلام) مباشرة عن طريق الغزوات الكبرى في العهد الإسلامي الأول، إلى خارج حدودها القديمة في مواطن لغوية أجنبية ."[2]. والعربية لم تنتقل عبر الغزوات أو الفتوحات فقط كما يرى "فك"بل هناك عوامل أخرى ساعدت على اذ تقالها غير العوامل العسكرية، فالعوامل السلمية كان لها دور في سياحة العربية من مكان إلى آخر، فليست الحروب المتحكم الوحيد في الاحتكاك اللغوي، وتلك عوامل قد تم الوقوف عندها مطولا في الفصل الأول، الداخلية منها والخارجية.

" وقد تعقب "يوهان فك" تاريخ العربية، ابتداء من العصر الأموي، والعباسي، وانتهاء بعصور السلاجقة، والسيل المغولي الذي أكمل حلقة الختام في مراحل الانحلال اللغوي، التي بدأت بظهور السلاجقة لكن يشير في نظرة خاطفة إلى الطريق الذي سلكه تطور العربية الأدبية، في القرون التالية حتى العصر الحديث، وإنه لمن غ ير الممكن التحدث بالتفصيل عن كيفية استيفائه لجوانب الموضوع، فقد استطاع المؤلف بالقراءة الواسعة، المستفيضة، التي ربما لم تتوفر في الوقت الحاضر إلا لقلة من المتخصصين، وبالشواهد التي لا تحصى من المصادر العربية الأصيلة التي لم تجمع إلا بجهد سنوات –أن يقدم إلي نا عرضا حيا مثيرا، يشوق القارئ دائما للأحوال والظروف التي تقلبت فيها العربية والتاريخ الإسلامي وكذلك

[1] - المرجع السابق، ص 18- 19- 20.
[2] - يوهان فك، العربية دراسات في اللغة واللهجات والأساليب، ترجمة وتقديم وتعليق وفهرسة رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1980، ص 5.

للتأثيرات المتعددة للبيئات المجاورة المتغيرة دائما، على اللغة والأدب، ولقد جاوزت مصادر الكتاب 250 كتابا معظمها بالعربية.".[1]

لقد أكد الباحثون في شؤون العربية لاسيما أولائك الذين تناولوا الكتاب بالترجمة والتحقيق والفهرسة والتعليق، والإحاطة والتدقيق [2]. أن كتاب "يوهان" يكتسي أهمية قصوى، ومكانة خاصة في الدراسات اللغوية، فهو أول دراسة علمية ترصد تطور العربية المولدة منذ ظهور الإسلام حتى نهاية القرن الثالث عشر للهجرة، دراسة ترمي إلى تسجيل ما حققته العربية من تطور، وما أصاب أساليبها وقواعدها ومفرداتها من تغير، بسبب اتصالها بلغات الأمم المفتوحة، وتأثر المتكلمين بها بهذه اللغات الوافدة بعد الإسلام، ومن الملاحظ أن المؤلف كان معنيا بتسجيل ظواهر هذه اللغة في بيئاتها المختلفة، وبذلك قدم للباحثين عملا ظل حتى اليوم يلقي بظلاله على الدراسات اللغوية، لا في المؤلفات العربية وحدها، ولكن في غيرها من الدراسات المعنية بمتابعة التطورات التاريخية التي أخذت تجد على اللغة العربية منذ ظهور الإسلام،ويبدو أن المؤلف باحث تاريخي يريد أن يبحث في اللغة العربية وظواهرها " فحاول أن يوفر لنفسه أقدم المصادر التي استعملت الظاهرة اللغوية، كما يفعل الباحث في تاريخ اللغات ومراحل تطورها، فقد يبدأ بالنقوش المكتوبة، ثم الدواوين الشعرية، والنصوص الجاهلية، ثم بالنصوص الإسلامية، وهكذا إلى أن يصل بها إلى آخر مجالات استعمالها الراهنة، مكتوبة ومنطوقة، وخلال هذه الرحلة الطويلة يصف الكلمة صوتا، وصرفا،ومعنى، وسياقا، فيهتم ببيان ما طرأ عليها من تغيرات صوتية أو نحوية، أو بلاغية أو تاريخية، والتي قد يكون لها أثر خاص في إلقاء الضوء على تاريخ اللغة وظواهرها . "[3]وقد رسم "فك" للعربية منحنى بيانيا من حيث الاستعمال، قلة وكثرة، حياة وموتا، ثم أدرك القوانين التي تحكم هذا المسار التطوري، ومواطن التأثير وعوامله لأن الباحث التاريخي مسؤول عن الإجابة عن

[1] - المرجع السابق، ص 5- 6.
[2] - المترجمون لهذا الكتاب: عبد الحليم النجار سنة 1951، ورمضان عبد التواب سنة 1980.
[3] - إسماعيل أحمد عمايرة، المستشرقون والمناهج اللغوية ص21.

تاريخ الظاهرة اللغوية في أصلها، وكيف أصبحت؟ ومتى؟ وإلى أين تتجه؟ والراجح أن يوهان فك" تأثر بالمنهج التاريخي تأثرا بينا، وأسهم وبشكل متميز في إثراء الدراسات التاريخية على اللغات الشرقية، ومنها اللغة العربية، فقد وسم القرن التاسع عشر بأنه قرن التاريخ، ويعد "فك" أفضل من طبق المنهج التاريخي على العربية حيث أصبح هذا المنهج يغلب على طابع البحوث اللغوية في أوروبا في القرن الثامن عشر والتاسع عشر وانعكس ذلك على بحوث المستشرقين ودراساتهم للعربية، ولا يعني ذلك أن "يوهان فك" كان أسير قبضة المنهج التاريخي فقد أفاد من مناهج أخرى في دراسته للعربية، رغم أن الفكرة المحورية في كتابه كانت الدراسة التطو رية لها، وأن فكرة التطور هيمنت على مباحث الكتاب ومادته، إلا أنه أفاد من المنهج الوصفي عندما وقف عند العلاقات اللغوية بالبصرة والكوفة [1]. وحديثه بشكل مفصل عن اضطراب اللسان العربي الفصيح، وحركة التنقية اللغوية [2]. كما استعمل المنهج المقارن في مواضع عديدة من الكت اب منها المقارنة بين الأمويين والعباسيين [3] والمقارنة بين لغة ابن المقفع ولغة عرب البادية [4]، والمقارنة أيضا بين اللهجات المختلفة[5] وهناك مواضع أخرى ظهر فيها المنهج المقارن بجلاء . " ففي مكة مثلا يقال للإناء"برمة"، وللغرفة العالية :"علية" إذ كان يقال لهما بالبصرة :" قدر" و"غرفة" ذلك أن البصريين كانوا يستعملون لغة القرآن، أما أهل مكة كانوا يستعملون بدل اللفظ العربي الأصيل :"غرفة" اللفظ الآرامي الأصل: علية، وقد أثبت ذلك أبن دريد، وما يؤيد استعمال المكيين لفظ: "برمة" بدلا من" قدر"، ورود ذلك اللفظ بكثرة في أقوال المحدثين، وإن كان يقال في هذا أولا إن لفظ : "برمة" يستعمل أيضا في معنى أخص مما ذكر، وهو المادة التي تعمل منها القدر، وثانيا : أن لفظ "القدر" لم يكن مجهولا تماما في لغة الحجاز ."[6].يضاف إلى ذلك أن الدراسة التاريخية التطويرية

[1]- ينظر ص 25-28 من كتاب العربية"يوهان فك" .
[2]- ينظر نفس المرجع ص 38-42.
[3]- ينظر نفس المرجع ص 63.
[4]- ينظر نفس المرجع ص 65 .
[5]- ينظر نفس المرجع ص 108.
[6]- يوهان فك، العربية، ص107-108

للظواهر اللغوية لا تنفك عن فعل المقار نة، باعتبار أن "يوهان" في رصده للمراحل التاريخية التي تقبلت فيها العربية لم يستغن عن استعمال المنهج المقارن في تحديد التحولات والتغيرات الطارئة على اللغة العربية، فالمقرر عند اللغويين أن المنهج المقارن جزء من المنهج التاريخي في دراسة اللغة.

ب. محتويات الكتاب

عنوان الكتاب: العربية دراسات في اللغة واللهجات والأساليب " من عمل "يوهان فك" نقله إلى العربية وحققه وفهرس له، عبد الحليم النجار سنة 1951، وكان "يوهان" قد ألف كتابه في "برلين" عام 1950، وتقع الترجمة في 251 صفحة، إضافة إلى فهرس مفصل للأعلام مرتبا ترتيبا ألـ فبائيا، وقائمة للمصادر والمراجع العربية والأجنبية، وكان عدد المصادر العربية 160 مصدرا، وعدد المراجع الأجنبية كان كالآتي:

- المراجع الانجليزية : 11 مرجعا –المراجع الألمانية : 14 مرجعا – المراجع الفرنسية مرجعا، وهذا يدل على مدى الجهد المبذول في سبيل رد المادة إلى أصولها الأولى.

وقد تولت الدار المصرية السعودية للطباعة والنشر والتوزيع بالقاهرة نشر الكتاب في طبعة جديدة عام 2006 م، أشرف عليها وقدم لها إبراهيم عبد الرحمن محمد تحت تصدير أحمد أمين بك، وتقديم محمد يوسف موسى . أما الترجمة الثانية فكانت لرمضان عبد التواب عام 1980 تقع في 255 صفحة مذيلة بفهرس من الأعلام وقائمة من المصادر والمراجع العربية والأجنبية مرتبة ترتيبا ألفبائيا وكان عدد المصادر العربية 188 مصدرا، وعدد المراجع الأجنبية 47 مرجعا، وقد حصل المترجم على نسخة من الكتاب في أصله الألماني، وهو يحضر الدكتوراه في "ميونيخ" لما أهداه صاحبه نسخة منه، فعقد العزم على ترجمته بعد الفراغ من الدراسة، وكان قد اطلع على ترجمة النجار وبعد نفاذ نسخ ترجمته، عكف على إعادة الترجمة، مصححا ومدققا ومعلقا، وقد انتقد رمضان ترجمة النجار، وحاول في

ترجمته التالية أن يستدرك على ذلك، مستفيدا بحسن الصياغة وجودة العبارة التي تغلب بها جفاف الأسلوب الألماني وجمله المعقدة . وقد صدر رمضان عبد التواب ترجمته بتعليقات المستشرق الألماني "أنطون شبيتالر" وهو واحد من أساتذته، فسجل في هذه التعليقات اختلافا في بعض الظواهر اللغوية مع "يوهان فك" حيث يناقش بعض النقاط الأساسية التي لا يتفق فيها مع المؤلف . " فإن له رأيا في مشكلة الإعراب حيث يرى أن التصرف الإعرابي كان حيا في عنفوانه لدى البدو، في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. وقد اعتمد في ذلك على الأخبار التي رواها العرب في هذا الشأن، وعلى ا لبقايا المتجمدة من هذا التصرف الإعرابي في لهجات البدو المعاصرة، ولكنني لا أثق في صدق هذه الأخبار ."[1]. ويمضي "شبيتالر" في هذا السياق يرفض ما ذهب إليه "فك" من أن العربية كما نعرفها من الشعر العربي القديم، هي مساوية في كل شيء لغة البدو على الإطلاق، بل أصابها ا لتغير كلما تقادم العهد وينقسم الكتاب إلى تمهيد يليه ثلاثة عشر فصلا، وملحقا عالج فيه مادة "لحن" ومشتقاتها.

ومن خلال الفهارس التي أجادها المترجمان (النجار ورمضان) في حسن ترتيب وإتقان، جاء التمهيد والفصول كالآتي :

1. **التمهيد:**

عالج فيه الكاتب فضل الإسلام والقر آن على العربية، ووقف عند العصور الذهبية لها، وفضل النحو على بقاء اللغة العربية، وأشار إلى قصة الإعراب ودوره في تمييز الفصحى عن غيرها، وأكد أن من العسير رصد تطور العربية ونموها في مدة تربو على ثلاثمائ ة وألف عام، ومرجعية عرب البادية بالنسبة لجهود النحاة، وتميز لغة القرآن عن غيره، واختلاف اللهجات يدل على اختلاف قراء رسم المصحف، ومخالفة القراء للقواعد لا يعد شذوذا على العربية، وختم الفصل بالحديث على تطور العربية بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم عن طريق الغزوات الكبرى

[1] - يوهان فك، العربية، ص 6.

في العهد الإسلامي الأول وانتقالها بذلك خارج مواطنها القديمة إلى مواطن لغوية أجنبية.

2. العلاقات اللغوية في عهد الدولة العربية (الأموية)

وفيه تحدث عن عصر جديد للعربية من خلال هجرة القبائل للغزوات، وتأثر العربية بلغات الأقاليم الجديدة، والفروق بين اللهجات حرك النحاة نحو الدراسة والبحث ونشوء ما أسماه بعربية عظام الملاك، وعربية مبسطة للتفاهم بين العرب ومن اختلطوا بهم، وتحدث عن الإرهاصات الأولى للنحو العربي ودوافع التقعيد، ووقف طويلا عند مسألة التأثير والتأثر بين العربية وغيرها، وانتشار الفارسية بشكل ملفت للنظر وتأثيرها على العربية، وشيوع الأخطاء اللغوية لدى الطبقات العليا، وظهور مبدأ التنقية اللغوية وتولي الجهات الرسمية لذلك، وفشو الاضطراب اللغوي عند الشعراء أواخر القرن الأول ومآخذ أخذت عليهم.

3. عربية الدولة ولغة الشعب في أوائل العصر العباسي

وعرض في هذا الفصل قوة العربية رغم سقوط الدولة، ومكر الشعوبيين، وازدهارها في هذا العصر، بظهور إمام النحاة "سبويه" وكتابه، وذكر بعض خصائصه في خدمة العربية، وأن حركة التقعيد اللغوي كانت مرجعيتها عربية البدو الخلص، وظهر ابن المقفع وبشار بن برد وأثر أدبهما على العربية، واختلاف اللغويين في الاستعمال اللغوي الصحيح، كما ذكر شيئا عن اختلاف مدرستي الكوفة والبصرة حول تفسير الظواهر اللغوية، وانتشار اللحن في العصر العباسي وآراء كبار اللغويين في أشعار بعض الشعراء وفشو اللحن عند الفقهاء، والقراء، والمحدثين، وأورد بعض الروايات في ضرورة تصحيح اللحن كأقوال عمر بن الخطاب في الحث على تعلم العربية. وعاد إلى تأثير الفارسية في العربية.

4. اللغة العربية في عصر هارون

وفي هذا الفصل تحدث عن بلوغ الدولة الذروة في عصر هارون سياسيا واقتصاديا وثقافيا واهتمام الدولة بالعلماء، وخلاف أهل اللغة مع اللهجة الدارجة،

واضطراب المرجعيات في اللغة العربية، وتخ طئ بعض اللغويين الفقهاء والقراء، وأشار بشكل خاص إلى الكسائي وبصره باللغة ودوافعه في تأليف النحو، وشكك في نسبة كتابه إليه الذي دار حول اللحن، ثم عاد إلى اللحن وانتشاره عند الطبقة الثانية للشعراء، وذكر قلة اللحن وكثرته في مواطن دون أخرى (بين أشعار القصور، وشعر الفرص والمناسبات)، وفرق بين اللحن ولغات المتحدثين وختم الفصل بالحديث عن ظهور بحور الأغاني الشعبية، وعربية الكلام في أواخر القرن الثاني، وموازنة بين بعض اللهجات.

5. العربية المولدة

وفي هذا الفصل " يرى المستشرق "فك" أن الطبيعة الحقيقية للعربية المولدة، والفرق الخاص الذي يميزها تجاه العربية الفصحى، إنما يقوم على تغير في تكوينها، ويعد ترك الإعراب من أمارتها الظاهرة."[1]. وأن لغة البدو تبقى المرجع الأساسي في حركة التصويب اللغوي، حيث كانت أبعد الأوساط تأثرا بها، وأشار إلى لغة اليهود والنصارى واستعمالهم للدراجة، وأن حظهم من الثقافة العربية كان ضئيلا، فلم يقووا على تكوين لهجة خاصة، وتكون الأدب اليهودي كان خارج الجزيرة، واستئثار العربية بحرف الضاد وبين الفرق بين المولدة والفصحى، ونشأة قوالب جديدة تأخذ صفة الإعراب النحوية وأثر اختلاف الترتيب في علاقات المطابقة، والخلط في النحو والتصريف من ظواهر التطور اللغوي لا من أسبابه وختم الحديث بالنصوص العربية اليهودية والنصرانية وأنها تعين على دراسات اللهجات الشعبية الحديثة.

6. العلاقات اللغوية في عصر المأمون وعقيدة الاعتزال

وتحدث امتداد الازدهار بعد هارون حتى أوساط القرن ا لثالث وعن العصر الذهبي للأدب العربي، ومؤلفات الجاحظ الكاشفة عن العلاقات اللغوية، وانتباهه إلى لغة الأطفال، وتعدد اللغات وأثره على لسان شخص واحد، ووقف عند الجاحظ وعنايته بعيوب اللسان، وأسماء تلك العيوب، وقضايا أخرى . وتحدث عن

[1] - رمضان عبد التواب، لحن العامة والتطور اللغوي، ص 96.

الشعر الرفيع في القرن الثالث في نظر النحاة، ومؤاخذة المأمون عماله على اللحن وختم الفصل ببيان أثر الأتراك على اللغة العربية.

العربية تصير لغة الأدب الفصحى في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي

وفيه أبان ضعف الدولة وأثره على العربية، وانتشار الأساليب المولدة، وظهور ابن قتيبة وكتابته حول فساد اللغة، وفصل مسائل حول أدب الكاتب منهجا وموضوعا وأسلوبا، ثم ذكر البحتري وشعره وابن الرومي، وفساد لسان الوزراء بالدارجة، وضعف العربية النحوية والملكة اللسانية حتى عند النحويين، وعرج على ثعلب والأخفش الأصغر وفي ختام الفصل بين الحد الفا صل بين الفصحى والمولدة الدارجة.

8. عربية الأدب في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي

وأشار فيه إلى أثر النمو اللغوي في مطاردة الفصحى، وأثره على الأساليب وحديث قدامة بن جعفر عن نتائج النمو في كتابه "نقد النثر"، ومسائل أثارها أيضا حول الأسلوب، والسجع، والذ ثر الفني وغيرها، ثم وازن بين كتاب قدامة وكتاب "الألفاظ" لابن السكيت، وتحدث عن الهمذاني في "الألفاظ الكتابية" وباعثه على التأليف، ورأي الصاحب ابن عباد فيه، وختم الفصل فأشار إلى انحطاط الأدب وأسباب ذلك والسجع عند الكهان، والسجع في القرآن.

9. العربية ولهجات البدو في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي

وفي هذا الفصل وقف مطولا عند اللهجات العربية، واضطراب لغة البدو وفقدانها للصفاء والخلوص، واختلاط الألسنة الأصلية بعربية الشمال، وأشار إلى الهمذاني ومحاكمته للهجات وللنحو ومقاييسه، وتقسيمه لها إلى فصيحة ومعقدة ثم تطرق "فك" إلى لهجات القبائل الجنوبية وفصل القول، ونشوء علم اللغة في هذا العصر على أساس فلسفي بعد انقضاء عصر الجمع اللغوي، ثم تحدث عن الأزهري صاحب التهذيب، وحروب القرامطة وأثرها على رأي المجتمع في البدو، وما عابه

ابن عباد على المتنبي من التفاصح بالألفاظ النافرة، وموقفه من غريب اللغة، وتحقير وتعقيب أبي حيان التوحيدي على ابن عباد وابن العميد، وختم الكلام عن بلاغة الأسلوب وشروطه، وتلاشي الفرق بين بلاغة التعبير في الشعر والنثر، وعن أبي هلال في الصناعتين.

10. العربية واللغة المولدة في القرن الرابع عشر/ العاشر الميلادي

وارتكز الحديث عن انحلال الدولة العباسية مشرق جديد للعربية المولدة، وظهور جماعات متميزة من اللهجات، وكتاب المقدسي : " أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" " الذي وصف فيه رحلته خلال العالم الإسلامي فحاول تمييز كل إقليم من الوجهة اللغوية، فذكر التعبيرات المحلية الخاصة به .. فكان كتابه صورة لذروة الأدب الجغرافي للعصر الإسلامي الأوسط، وجغرافية الكلمات ."[1]. وتحول الفصحى إلى الاكتساب عن طريق التعلم لا التأثير الطبيعي، وأشار إلى مقياس الفصاحة ومقياس اللحن اللغوي، ثم فصل الحديث عن المتنبي واستعماله للعربية المولدة، وحملة ابن عباد عليه، وشروح ابن جني لديوانه مع أنه ليس عمدة في شرح الشعر، وأسلوب المتنبي في الشعر، وعلاقة أبي العلاء المعري به خاصة في "سقط الزند"

11. ظهور اللغة الدارجة في أشعار القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي

تعرض هذا الفصل إلى أن شعر المناسبات يحمل طابع العربية المولدة، وتحقير بعض الشعراء لمبدأ التنقية اللغوية، وتحرر بلاد المغرب من النماذج الأدبية المتعارفة، والموازنة بين التحرر الموضوعي في المشرق، والتحرر الأسلوبي في المغرب، وتحدث عن اختراع "الموشح" في المغرب وأول من أبدعه، ونماذج من الموشحات، و"التضفير"، و"الموسيقى" و"الأزجال"، والمزج بين الفصيحة والدارجة في الاستعمال الفني في الأندلس، وختم الكلام عن خصائص الموشحات إحدى عوامل التحرر اللغوي، وتقليد المشرق للمغرب في هذا اللون، وسبب عدم نفوذ الموشحة إلى العراق.

[1] - رمضان عبد التواب، لحن العامة والتطور اللغوي، ص 98، وينظر أيضا "يوهان فك" العربية، ص 173.

12وصف المقدسي للعلاقات اللغوية في المحيـ ـط الإسلامي إبـــان القـــرن الرابـــع الهجري/ العاشر الميلادي

ودارت قضايا هذا الفصل حول كتاب المقدسي الذي ســبقت الإشــارة إليــه وقيمته أسلوبا وموضوعا وبراعته في وصف الأقاليم ولغتها، ومنــاطق الفــصاحة العربية في جزيرة العرب ثم ذكر ما يــشبه معــاجم المعــاني كأســماء المقــاييس والموازين والنقد، وتوسع المقدسي في ذكر اللهجات في بلاد العرب والعجم كلهجة الكوفة والبصرة، ولهجة جرجستان وبخاري وجوارزم وغيرها كثير، وختم الحديث عن لغة فارس، والموازنة بين أسلوب المقدسي وغيره كابن النديم.

13. اللغة العربية في عهد السلجوقيين

وجملة ما بسطه في هذا الفصل عمر العربية في هذا العهد وعوامل ذلــك، وطغيان الفارسية حتى صارت اللغة الرسمية، وسياسة السلاجقة في حفظ العربيــة، وتأسيس المدارس لهذا الغرض، ثم تعرض لجمع من اللغويين وأعمــالهم اللغويــة : كالتبريزي والجواليقي، والبطليوسي والحريري، وعن تلاشي الشعور اللغوي ذكــر "يوهان" جهود التنقية اللغوية، والحفاظ على التراث الأدبي، واختلاف القــوم فــي التصحيح والتخطيء، وضعف الملكة النقدية، ثم تعرض أيضا إلى الاحتجاج اللغوي بين الموسعين والمضيقين في حجية الحديث النبوي وأراء النحاة في قضايا الاحتجاج كابن مالك، والاستراباذي، وابن يعيش.

14. نظرة خاطفة

وفيه بين أثر السيل المغولي على تاريخ اللغة، ومكانة مصر فــي النهــضة الأدبية، والنفوذ العثماني في البلدان الإسلامية، وتحدث عن أحلك قــرون التــاريخ العربي، وحملة نابليون، ونشاط محمد علي والعلاقة بالغرب وحضارته ونظمه وأثر ذلك على الألفاظ الدخيلة على العربية وأشار إلى إحياء حركة التنقية اللغويــة مــن جديد، وأعمال المجامع العلمية في القاهرة ودمشق، وصمود العربية في وجه الغريب وتأثيره على اللهجات أيضا، وعناصر التوحيد اللغوي فذكر منها التجنيد والمسارح،

والسينما، وغيرها ثم ختم المطاف بمكانة مصر اللغوية، وم كانة العربية ودورها في وحدة العالم الإسلامي، وأنها لغة الحضارة والمدنية.

الملحق

وناقش فيه مادة : "لحن" ونشأتها ومدلولاتها، وما أثر فيها من أقوال وروايات وورود هذا اللفظ في القرآن، وتحدث عن توقيت انتقال لفظ اللحن إلى الخطأ في الكلام وارتباط ذلك بمبدأ التصويب اللغوي، وذكر بعض الشواهد على ذلك.

تلك أهم القضايا التي أثارها "يوهان فك" في كتابه، سيقت في شكل سريع بما يشبه الصورة الشمسية الخاطفة، من أجل تكوين فكرة عامة عن هذا المؤلف النفيس ومحتوياته، قبل التعرض له بشيء من التحليل والتفصيل في الفصل الموالي.

4. قيمة الكتاب وآراء النقاد والدارسين فيه

لقد اعتبر الدارسون والنقاد كتاب "العربية" "ليوهان فك" كتابا رائدا في بابه وتقبلوا طروحاته وقضاياه بقبول حسن " فهو دائرة معارف واسعة، يحتاج من مترجمه إلى الكثير من الصبر والجهد، ومراجعة الكثير من المصادر لتحقيق هذا النص أو ذاك، من نصوصه الكثيرة، الممتدة عبر عصور العربية الخالدة، وهو عمل رائد من أعمال المستشرقين الألمان، الذين امتازوا بالصبر والدقة في الدراسات اللغوية."[1]. ويظهر هذا الجهد الخلاق من خلال القراءة الواسعة، والإطلاع الكبير على عدد ضخم من المصادر العربية وشواهدها التي لا تحصى، والتي لا تجمع إلا بجهد سنوات، استطاع "يوهان" أن يقدم عرضا حيا مثيرا، مليئا بالتشويق يشد القارئ إليه شدا، وقد تمكن من رصد تقلبات العربية عبر العصور من رحم الأحداث التاريخية، فمزج بين اللغة العربية والتاريخ الإسلامي، ويبدو أنه كان على معرفة بصيرة بأحداث التاريخ في مده وجزره، وفي انتصاراته وانكساراته مستخلصا حياة العربية وسط ذلك كله . وفي تعليقات البروفسور الألماني أنطون شبيتالر " التي نشرها حول الكتاب، والتي تبرز قيمته، ومدى الإحاطة والتقصي " فمن تخطيط

[1] - يوهان فك، العربية، ترجمة رمضان عبد التواب، ص 3- 4.

تاريخي للحضارة، إلى بحوث معجمية، وتحليلات أدبية أسلوبية، تختلط بملاحظات إعرابية، ونصوص غير مجهولة لنا تعرض في سياق جديد، ومادة غير معروفة من قبل، تساق للبرهنة في أصالة . وإن نظرة على الفهارس المتنوعة للأشخاص والموضوعات والكلمات والآيات القرآنية التي ألحقت بالكتاب، والتي تجعل منه بالتأكيد مرجع عربيا، لتع طي صورة تقريبية عن اتساع المادة التي عالجها المؤلف فيه، والكتاب مهدي إلى أستاذ العربية القديم، المستشرق الألماني "أوجيست فيشر"."[1].

ولم يخف "شبيتالر" في تعليقاته أنه مدين للكتاب بالكثير من الفوائد، والعديد من التوجيهات، التي خرج بها من قراءته له، بالرغم من اختلافه مع "فك" في بعض القضايا التي سبق ذكرها، لأنه من المتوقع جدا مع كثرة الموضوعات المطروحة في الكتاب أن تجد من القراء من يخالف رأيا منها، وهذا أمر لا يمكن اجتنابه في ميدان يندر أن تتفق فيه الآراء، رغم البحوث القيمة التي تناولها. وعن المصادر التي اعتمد عليها "يوهان" في بحثه نوه إبراهيم عبد الرحمن محمد الذي أشرف على الطبعة الجيدة للكتاب وتكفل بالتقديم لها بأن " الباحث رجع إلى عدد ضخم من المصادر القديمة، ودرس كثيرا من النصوص اللغوية، الشعرية والنثرية، وانتهى إلى نتائج تعد شيئا جديدا على بحوث اللغة العربية، وتحتاج لجدتها وغرابتها، أحيانا إلى مناقشة وتحليل."[2].

وفي الكتاب دراسة مستفيضة عن الأساليب بين القديم والحديث وخصائصها وعوامل تطورها في ظل معركة اللفظ والمعنى أو الشكل والمضمون، بناءا على المدارس والمناهل التي ينتمي إليها القدامى والمحدثون من اللغويين، وعن هذا المعنى يشير أحمد بك أمين "وحاجتنا إلى بحث دقيق، يبين لنا تطور الأساليب في اللغة العربية، واللهجات في الأزمنة والأمكنة المختلفة، والعوامل التي عملت في هذا التطور في بيئات طبيعية، أو اجتماعية، فهذا يفيدنا في وقوفنا على هذا التغير، ومن

[1] - نفس المرجع، ص6.

[2] - يوهان فك، العربية، دراسات اللغة واللهجات والأساليب، ترجمة عبد الحليم النجار، الدار المصرية، السعودية، القاهرة، 2006، ص 5.

ناحية على العوامل التي تعمل فيه حتى نضع أيدينا عليها، فنقويها أو نضعفها، ولم نعرف كتابا من قبل عالج هذا الموضوع معالجة مستقلة، بل نعرف نتفا في الكتب هنا وهناك، ومسائل صغيرة بها، فوقف الأستاذ "يوهان فك" نفسه على هذا البحث المضني العميق، فكم فتش في ثنايا الكتب عما يدله على بحثه، ووفق على الجزئيات الصغيرة يستنتج منها نتائج كبيرة، وقد كنا نمر عليها ونفهمها، ولكن لا نستنتج منها النتائج التي وصل إليها، وقد عرف الألمان بدقة البحث والصبر عليه، والاستطاعة العجيبة في أن يؤلفوا من أجزائه المنتافرة، وأن يصلوا منه إلى أدق النتائج وأعمقها، وهذا ما فعله الأستاذ المؤلف، فنحن إذا قرأنا الكتاب، نرى أنه شرح لنا تدرج الألفاظ والأساليب من أول الهجرة العربية إلى القرن الرابع الهجري، والمؤلف يحتاج منا إلى ثناء عظيم على ما بذل من جهد، وما وفق من نتائج."[1].

لقد أثنى كثيرون على الكتاب والجهد الذي بذله "يوهان فك" فيه، وذلك لما لمسوه من دقة، واستقصاء، وإحاطة، وخلوه من النظرة المتحيزة، أو الأحكام المسبقة التي تورط فيها جمهور المستشرقين، فظهرت الخلفيات السياسية والأيديولوجية في كتاباتهم بشكل واضح، وبأسلوب فاضح، ولا يعني أن الثناء العريض الذي تلقاه الكتاب وصاحبه أن الطروحات التي تبناها "يوهان" فوق النقد أو تعلو على التقييم، ولكن ابتعاد الكتاب عن تلك التورطات التي أشرنا إليها، تمكن المؤلف من الاقتراب كثيرا من العلمية والموضوعية التي بوأت الكتاب وكاتبه هذه المكانة المستحقة وتبقى الكلمة التي ذكرها المؤلف ليست هي الكلمة الأخيرة في الموضوع، ولكنها الكلمة الأولى فهي تحتاج إلى كلمات أخرى تبسط المجمل، وتوضح الغامض، وتزيده بدءا إلى أول عهدنا باللغة العربية، ونهاية إلى عهدنا الحاضر .. ولكنه على كل حال له فضل السبق، وفتح الباب."[2].

والجدير بالذكر أن المستشرقين عالجوا كل ما يتصل بالشرق من دين، وحضارة وثقافة.. وكان هذا بأسلوبهم الخاص، ومنهجهم الغربي، ولم يضنوا في هذا

[1] - نفس المرجع، ص 25-26.
[2] - المرجع السابق، يوهان فك، العربية ، ترجمة عبد الحليم النجار، ص 26.

بجهد أو مال، ولقد أنشئوا في سبيل ذلك المستلزمات، وسخروا لذلك كافة الآليات .. ونفضوا الغبار الذي تراكم على المكتبة العربية في أنحاء العالم بهمة لا يحدها كلل أو ملل.. وفي التقديم على كتاب "يوهان" ينوه محمد يوسف موسى على ما بذله المستشرقون من جهود في خدمة التراث العربي " حيث امتازوا بالتوفر على دراسة الشرق عامة، والإسلام بوجه خاص، وقد ظفرنا بثروة كبيرة من المؤلفات العربية التي نشرها هؤلاء نشرا علميا حقا، فضلا عن الـ بحوث العلمية العميقة التي قام بها أولائك الأعلام، وانتفعنا ولا نزال ننتفع بها كثيرا فيما نكتب عن العربية وعن الإسلام، ومن هذه البحوث القيمة، هذا الكتاب "ليوهان" الذي يسعدني أن أسهم في تقديمه للقراء من نتاج هذا الأستاذ المستشرق الألماني، وهو دراسات في اللغة العربية، ولهجاتها، وأساليبها، وتطورها مع تطور الزمان؛ دراسات عميقة تقوم على الملاحظة القوية لحياة هذه اللغة وتطورها، وعوامل هذا التطور ومظاهره في أدوار التاريخ، وفتراته المختلفة، حتى هذا العصر الذي نعيش فيه."[1].

وبعد نظرة تحليلية لأهم محطات الكتاب، ومفاصله الرئيسة، ووقوف سريع عند أهم المراحل الحاسمة في تاريخ العربية يعود محمد يوسف موسى إلى الثناء الحسن على الكتاب مبرزا مواطن القوة، ونقاط التميز الدراسي للقضايا المطروقة، والموضوعات المطروحة " فهذا الكتاب النفيس الذي يسر جماعة الأزهر للنشر والتأليف أن عنيت بـ نشره – زاخرٌ بالمعارف الجمة، والعروض واسعة المدى واسترسال طويل النفس، ثري بالملاحظات الصائبة والتحليل الدقيق، والدراسات المتنوعة الألوان، في قوة وعمق للغة العربية وتطورها في مادتها ولهجاتها وأساليبها منذ ظهور الإسلام إلى العصر الحاضر وللأستاذ المؤلف "يوهان فك" تاريخ حافل في خدمة العربية، وتجديد معالمها، ومن آخر ما عرفنا توفره عليه، وتنوعه فيه في دراسته وتحقيقه: كتاب الفهرست لابن النديم، وقد ذكر له ذلك وأثنى عليه العالم المؤرخ: "الدوميللي" "Aldo.Meilli " في " La science arabe et son rol dans

[1] - نفس المرجع، ص 27- 28.

l'évolution scientifique mondiale" كما أن سلامة أحكامه، وصحة نتائجه ومقدماته، كما يعرضها في هذا الكتاب أصدق شاهد على تضلعه، وتخصصه دهرا طويلا في هذه الناحية من علوم الاستشراق ."[1]. والكتاب كما هو مبين في مقدمة الترجمين مهدى إلى أستاذ العربية القديم المستشرق الألماني "أوجيست فيشر"، وقد سبق أن ترجمنا له . فهو واحد من كبار نوابغ المدرسة الألمانية الذي كان له الفضل في بلورة الدراسات العربية نتيجة عمل دقيق أساسه الصبر الجليد، والهمة القعساء، وهو ما زاد من نفاسة هذه البحوث اللغوية عند "يوهان" وغيره، وأعلى من قيمتها، وهذا هو المعهود عند المستشرقين الألمان في رأي كثير من الباحثين أن من مزاياهم الدأب المتواصل، والنشاط الحثيث في كل ما يباشرون من أعمال، مع بناء خلفهم على سلفهم، واستكمال آخرهم ما بدأه أولهم، فتقدم العلم على أيديهم خطوات ظاهرة ملموسة في كل ما يكتبون، وينحزون على تعاقب الأجيال.

ولم يحظ كتاب "العربية" بدراسة وافية فيما يبدو، رغم أنه يحتل مكانة مرموقة في الدراسات اللغوية التي أنشأها المستشرقون في العصر الحديث، فالكتاب يعرض بكل اقتدار لمسائل بالغة التعقيد تتصل بتاريخ العربية وتطورها، ولهجاتها مما تنوء به جهود العصبة من أولي العـ زم وأهل الذكر . وهو بحق رائد الدراسات التطورية عند الدارسين من عرب ومستشرقين على حد سواء . إنه كما ذكرنا تعليق "شبيتالر" "A.spitaler" نوع من تأريخ التطور للعربية، أو على وجه الدقة للعربية المولدة.

لقد أتيح لهذا الكتاب من المادة الفنية والتحليل العميق، والمـ نهج العلمي الصارم، ما جعله ينأى على أن يكون مؤلفا وقتيا .. ومن هنا تأتي أهمية الكتاب الذي غدا واحدا من المراجع التقليدية في الدراسات اللغوية الحديثة، وكان من حسن حظ الكتاب أن قيض له أن يترجم إلى العربية، اللغة إلى درسها وأراد خدمتها ."[2]. ومع ذلك فإن هذا الكـ تاب شأنه شأن أي جهد إنساني لا يخلو من نقد، وإعادة نظر في

[1] - المرجع السابق، 29.
[2] - أحمد محمد قدور، اللسانيات وآفاق الدرس اللغوي، دار الفكر، دمشق، ط1، 2001، ص 221.

بعض الجوانب التي تعرض لها، لاسيما وقد مر على ظهوره أكثر من نصف قرن، والحاجة ماسة لوضع مشكلة التطور التي عالجها الكتاب موضع البحث المدقق. ومن اللافت للنظر أن يجد الدارس معظم الباحثين العرب المحدثين يقبلون على الإفادة منه دون أن يحظى بدراسة تتناول النظرية التي بني عليها الكتاب . " والدارس المنصف يقر "ليوهان فك" يصدق النظرة والتزام الحيدة، وتفهم الكثير من مشكلات العربية دون أن يظهر عنده ذلك الروح الاستشراقي المنطلق من العداء أو الاستعلاء."[1].

وقد وجه أحمد محمد قدور بعض النقودات في دراسة خص بها كتاب "العربية" ليوهان فك ووقف طويلا عند مفهوم "العربية المولدة" من حيث ضبط هذا المصطلح، ويبدو في نظره أن "فك" خانه التوفيق في تحديد هذا المفهوم : " حيث يرى أن العربية المولدة ظهرت بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم مباشرة عن طريق الفتوحات الإسلامية عندما احتكت العربية بمواطن لغوية أجنبية، وهذا التحديد يخالف إجماع اللغويين القدامى الذين جعلوا "المولد" مرتبطا بالدلالة اللغوية الناشئة من ظهور أجيال محدثة غلب عليها اختلاط الأعراق، وقد حددوا بداية لهذا "المولد" تتأخر عن التاريخ الذي افترضه "يوهان" بنحو قرن ونصف.. فما ارتآه يخالف الدلالة اللغوية "للمولد"لأنها لم تكن قد دلت على الأجيال الجديدة حين خرج العرب بعد وفاة الرسول من الجزيرة . ولأن شيوع الظواهر المولدة في القرن الأول لم يكن يتجاوز الأمثلة اللحنية التي لم تتعد أن تكون ظواهر فردية . على حين شهد القرن الثاني توسع اللحن وانحراف اللسان الفصيح لاسيما عند المولدين ممن لم ينشئوا في البداية."[2]. ويرى أحمد محمد قدور أنه لا جدوى من الملحق الذي ألحقه المؤلف عن كلمة اللحن مادة واشتقاقا وتطورا إذ الكتاب في حقيقته دراسة للعربية المولدة، وليس دراسة لظاهرة اللحن [3]. ولسنا نشاطر هذا الرأي، على اعتبار أن البحث في ظاهرة التطور للعربية الفصحى لا ينفك بحال من الأحوال عن دراسة اللحن، لأن الدارس

[1] - نفس المرجع، ص 222- 223.
[2] - نفس المرجع، أحمد محمد قدور ، اللسانيات وآفاق الدرس اللغوي، ص 228- 229.
[3] - نفس المرجع، ص 229.

للمراحل التاريخية للعربية سوف يصطدم حتما بحركة التنقية اللغوية، ولا يمكنه أن يتجاوزها.وقد ألمحنا من قبل أن دراسة التطور اللغوي في ضوء حركة التصويت والتخطيء أو دراسة اللحن على ضوء التطور اللغوي مفيد جدا في الدراسة اللغوية الحديثة فقد يعين على تفسير وتعليل الكثير من الظواهر اللحنية في العربية سواء على مستوى اللفظ أو الدلالة ولعله يخفف من غلو طائفة المسرف ين في التخطيء اللغوي. ولذلك نحى بعض اللغويين في دراساتهم إلى المزج بين اللحن والتطور اللغوي كالدراسة القيمة التي قام بها رمضان عبد التواب في كتابه "لحن العامة والتطور اللغوي"أفرد بعد ذلك لظاهرة التطور اللغوي، دراسة وافية في كتابه : "التطور اللغوي ومظاهره وعلله وقوانينه "، وكتاب "لحن العامة في ضوء الدراسات اللغوية الحديثة" لعبد العزيز مطر.

كما انتقد "فك" في بقاء عدد من المصطلحات دون تحديد إلى حد التداخل فيما بينها كالعامي والأعجمي، والمولد، واللحن، والعربي القديم، والإسلامي "وضرورة اقتصار المؤلف على كلمة (المولد)، وترك كلمة (العربية) ضمن مصطلحه المفضل، لأننا ننكر وجود هذه العربية المولدة خلافا لحلمي خليل في كتابه : "المولد"[1] الذي عدها المرحلة الثالثة من مراحل العربية، إذ سبقتها المرحلة السامية، والعربية القديمة من جهة، وتلتها العربية الحديثة من جهة أخرى ."[2]. وينكر أحمد محمد قدور على "فك" وجود هذه العربية المولدة " لأن الموجود حقا هو العربية الفصحى التي اعترتها مظاهر التغير، والتي يمكن أن تشير إليها كلمة (المولد)، فهذه الفصحى إذن تعرضت بعد القرن الأول لضروب من المولد على صعيد زيادة الثروة اللفظية، والتغير الدلالي، والتجديد الأسلوبي، بعد بقاء الأنظمة الصوتية، والصرفية، والنحوية والدلالية والمعجمية مستمرة الشكل والملامح للاستعمال الفصيح أدبا وحديثا، مشافهة ومكاتبه، وعندما نقول إنها : فصحى تعرضت للمولد، نخرج سائر المستويات الأخرى كاللهجات العامية والرطانات الأعجمية التي بدأت زمن الفتوحات ثم توسعت

[1] - حلمي خليل، المولد في العربية، دراسة في نمو اللغة العربية وتطورها بعد الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، ط2، 1985، ص 541، 542.

[2] - أحمد محمد قدور، اللسانيات وآفاق الدرس اللغوي، ص 230- 231.

بعد ذلك."[1]. ويبدو أن "يوهان فك" قد استعمل مصطلح (العربية المولدة) بشكل غير واضح، فما ذكره حوله ينطبق على اللهجات الدارجة وهي طاقة لغوية تختلف عن الفصحى بكل مستوياتها . ولذلك سوف نحسم هذه المسألة لاحقا عند دراستنا لظاهرة التطور في كتاب "العربية" باستبعاد المستوى اللهجي والتركيز على مستوى الفصيح مخافة الوقوع في إشكال منهجي على اعتبار أن الكتاب دراسات في اللغة واللهجات والأساليب.

ومما أنكر على "يوهان فك" أيضا أنه جعل اللحن مظهرا من مظاهر العربية المولدة، وجزءا منها، والخلاف بينهما واضح حيث يرى بعض الدارسين " أن عناصر هذا المولد بقيت ضمن إطار العربية الفصحى فالمولد اتجه إلى الوفاء بمتطلبات التطور اللغوي ملاحظا أو غير ملاحظ لأنه يجرى مجرى كلام العرب، ولمبلغ الحاجة إليه ولاسيما في التطور العلمي والثقافي، ولو أن الدارس قبل بآراء اللغويين التي تفرض هذا المولد نظريا لما استطاع أن يقف على مصطلح واحد دون ملاحظته أنه مولد فعلا . لذلك يفترض أنه استمر يجرى في الفصحى زمنا، لأنه ظاهرة تطورية تجعل اللغة تواكب الزمن والمجتمع والثقافة."[2].

وصفوة القول أن "فك" استطاع بمهارة وعمق نادرين أن يجمع أشتاتا غير مؤتلفة من النصوص والآراء المتنوعة لينشئ منها تاريخا لتطور العربية ونشأة لهجاتها وخاض معتركا صعبا وهو : تاريخ التطور اللغوي، ولعله من أوائل السالكين المحدثين، ومعلوم أن دراسة التطور اللغوي عمل شاق، وأكثر تشعبا، ولذلك نجد لهذا المجازف عذرا حين اضطرب عمله في بعض جوانب الكتاب في نظر بعض النقاد، وهم قلة الذين تناولوا كتابه بالفحص والتمحيص، وتبقى الدراسة الوافية لمعالم التطور في العربية عامة ما تزال ضربا من الظفر بعنقاء مغرب، مع الافتقار إلى نضج المنهج وجمع المواد الدالة على التطور باتساعها وتعدد جوانبها، وثقل القضايا التي عالجها كتاب ككتاب "العربية" الذي بين أدينا .

---

[1] - نفس المرجع، ص 233.

[2] - المرجع السابق ، ص 236.

الفصل الثالث: آليات التطور اللغوي عند "يوهان فك"

1) عوامل التطور اللغوي عند "يوهان فك"
2) مظاهر التطور اللغوي ومستوياته عند "يوهان فك"

تمهيد

إن كتاب "العربية" قد تناول اللغة العربية من منظور تاريخي تطوري كما ألمحنا إلى ذلك من قبل، ومن الضروري أن يحاط هذا التطور اللغوي مجموعة من الآليات والعوامل التي تلمح من خلال المراحل التاريخية التي تناولها "يوهان فك" في كتابه المذكور، وفي هذا الفصل نحاول تسليط الضوء على عوامل التطور اللغوي عند يوهان فك، ثم نتحدث عن مستويات التطور اللغوي ومظاهره عنده.

1.عوامل التطور اللغوي عند "يوهان فك"

في مستهل التعرض لتاريخ العربية يؤكد "يوهان فك" على أثر الإسلام في حياتها، وفضل القرآن في مـ ستقبلها وتوسعها حتى صارت لغة الحضارة بعد حركة الفتوحات الإسلامية، وهذ ەمسألة مفصلية وذلك أن دراسة تاريخ العربية لا يمكن معهيبتغياالقرآن والدين كأحد العوامل الرئيسية في تطور العربية ، وهذا الحكم الصادر من مستشرق خبر عربيتنا بعناية فائقة، فيرى أنه ما كان لهذه اللغة أن يكتب لها الانتشار والانتصار لولا الإسلام الذي سماه الدين الجديد الذي جدد للعربية الحياة ونفخ فيها الروح " **فزحفت مع الفاتحين البدو فاستقرت في بعض أقاليم الدولة العربية الفتيةواضطرت إلى الانسحاب بـ خآرة من بعض آخر** "[1]. بل أحيت العربية ما لبي من لهجات على مر الزمن في بعض المناطق، ثم يشير "فك" إلى صمود العربية رغم سقوط الدولة الأموية، حتى جاء عصر الازدهار في الفترة العباسية الذي شهد أقصى درجات العناية بالعربية لما أحيطت بقواعد النحو، فبالرغم من انحلال الدولة إلى دويلات مستقلة، فلم تتزعزع مكانتها، حتى غدت العربية الفصحى نموذجا مفروضا " **ومثلا أعلى يقتفيه كل كاتب عربي جعلت من العسير أن نحصل على صورة واضحة للنمو والتطور الذي أصاب العربية ككل لغة حية في مدة تربو عن 1300 عام**"[2]. فهو يشير إلى صعوبة دراسة التطور اللغوي ورصد مظاهره بسبب التماسك الوثيق في نظام العربية رغم الأحداث التاريخية التي تقلبت فيها والتي

[1] - يوهان فك، العربية، ص13.
[2] - نفس المرجع ، ص 14.

ما كان يكتب لغيرها هذا الصمود، والخلود، وهو ما أسماه يوهان " **بعقيدة اللغة العربية الفصحى**".

ثم أشاد بجهود النحاة العرب وتضحيتهم الجديرة بالإعجاب في عرض اللغة الفصحى في جميع مظاهرها من ناحية الأصوات والصيغ، وتركيب الجمل، ومعاني المفردات بصورة محيطة شاملة " **بحيث بلغت القواعد الأساسية عندهم مستوى من الكمال لا يسمح بزيادة لمستزيد** "[1]. ومن العوامل التي أشار إليها وكان لها الأثر الواضح على تطور اللغة العربية ما يلي:

1. انتقال العربية بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مواطن لغوية أجنبية

وهو ما عبر نظنه بالاحتكاك اللغوي الذي تتأثر به اللغات عند التجاور والاختلاط، " **فقد بدأ التطور إلى العربية المولدة حينما انتقلت العربية بعد وفاة الرسول** (عليه الصلاة والسلام) **مباشرة عن طريق الغزوات الكبرى في العهد الإسلامي الأول إلى خارج حدودها القديمة، في مواطن لغوية أجنبية** "[2]. وقد كان هذا الانتقال عسكريا عن طريق الفتوحات التي مهدت لأن تبسط العربية نفوذها من غير قهر على البلاد المفتوحة، فلم يؤثر عن الفاتحين أنهم أكرهوا الشعوب على التكلم بلغتهم فقد كان الهدف الأول نشر الإسلام . " **وكانت هجرة القبائل العربية عقب وفاة الرسول** صلى الله عليه وسلم **إيذانا بشروق عصر جديد للغة العربية حيث تغلغلي مناطق كانت تستوطنها لغات أخرى، لم يكن لـ يحدث دون تأثير أو تغيير، وإن اختلفت نتائج هذه العلاقات الجديدة حسب الأحوال اختلاف في مظاهرها وظواهرها**"[3]. ومنطق الغلبة العسكرية يسري على جميع الأحوال بين الغالب والمغلوب "المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه، ونحلته وسائر أحواله وعوائده ويرى المغلوب يتشبه بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها"[4].

---

[1] - نفس المرجع، ص 14.
[2] - نفس المرجع، ص17.
[3] - نفس المرجع ، ص 18.
[4] - ابن خلدون، المقدمة، تح خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، 2004، ص 149.

ومن مظاهر هذا الاحتكاك بين طوائف كان لها الأثر البين في تكييف العلاقات اللغوية وتغييرها كالتي التحقت بالجيش من غير العرب، من عبيد وخدم، وتجار وغيرهم فخلقوا مشكلة لغوية غير هينة " **فلتقريب التفاهم عند الضرورة استعانت لغة التخاطب بأبسط وسائل التعبير اللغوي، فبسطت المحصول الصوتي، وصوغ القوالب اللغوية ، ونظام تركيب الجملة، ومحيط المفردات، وتنازلت عن التصرف الإعرابي، واستغنت بذلك عن مراعاة أحوال الكلمة وتصريفها كما ضحت بالفرق بين الأجناس النحوية، واكتفت ببعض القواعد القليلة الثابتة عن مواقع الكلمات في الجملة، للتعبير عن علاقات التركيب** "[1].هذه الفئات وغيرها اضطرت إلى استعمال لغة السادة ولهجتهم فعانت العربية على ألسنتهم تغيرات مسخت صورة وقعها وجرسها وطبيعة تكوينها، وتركيبها، وهذا تطور يقول عنه "فك" "**غير معلوم التفاصيل بسبب انعدام أخبار المعاصرين، بيد أن المؤلفات المتأخرة عن ذلك قد حفظت لنا مقدارا كبيرا من الأ خبار عن الأخطاء اللغوية، التي وإن كان كل منها على التفصيل ليس بذي قيمة خاصة، إلا أن في مجموعها تؤكد نوعا من السمات يمكن أن نعتبرها طابعا مميزا لهذا التطور** "[2]. هذه الأخطاء اللغوية ألف فيها اللغويون تحت مسمى كتب لحن العامة. والخروج عن العربية الفصحى من غير العرب الذين احتكوا بالعربية يعتبر مظهرا من مظاهر التطور اللغوي وقد وصف "يوهان فك" العلاقات اللغوية في البصرة والكوفة باضطراب اللسان الفصيح بسبب احتكاكه بالفارسية وغيرها، حيث وفد على هذه العوا صم الهامة سيل من التجار والصناع، والأسرى.. فبسطت الفارسية نفوذها، وأثرت في العلاقات اللغوية . ذكر الجاحظ[3] طائفة من الأمثلة ظهر فيها هذا الاضطراب.

وقد اصطدمت العربية بلغات أخرى فحدث لها في مصر كما حدث لها في العراق " **فظلت مقصورة باديء ذي بدء على المعسكرات والمناطق التي اختارتها**

---

[1] - يوهان فك، العربية، ص 20.
[2] - نفس المرجع، ص 21.
[3] - ينظر الجاحظ ، البيان والتبيين، ج1، ص 10.

العربية لتكون مراعى لسوامهم وكان للحقيقة الثا بتة، من أن أغلب المهاجرين العرب، قد تجمعوا من قبائل يمنية الأصل أثر حاسم في التطور اللغوي بهذ ه الأقاليم"[1]. وفرق "بوهان" بين تأثير الفارسية في العربية وتأثير القبطية فيها فكان الأول مرتفعا، بينما كان الثاني ضئيلا ، ونوه أيضا ببعض مظاهر الاحتكاك الذي واجه العربية في وقت مبكر فكان " **اقتناء السادة العرب للسراري والجواري، والتي يبيح النظام الوثني العربي لمالك الأمة معاشرتها معاشرة الأزواج، وقد احتفظ به الإسلام فصار سنة متبعة، أن تنظم الأسارى من النساء إلى حريم سا داتهن، وهكذا سرعان ما نشأ في بيوت السادة العظام من العرب جيل بين أمهاته كثيرات من غير العربيات وكان لابد أن يترك ذلك أثرا بعيد المدى على العلاقات اللغوية"**[2].

2. الميل إلى السهولة والتيسير

أشرنا من قبل أن " اللغة في تطورها تميل نحو السهولة والتيسير، وتستبدل أصواتا بأخرى، فتحاول التخلص من الأصوات العسيرة، اختصارا للمجهود العضلي الكبير، كما أنها تتفادى التر فريبات المعقدة، والأنظمة المختلفة للظاهرة الواحدة "[3]. وهو ما عبر عنه بالمصطلح اللساني : "الاقتصاد اللغوي" ويعتبر "فك" " **أن غير العرب يستبدلون بأصوات عربية معينة، أخرى أسهل عليهم، فكان من الشاق العسير على الأ جانب الذين اضطروا إذ ذاك إلى استخدام العربية، أن يتابعوا القواعد والنظم المعقدة للجملة العربية القديمة، فآثروا التصرف بواسطة أساليب التعبير التقريبية التي اعتادوها في لغاتهم الأصلية** "[4]. وبذلك تصبح لغة هؤلاء مستوى من مستويات الاستعمال اللغوي، و من هنايذهب كثير من علماء اللغة إلى أن كل ما نكتشفه من تطور في اللغة ليس إلا أمثلة لنزعة اللغات إلى توفير المجهود الذي يبذل في النطق، وأن هناك استعدادا للاستغناء عن أجزاء الكلمات التي لا يضر الاستغناء عنها بدلالتها . " وليس معنى هذا أن قانون السهولة والتيسير، ينطبق على

[1] - يوهان فك، العربية، ص 32.
[2] - نفس المرجع، ص 33.
[3] - رمضان عبد التواب، التطور اللغوي، 85.
[4] - يوهان فك، العربية، ص 21.

كل الحالات، وإنما يمكن تطبيقه على كثير من التطورات الصوتية في اللغة، فإذا وجد الباحث أن التطور الصوتي كان عكسيا، أي من السهل إلى الصعب ــ كما وجد فعلا في بعض الحلات ــ فعليه أن يبحث عن أسباب أخرى تبرز هذا التطور وهو لاشك سيجدها في ظروف خاصة باللغة، التي قد يحدث فيها هذا النوع من التطور، فليس ينقض هذا القانون أن نجد أحيانا أصواتا سهلة، تطورت إلى أصعب منها في بعض الحالات"[1].

ومسألة الاقتصاد اللغوي كما يفضل بعض الدارسين مسلك تعبيري ناقشه العرب القدامى، وتداولوا المصطلح نفسه حيث نجد ابن الأثير قد أفرد بابا سماه "في الاقتصاد والتفريط والإفراط " يقول: " إعلم أن هذه المعاني الثلاثة من الاقتصاد والتفريط والإفراط توجد في كل شيء من علم وصناعة وخلق، ولابد لنا من ذكر حقيقتها في أصل اللغة .. والاقتصاد من القصد وهو الوقوف على الوسط الذي لا يميل إلى أحد الطرفين، ومنه قوله تعالى : (فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرافظ)م النفس والسبق بالخيرات طرفان والاقتصاد وسط بينهما . وقد نقلت هذه المعاني إلى علم البيان، وعليه يكون اقتصاد اللغة هو أن يكون المعنى المضمر في العبارة على حسب ما يقضيه المعبر عنها في منزلته."[2].

وقد ذكر الباحثون نماذج كثيرة لظاهرة الاقتصاد اللغوي رغم أنها لم تحظ بما تستحق من عنايتهم منها : "1. الميل إلى استخدام الوسائل اللغوية باقتصاد فكل وحدة من وحدات اللغة؛ حرف أو كلمة أو جملة ينالها التقليل من الجهد العضلي والذهني اللازمين لإنتاج الكلام كحذف بعض الصيغ غير الضرورية، أو المعروفة كالإجابة عن السؤال التالي : من فعل هذا؟ أو من وراء الباب؟ فيكون الجواب مباشرة دون إعادة الفعل ثانية: زيد أو عمر، وكالجواب بنعم أو لا.

[1] ـ تمام حسان، اللغة بين المعيارية والوصفية، ص 45- 47.
[2] ـ ابن الأثير، المثل السائر، تح محمد عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 ، 1998، ج2، ص 298-299.

2. بذل الجهد لتحسين كفاءة الوسائل اللغوية حيث تخضع الوحدات اللغوية للتطوير والتعديل لتؤدي خدمات متعددة، ويتم اختيار اللفظ الملائم في أقل تكلفة، وتنويع الأساليب بحسب متطلبات الظروف.

3. الميل إلى إزالة الاختلاف في الأنماط الاجتماعية، من أجل استجابة أفضل للحاجات التواصلية، ويقصد به التوسيع الاقتصادي في مجال اللغة الموحدة، وإلغاء الأساليب المكلفة كالتعبير عن المسميات الطويلة بأسماء مختصرة كأسماء الأدوية والشركات وغيرها."[1].

وللاقتصاد اللغوي شروط وضوابط، متى تحققت في أي عملية تواصلية فقد تم توفير الجهد وهي مرتبطة ببعضها بشكل متلازم وهذه الضوابط أشار إليها بعض الباحثين في" ضرورة إقامة الموازنة بين توفير الوقت والجهد والحفاظ على الوضوح" خلال هذا التعريف نستخلص ثلاثة شروط للاقتصاد اللغوي وهي :

1. تقليل الجهد: وهو الجهد الفزيولوجي والذهني بحيث يرسل المرسل خطابه فلا يجهد نفسه إلا بالقدر الذي يؤدي الغرض المطلوب، ويفهم السامع المقصود.

2. توفير الوقت: فبالإضافة إلى اقتصاد الجهد العضلي والذهني يتبعه اقتصاد في الوقت.

3.الحفاظ على الوضوح : وهو أحد شروط العملية التواصلية، فإذا ما تعارض الاقتصاد اللغوي مع وضوح الرسالة، وإفهام المتلقي فالأولى للوضوح وإن تطلب ذلك بذل جهد ووقت إضافيين."[2].

ويعتبر الاقتصاد اللغوي ظاهرة لها علاقة وثيقة بعملية التواصل، ولا يخلو التخاطب بين البشر من الاقتصاد في اللغة شعروا بذلك أم لم يشعروا، تقصدوا ذلك أم لم يتقصدوه . والاقتصاد اللغوي خادم للغة لأن المتكلم يستخدم في تواصله مع غيره ما يكفيه من الطاقة لأن اقتصاد اللغة نتيجة للحاجة إلى الاقتصاد في الكلام

[1] - غربي بكاي، الاقتصاد اللغوي وفعالية الاتصال، رسالة جامعية بإشراف أحمد عزوز، جامعة وهران، 2006/2005، ص 36.
[2] - نفس المرجع، ص 37.

فهناك مواقف تحتاج إلى جملة، وأخرى تحتاج إلى كلمة وثالثة تكفي فيها لمحة أو إشارة. والاقتصاد في خدمة جهاز النطق الذي لا يقوم بإحداث الأصوات فقط بل له وظائف أخرى يساهم الاقتصاد اللغوي وبشكل واضح في الحفاظ على نشاط وسلامة الجهاز الصوتي وعطاءه لأنه كبقية الآلات يحتاج إلى صيانة وتزويد باستمرار .

"والأصوات العربية تشغل مدارج واسعة المدى في الجهاز الصوتي، فهو يمتد من قمة الحنجرة إلى الشفتين، ويمثل مجالا ظاهرا لاستيعاب أصوات الطبيعة في تنوعها وسعتها، وممارسة جميع الأصوات الإنسانية في التعبير وهذا ما نفتقده في لغات حية أخرى إذ ينحصر أداؤها في نطاق أضيق . وهذا الاتساع له أثر ظاهر في التيسير اللفظي حين صياغة المفردات والتراكيب، لأنه يفتح مجالا للتنقل بين مدارج وأحياز متنوعة متباعدة تسهل النطق والتعبير، ذلك أن توالي الأصوات يستفيد حين الأداء من هذه الأدراج والأحياز الموزعة لانسياب الأصوات بعيدا عن التقارب والتداخل فيخفف المتكلم كثيرا من الجهد وهو ضرب ظاهر من الاقتصاد اللغوي . وعليه يتضح أن جهاز النطق يصاب بإرهاق شديد أثناء أداء وظيفته رغم هذا التوزيع المعجز للحروف على مخارجها، خاصة إذا طال الكلام، وعندها يفضل الاقتصاد في أي عملية كلامية لتوفير الجهد، وحسن استخدامه واستثماره في أوقات أخرى كلما دعت الحاجة."[1].

3. الانتقال من حياة البداوة إلى حضارة المدن

وفي ذلك يقول "فك": " **وهذا التطور في الأسلوب الذي نستطيع ملاحظته عند ابن المقفع و بشار بن برد آذن بشروق عهد جديد في تاريخ اللغة العربية، دعا إليه الانتقال من حياة البداوة إلى حضارة المدن**"[2]. ويصف أسلوب ابن المقفع وبشار كنماذج من النثر والشعر وتطور لغتهما رغم العقبات الكؤود التي تقف في طريق كل تطور في الأسلوب " **فاللغة التي كتب بها ابن المقفع ليست هي العربية**

[1] - المرجع السابق، ص 109-110.
[2] - يوهان فك، العربية، ص 67.

قديمة، فبموازنة هذه بتلك نجد لغة ابن المقفع سويـ ة شفافة مبسطة حسب أغراضها، وبدلا من الثروة الفياضة في الكلمات البدوية القديمة، التي تجمع التنوع المتعدد الألوان لعالم الظواهر، مع حشد من السمات التي تصور مثلا فروق الحيوان والأعمار والأجناس .تكتفي لغة ابن المقفع إلى حد بعيد بالتعبيرات العامة. وتصوير الخصائص البارزة بعبارات متقاربة، كما يعرب استعماله اللغوي في دائرة تركيب الألفاظ وصياغتها، عن طموحه الدائم إلى التبسيط الموائم للغرض.ونجد تركيبه النحوي واضحا شفافا. يتجنب عبارات التعجب والاستغاثة القصيرة المتعددالدلالة في صيغها الاسمية والحرفية . وما شاكل ذلك مما يستفيض في لغة البدو "[1]. ويسترسل في ذكر الخصائص الأسلوبية في نثر ابن المقفع مدللا بذلك على ما حدث للغة من تطور على أيدي هؤلاء الأدباء والشعراء **والتغييرات التي تبدو في نثر ابن المقفع، بالنسبة للعربية القديمة، وجدت نظيرا تماما – في نطاق دائرة الشعر –في لغة معاصره بشار بن برد الذي وسم أسلوبه بالأناقة الواضحة، والبيان الناصع الشفاف، الذي نجده في نثر ابن المقفع سواء في اختيار الألفاظ، أم في تركيب الجمل، أم في تفضيل الأوزان القصيرة الخفيفة، حتى يمعن بشار في التحرر من الشعر القديم"**[2]. وهذا الانتقال من مستوى إلى مستوى مغاير له ماديا وأدبيا يترك ملامحه على اللغة " فقد كان لانتقال العرب من همجية الجاهلية إلى حضارة الإسلام، ومن ضيق المدينة في عصر بني أمية إلى الأفق العالمي الواسع في عصر بني العباس أجل أثر في نهضة لغتهم، ورقي أساليبها، واتساعها لمختلف فنون الأدب، وشتى مسائل العلوم"[3].

وظلت لغة البدو حتى القرن الثاني من الهجرة موضع إعجاب، وكان البدو حجة في أمور اللغة، وكان إليهم المرجع إذا اختلف النحاة، وكثيرا ما اختلفوا، وكان ارتباط الأمويين والعباسيين بالبادية متفاوتا مع نشدان كل منهما السلامة اللغوية

[1] - المرجع السابق، ص 65.
[2] - نفس المرجع، ص 65- 66.
[3] - علي عبد الواحد وافي، اللغة والمجتمع، ص 10.

والبحث عن تنشئة لغوية فصيحة " فالأمويون مرتبطون بالبادية مؤمنون بتنشئة الأبناء في بيئة لغوية بدوية، ولكن العباسيين آمنوا بضرورة إجادة الأبناء للعربية، غير أنهم لم يكونوا مرتبطين فكريا أو عاطفيا بالمجتمع البدوي، وأرادوا لأبنائهم حياة رغدة في قصور بغداد ومعرفة جيدة بالعربية، ولهذا ظهر الأعراب في قصور السادة الجدد يعلمون اللغة، وهكذا اختلفت الصورة، قديما كان الأبناء يرسلون إلى البادية، وفي القرن الثاني كان الأعراب يفيدون إلى القصور يعلمون اللغة ."[1].

وعكست المسألة فانتقلت البادية إلى المدن لتحافظ على ألسنتهم وتصلح فسادها .

وهكذا دخلت العربية عصر الثقافة الإسلامية حيث كانت لغة بعض القبائل البدوية فصارت لغة الدولة، وكانت لغة الحياة اليومية البسيطة فأصبحت لغة العلوم وأداة حضارة راقية. "وعندما كانت لغة بعض القبائل البدوية في شمال ووسط الجزيرة، كانت تعيش دون موقف مدرسي أو تقنين نظري، كانت في مرحلتها البدوية المتأثرة بما تتأثر به الحياة اللغوية ولكن خروج القبائل مع الجيوش الفاتحة معربة الأقاليم المفتوحة أحدث تغيرا لغويا، وظهرت عند المستعربين ظواهر جديدة أزعجت الحس اللغوي للمعجبين بالعربية البدوية، والمنبهرين بالنموذج اللغوي القرآني . فخرج اللغويون لجمع اللغة من القبائل الفصيحة، ورفضوا أخذها عن غيرهم، وكان مجتمع الشام والعراق يريد العربية، ولكن إعجابه بالبداوة وبحياة البادية قل مع الأجيال التي لم تعرف حياة البادية، لقد أرادوا العربية وحياة الحضارة."[2]. ومن حيث أرادوا الحضارة ضيعوا كثيرا من صفاء اللغة ونقائها، وكان عليهم أن يدفعوا ثمن ذلك حتى تلاشى ما كان يسمى بلغة البادية المرجع والحجة.

4. الاستعمال وأثره في التطور اللغوي

للاستعمال دور فعال في نمو اللغة وتطورها شريطة ألا يكون خارجا عن الأعراف اللغوية السليمة . والاستعمال أداة أو آلية يمكن أن يبرر بها الكثير من الظواهر اللحنية، وأن يحيلها إلى لغة مقبولة متداولة، فما يراه المتشددون في

[1] - محمود فهمي حجازي، علم اللغة العربية، دار الثقافة، القاهرة، (د،ت)، ص 251- 252.
[2] - نفس المرجع، ص 255-256

التصويب والتخطيء اللغوي لحنا يفسح له الاستعمال والشيوع باب القبول والصحة اللغوية فيخرج من دائرة اللحن إلى فضا ء التطور. ويؤكد يّوهـان فـك " علـى أن **"النحاة قد رفضوا دائما الاعتراف بالصيغ الجديدة فهذا سبويه يحكم على مـصائب بدلا من مصاوب (جمع مصيبة) بأنه خطأ. ورجال التنقية المتزمتون تمسكوا دائما بذلك المبدأ فأبقوا الواو والياء في صيغة الجمع على حالهما في الأجوف . على أنه في الاستعمال اللغوي قد ظهرت بكثرة مستفيضة صيغ جديدة مهموزة بحيـث رأى بعض البعيدي النظر من علماء اللغة، ضرورة الاعتراف على الأقل بمصائب ومنائر بعدهما شاذين قياسا، وإن كانا مطردين في الاستعمال جمعين لمصيبة ومنارة"**[1].

ويفرق "فك"بين تيار الـ متشددين، وتيار المتساهلين في التـ نقية اللغوية، وهـو ينكر على التيار الأول وكأنه يوحي إلى انتمائه إلى فريق المتساهلين في التـصويب اللغوي لاعتقاده الشديد أن اللغة يحكمها قانون التطور . كيف وقد انفرد بهذه الدراسة التطورية العربية في هذا الكتاب . وقد أشار أيضا إلى "**شدة إنكار البطليوسي علـى ابن قتيبة لأنه احتضن مذهب الأصمعي المتطرف في تنقية اللغـة دون أن يعنـى بمذاهب الثقات الآخرين من علماء اللغة ولو على سبيل العرض**"[2].

5. الاحتكاك اللغوي

إن احتكاك اللغات ضرورة تاريخية، وهو يؤدي إلى تـداخلها إن قلـيلا أو كثيرا، ويكاد اللغويين يـ خومون بأن التطور المستمر للغة من اللغات، وهي منعزلـة عن كل احتكاك وتأثر خارجي، يعد أمرا مثاليا أو مستحيلا، ذلك لأن الأثـر البـالغ الذي يقع على إحدى اللغات من لغات مجاورة لها كثيرا ما يلعب دورا هامـا فـي التطور اللغويمن نتائج هذه الاحتكاك أن وفد تعلى العربية ألفاظا جديدة سما ه بعض اللغويين بالمستعار من اللغات أو سياحة الألفاظ . وقد أشار يوهان فك إلى هذا العامل وهو يشيد بملكـ ة الجاحظ الراسخة، وأسلوبه الخصيب لاسـيما فـي البيـان والتبيين. " **الذي انتبه إلى ازدواج اللغات، فالعربية والفارسية تختلفان، فإذا التقتـا**

[1] - يوهان فك، العربية، ص 78- 79.
[2] - نفس المرجع، ص 99. وينظر أيضا للبطليوسي الاقتضاب، ص 106 وما بعدها.

في اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضيم على صاحبتها "[1]. وهذا تعبير على التأثر الشديد بين اللغات إذا تجاور ت واحتكبعضها ببعض تحت أي ظـرف كـان سلما أو حربا. وبقدر خطورة ذلك الغريب اللغوي الوافد المهدد لكيان العربية، والذي دعا في فترة ما إلى قيام حركة مضادة تدعو إلى الأحياء والبعـ ث وإدراك التـراث القديم قبل الزوال والأفول، ومنه بعثت حركة التـ نقية اللغوية من جديد، إلا أن هـذا الرصيد اللغوي الدخيل قد مكن العربية من الانفـ تاح الحذر على اللغـات الأخـرى، فنشطت حركة التعريب من خلال منهج واضح المعالم ووفق ضوابط وشروط مكنت العربية من الصمود في وجه المستعار من اللغات، تحملت مجامعنا اللغوية كفلا منه.

6. انتقال العربية الفصحى من السليقة والفطرة إلى التعلم والاكتساب

كان انحلال الدولة العباسية إلى أكثر من عشر دويلات مستقلة سنة 324 هـ مرحلة جديدة آذنت بعهد مميز للغة العربية، والتحرر من سلطان بغداد، لم يظهـ ر أثره على السياسة والاقتصاد في كل إقليم فحسب بل كان كذلك بعيـد الآثـار فـي الدوائر اللغوية. وانشطار الدولة الواحدة إلى أقاليم تبعه انشطار لغوي على مستوى الأصوات، والصيغ، وقواعد التركيب، والثروة اللفظية، وفقدت العربيـة الفـصيحة جبلتها، وفطرتها وظهرت فصاحة التعل م والطلب بعد فصاحة الفطرة والسليقة وعلى هذا الأساس يقول فك : " **فلم يعد من المستطاع أن ينشأ المرء ويترعرع مع العربية في بيئة لغوية حية، بل كان عليه أن يتعلمها كما يتعلم لغة ميتة داثرة .. وفي ذلك العهد كان يعد فصيحا من سلم من الخطأ في مراعاة الإعراب والتصريف، ولاحـظ قواعد العربية في صوغ الأ فعال والأسماء وتجنب العبارات الدارجة فـي اختيـار الألفاظ، وإذن فقد صارت الفصاحة وسلامة اللغة أمـرا محـصورا فـي الثقافـة المكتسبة**"[2].

ومن الحقائق العلمية أن الإنسان يخلق وهو مزود بقدرة على الكـلام، هـذه القدرة هي أساس السليقة التي اندثرت في مرحلة من مراحل الحياة اللغوية، والسليقة

[1] - المرجع السابق، ص 120، وينظر أيضا الجاحظ، البيان والتبين، ج1، ص 189.
[2] - يوهان فك، العربية، ص 174 وما بعدها .

عند علماء اللغة " قدرة أو مهارة لغوية راسخة في نفس صاحبها تمكنه من الأداء اللغوي الصحيح من غير تعلم، والتعلم الذي ينافي السليقة هو التعلم المقصود، أما تعلم الطفل بواسطة ما يسمعه أو يراه من والديه، وأهل بيئته فهو أهم روافد السليقية وقد فسرت السليقة بالفصاحة وهي اللغة التي يسترسل فيها المتكلم على سجيته وطبيعته من غير تعمد إعراب ولا تجنب لحن . وقد هب أئمة العربية بحسهم اللغوي المتمكن، وبالغيرة الدينية إلى تحديد عصر الذروة في قوة السليقية اللغوية ونقائها (وهو عصر الا حتجاج) بحدود قبلية، وزمنية ومكانية، وبذلك حققوا السليقية اللغوية العربية ما لم تتحقق لأية لغة أخرى، وحين ميزوا عصر الذروة فإنهم جعلوا اللغة فيه، ألفاظها، وعباراتها ودلالاتها وصيغها هي الصورة الصحيحة للعربية، والنموذج الأعلى الذي يكون محل القدوة، وعدوا ما خرج عن ذلك لغوا لا يعترف به"[1].

ولم تؤخذ اللغة إلا عن العرب الذين يوثق في عربيتهم، الذين لم يتأثروا بلغة أخرى، وكانت العربية هي لغة المنشأ عندهم فلم يأخذوها عن معلم، ونطقت بها بالسليقة أجيال من العرب منذ ظهور أول شاهد كشعر المهلهل وامرئ القيس حتى اختفت هذه ا لملكة العضوية غير الملقنة عن كافة الناطقين إلى نهاية القرن الرابع، وهذا ليس معناه أن الفصاحة اختفت بل معناه أن اكتسابها من سماع الناس فقط . مثل "استحوذ" يخالف القياس لكنها فصيحة لأنها سمعت من أكثر الفصحاء فضلا عن أنها وردت في القران . كما اعتمد اللغويون على مقياس الكثرة والشيوع في تحديد إطار السليقة، " فاللفظ الفصيح أو التركيب الفصيح هو الذي سمع بالفعل من الناطقين السليقيين وشاع بينهم شيوعا كبيرا، وكل ما قل استعمالهم له فلا اعتبار له، والكثرة درجات فالأفصح يتبع الكثرة فكلما قل العدد خفت درجة الفصاحة إلى حد الندرة وبه يخرج عن دائرة الفصاحة..هذه الفصاحة لها رقعة تحددها أي إحداثيات زمانا ومكانا من الناحية الجغرافية والتاريخية بالاعتماد على ما وصل من المعطيات اللغوية، أما الزمان فقد قسموا شعراء المجتمع بهم إلى أربع طبقات ولكل طبقة شعراؤها

[1] محمد حسن حسن جبل، الاحتجاج بالشعر في اللغة، دار الفكر العربي، القاهرة، 1986، ص14 وما بعدها.

المميزون فوقع الإجماع على الشعراء الجاهليين والمخضرمين، واختلف في شعر الإسلاميين، ورفض شعر المحدثين . وأما المكان فقد حددوا مضارب الفصاحة بدقة، وعينوا قبائل فصيحة اللسان كانت العمدة في القبول والرد فكان التوغل في البادية معيارا فىالسليقة ، فاعتمد البصريون كلام القبائل الساكنة في عمق الصحراء وردوا كلام القبائل المتاخمة للحواضر، في حين كان الكوفيون لا يتحرجون من الرواية عن الأعراب المتاخمة للمدن الذين دب إلى لغتهم الفساد."[1]. ولابن خلدون كلام دقيق عن الملكة اللغوية وكيفية تربيتها وهو يقترب مما سماه الأقدمون بالسليقة " فاللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة، إذ هي ملكات في اللسان، للعبارة عن المعاني وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة ونقصانها، وليس ذلك بالنظر إلى المفردات بل إلى التراكيب.. والملكات لا تحصل إلا بتكرار الأفعال لأن الفعل يقع أولا وتعود منه للذات صفة، ثم تتكرر فتكون حالا، ومعنى الـ حال أنها صفة غير راسخة، ثم يزيد التكرار فتكون ملكة أي صفة راسخة، وهذا معنى ما تقوله العامة من أن اللغة للعربي بالطبع أي بالملكة الأولى التي أخذت عنهم، ولم يأخذوها عن غيرهم، ثم فسدت هذه الملكة بمخالطة الأعاجم والسبب أن الناشئ من الجيل صار يسمع في العبارة عن المقاصد كيفيات أخرى غير التي كانت للعرب، فيعبر عن مقصوده لكثرة المخالطين للعرب من غيرهم، ويسمع كيفيات العرب أيضا فاختلط الأمر فأخذ من هذه وهذه، فأستحدث ملكة وكانت ناقصة عن الأولى."[2].

وفرق ابن خلدون بين الملكة والصناعة ذلك أن صناعة العربية إنما يكمن في معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة فهو علم بكيفية، لا نفس كيفية، كمن يعرف صناعة من الصنائع علما، ولا يحكمها عملا . وميز بين صناعة العربية عند أهل الأندلس والمغاربة في تحصيل هذه الملكة وتعليمها . " فأهل صناعة العربية بالأندلس ومعلموها أقرب إلى تحصيل هذه الملـ كة وتعليمها ممن سواهم، لقيامهم فيها على شواهد العرب، والتفقه في كثير من تراكيبهم . وأما ما سواهم من أهل المغرب

[1] - التواتي بن تواتي، محاضرات في أصول النحو، مطبعة رويغي، الأغواط، ط1، 2006، ص 111 وما بعدها.
[2] - ابن خلدون، المقدمة، ص 574.

فأجروا صناعة العربية مجرى العلوم بحثا، وتركوا التفقه في تراكيب العرب، إلا إذا أعربوا شاهدا أو رجحوا مذهبا، فأفاد ذلك البعد عن الملكة بالكلية، وإنما حصول ملكة اللسان العربي يكون بالحفظ من كلام العرب، حتى يرتسم في خياله المنوال الذي نسجوا عليه تراكيبهم فينسج عليه، فيتنزل بذلك منزلة من نشأ معهم وخالط عباراتهم، حتى حصلت له الملكة المستقرة في العبارة عن المقاصد على نحو كلامهم."[1].

وهكذا يعد انتقال العربية الفصحى من السليقة والجبلة إلى التعلم والاكتساب منعرجا خطيرا في حياة العربية، واضطراب معيار الفصاحة الذي أرسى قواعد الخلص من أئمة اللغة.

[1] - نفس المصدر، ص 580-581.

7. العامل الثقافي

نوه "يوهان فك" إلى دور العامل الثقافي في تطور اللغة وازدهارها، واتساع ميادينها، وأن أي انحطاط يصيب الأمة في ثقافتها وعلومها يحط أول ما يحط باللغة وأساليبها ومكانتها عند الناس في أذواقهم، وتعابيرهم، وعباراتهم ونوعية اللغة التي يتواصلون بها، ويكتبون بها إنتاجهم الفكري الذي يعبر عن مستواهم العلمي والحضاري، يقول "فك"**وكلما أخذت الرابطة التي كانت تربط بين جمع البلدان الإسلامية من ناحية الثقافة والعلم، تضطرب عراها، وتضعف أواصرها، بسبب الحروب المتتالية، ازداد الانحلال والانحطاط في المستوى اللغوي والثقافي العام، واستقل كل إقليم بثقافة خاصة، ولهجة لغوية محلية** "[1].حتى مبدأ تنقية اللغة اضطرب مساره عما كان عليه من قبل إما باختلاف الموضوع الذي يتناوله، أو باختلاف الثقافة اللغوية التي حصل عليها كل من كتب متمسكا باللغة الصحيحة الفصيحة، فإذا أثر المنحنى الثقافي في ارتفاعه وانخفاضه على حركة التنقية اللغوية، التي تعد الدعامة الأساس في بقاء اللغة العربية ونقائها، وعطائها فإنها تؤثر بالضرورة على نمو اللغة وتطورها، فقد بات من المؤكد القول بأن ظاهرتي اللحن والتطور في العربية يسيران جنبا على جنب، فلا يمكن دراسة أحدهما بمعزل عن الآخر، وإن ظل مهزولا لفترة طويلة عن القدامى الذين تصدوا لقيادة مبدأ التنقية اللغوية عندما ألفوا في اللحن العامة والخاصة . وهذا ما انتبه إليه المحدثون الذي مزجوا فيما كتبوا بين الظاهرتين، وكان "يوهان فك" من هؤلاء حيث لم يخفت صوت التنقية اللغوية في ظل الدراسة التطورية للعربية التي كانت الفكرة المحور لكتابه "العربية"أشرنا إلى ذلك من قبل، حتى ختمه بملحق حول مادة ل ح ن ومشتقاتها.

[1] - يوهان فك، العربية، ص 236-237.

8. اتساع دائرة الاحتجاج اللغوي وأثره على العربية

انحصر الاحتجاج إلى فترة ما في اللغة العربية على صحة قواعدها النحوية بالشعر الفصيح، والقرآن الكريم واستبعد الحديث النبوي عن هذه الدائرة تحت مبررات أثارها اللغويين، احتدم النقاش حولها من قبل بعض العلماء الذين كانوا لا يرون بأسا في الاستشهاد بالحديث الشريف . ولا يسعنا المقام لإثارة الموضوع من كل جوانبه، وبكل تفاصيله، وما يهمنا هو كيف أثر اتساع دائرة الاستشهاد اللغوي – حتى شملت الحديث النبوي على العربية وجعلها تلج مرحلة جديدة من تاريخها .

وقد أشار "فك" إلى ذلك فيقول : " **تلاشى الإحساس اللغوي تجاه سلامة اللغة كل التلاشي حتى عد بعض النحاة ظواهر لغوية مولدة، من اللغة الصحيحة الفصيحة، لمجرد أنها وردت عرضا في حديث ينسب على أي وجه إلى الرسول** صلى الله عليه وسلم **فقد أراد بعضهم أن يصحح العبارة التي و ردت في شعر رؤبة : "كاد أن يفعل" بدلا من الفصيحة "كاد يفعل" اعتمادا على أنها وردت في الخبر : " كاد الفقر أن يكون كفرا "[1] على أن أبا البركا ت بن الأنباري قد رد على ذلك بأن "هذا الحديث إن صح لم يرد في المجاميع الصحيحة فزيادة أن من كلام الـ راوي لا من كلامه عليه السلام لأنه أفضل من نطق بالضاد "[2] وعلى الرغم من هذا فقد لـ قي الرأي القائل بحجته الحديث في أمور اللغة تأييدا مطردا، ويقال أن أول من اعتمد على الأحاديث من حيث هي حجة في أمور اللغة هو النحوي :ابن خروف الأندلسي [3].**

وتبعه في ذلك أشهر نحاة القرن السابع :ابن مالك، وقد كان عظيم الاعتدا د والاهتمام بالحديث وهو يرى أن القرآن هو أوثق المصادر وأصحها في أمور اللغة، وتجيء الأحاديث في المرتبة الثانية، على حين أن كلام البدو من الأ عراب في المرتبة الثالثة وتوسع الاستراباذي في شرحه على متن الكافية لا بن الحاجب

---

[1] - ابن الدبيع، تمييز الطيب من الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث، تح محمد عثمان الخشب، دار الهدى، الجزائر، 1991، ص191.

[2] - ابن الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف، دار الفكر، بيروت، ط1، 1982، ج1، ص234.

[3] - يرى المترجم رمضان أن ابن خروف لم يكن أول من استشهد بالحديث كما توهم العبارة فعند سبويه وأبي علي الفارسي بعض الأحاديث ولكن ابن خروف كان من المكثيرين.

في صحة الاستشهاد في أمور اللغة أيضا حتى بأهل البيت، وبهذا طرأ على طبيعة العربية تحول حاسم ."[1]. والعبارة الأخيرة توحي بأن الاحتجاج بالحديث النبوي ساهم في تطور اللغة من حيث توسيع مصادر الاستشهاد اللغوي، وتعزيز القواعد النحوية والتصريفية بأهم مصدر من مصادر التلقي، وكان على الحديث الشريف أن ينتظر أكثر من ستة قرون ليثري بدوره التراث النحوي واللغوي يقول "فك": " **وكذلك الأمر في حجية الحديث في شؤون اللغة فكون الحديث غير حجة في أمور اللغة، لعدم التقيد بلفظه، حقيقة كان في وسع كل عالم باللغة، حتى في هذا العصر المتأخر، أن يكون على علم منها، ولكن ابن بري لا يكتفي باتخاذ الحديث مصدرا للغة، بل يعول في ذلك أيضا على الروايات التي ثبت ضعفها، حيث آخر الأخذ بالرواية : "بعثت إلى الأسود والأبيض"بدلا من الرواية المستفيضة :بعثت إلى الأسود والأحمر " أي إلى العرب والعجم"**[2].

ومسألة الاحتجاج اللغوي بالحديث ا لنبوي نالت قسطا وافرا من الجدل والبحث، حيث عرف فيه علماء الثروة اللغوية كنزا ثمينا توالوا على دراسته والأحذية. لكن علماء النحو كان لهم شأن آخر،فانقسموا إزاء الاحتجاج بالحديث الشريف فريقين، فريق غلب على ظنه أن الأحاديث روية للفظه صلى الله عليه وسلم فهي الذروة العليا من الفصاحة والحجية، أو روي معناها بألفاظ الصحابة والتابعين، وهم داخلون في نطاق الاحتجاج فأجاز الاحتجاج بها، وفريق غلب على ظنه أنها مروية بالمعنى لا باللفظ. " وقد تداولتها الأعاجم والمولودون قبل تدوينها فرووها بما أدت إليه عبارتهم، فزادوا ونقصوا و قدموا وأخروا، وأبدلوا ألفاظا بألفاظ ."[3]. وقد نوقشت هذه المسألة مناقشة موسعة أثبتت أنه لا يجوز رد كل الأحاديث النبوية وإبعادها عن دائرة الاحتجاج اللغوي، ولكن هناك أنواعا من الأحاديث لا ينبغي الاختلاف في قبول الاحتجاج بها وهي : " 1. ما بروى يقصد الاستدلال على كمال

[1] - يوهان فك، العربية، ص 234، 235، 236.
[2] - نفس المرجع، ص 231.
[3] -السيوطي، الاقتراح في أصول النحو، تح حمدي عبد الفتاح،مطبعة الجريسي،القاهرة، ط2، 2001، ص106.

فصاحته عليه الصلاة والسلام كقوله : "حمي الوطيس" ومّات حتف أنفه " و" ارجعن مأزورات غير مأجورات".

2. ما يروى من الأقوال كان يتعبد بها، أو أمر بذلك كألفاظ التحيات، والفنون وكثيرا من الألفاظ والأدعية.

3. ما يروى شاهدا على أنه عليه الصلاة والسلام كان يخاطب بها كل قوم بلغتهم.

4. الأحاديث التي وردت من طرق متعددة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وأتحدث ألفاظه.

5. الأحاديث التي دونها من نشأ في بيئة عربية لم ينشر فيها فساد اللغة كمالك بن أنس ،عبد الله بن جرير والإمام الشافعي وغيرهم.

6. ما عرف من حال رواته أنهم لا يجيزون رواية الحديث بالمعنى كمحمد بن سيرين، القاسم بن سلام، رجاء بن حيوة وعلي بن المديني."[1]

وقد تتبع بعض الباحثين الأطوار التي مر بها الاحتجاج والاستشهاد، وجهود الأقدمين في ذلك . فبدأت بالناحية العملية لـ لاستشهاد في كتب النحو منذ بدأ التأليف فيه. وقد استغرقت هذه المرحلة ما يكاد يغطي عصر الاحتجاج كله، ثم قام أمر جديد وهو تأليف العلماء في الشواهد لا في الاستشهاد . وقد استمرت هذه المرحلة طويلا إلى عصر السيوطي الذي يعد من أوائل من قدم عملا في الاستشهاد وكيفيته ومصادره، ثم تابعه البغدادي في خزانته، ثم توالت الأبحاث على هذا المنوال."[2].

وفي القرن الثاني الهجري وما تلاه اهتم العلماء باللغة الموثقة رواية ودراسة، فاستخدموها في الاحتجاج، لكنهم في الوقت نفسه اهتموا بما يقابل ذلك من اللغة المعيبة، فتتبعوا اللحن في الحضر بين الفقهاء واللغويين والكتاب والشعراء ورووا في ذلك شيئا كثيرا كما أسلفنا . كما تتبعوا ذلك في كلام الناس الذين أطلقوا عليهم العامة، فإلى غاية القرن الرابع وجهت عناية العلماء بصفة خاصة إلى اللغة والطرق

[1] - سعيد الأفغاني، في أصول النحو، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، دمشق، ط3، 1994، ص55-56.
[2] - محمد عيد، الاستشهاد والاحتجاج باللغة، عالم الكتب، القاهرة، ط3، 1988، ص 88.

المثلى في الاستشهاد بها، ولم يدم الأمر طويلا حتى لم يبق للفصاحة والصحة مكانا تأوي إليه في بوادي الجزيرة . " فانطفأ ذلك الشعاع في وجوه العلماء فمنعوا الاستشهاد لغة البادية أيضا بعد أن امتنعوا عن الرحلة إليها، وانتهى الأمر بمنع الاحتجاج بأحد مطلقا بدويا أو حضريا، وقد نص على ذلك كبار العلماء كابن جني في خصائصه في أكثر من موضع."[1].

وكان موقف النحاة من مصادر الاحتجاج موقفا متباينا فكان من المفترض أن يستمدوا مادة دراستهم من مصادر أربعة وهي : القرآن والحديث وما وثقه العلماء من النثر الفني وغيره، وما رووه من الشعر، لكن في الواقع الفعلي اعتمدوا على بعض المصادر وأهملوا أخرى لاعتبارات مختلفة ليس مجال بحثها في هذا المكان .

ولعلماء العربية في مسألة الاحتجاج قواعد لا يمكن أن يجيد عنها المحتجون باللغة من ذلك: " المسموع إما مطردا وإما شاذا، والكلام في الاطراد والشذوذ على أربعة أضرب مطرد في القياس والاستعمال جميعا وهو الغاية المطلوبة، ومطرد في القياس شاذ في الاستعمال أن يقوى في القياس، ويضعف في الاستعمال نحو مفعول "عسى" اسما صريحا نحو قولك عسى زيد قائما هذا هو القياس غير أن القياس يمنعه ويكون قولهم : عسى زيد أن يقوم وقوله تعالى " فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده ".ومطرد في الاستعمال شاذ في القياس كاستنوق الجمل، واستفيل الجمل شاذ في القياس والاستعمال معا كفرس مقوود، ورجل معوود من مرضه .

ولم يشترطوا العدالة في المروي عنه وإنما في الراوي، واختلفوا في قبول التعديل على الإبهام كما فعل سيبويه في الكتاب كثيرا عن الخليل، وإنما قبلوا ما ينفرد به الفصيح لاحتمال أن يكون قد سمع لغة قديمة باد المتكلمون بها فالناقل المنفرد إذا كان من أهل الضبط والإتقان قبلت روايته كابى زيد والأصمعي، والخليل وابى عبيدة وأضرابهم، وكانوا لا يحتجون بكلام يجهل قائله ."[2]. والحديث عن الاحتجاج واسع أفرد له بعض الباحثين دراسات مستفيضة متخصصة.

[1] - محمد عيد، الاستشهاد والاحتجاج باللغة، ص 99.
[2] - التواتي بن تواتي، محاضرات في أصول النحو، ص123 وما بعدها.

9. العامل العسكري وتوابعه

ذكر "يوهان فك" أن السيل المغولي قد أصاب في الصميم بلدانا كان لها التصدر في قيادة ركب الثقافة في العالم الإسلامي، وبه اكتمل ت حلقة الختام في مراحل الانحلال اللغويوبهذا انقطعت الخيوط الأخيرة من الثقافة ا لتليدة المتوارثة في الأقاليم التي تغلغل فيها المغول [1]. ثم أحكم العثمانيون القبضة على البلدان الناطقة بالضاد إلى آخر القرن التاسع عشر الميلادي فكانت أ حلك قرون التاريخ العربي لا من الوجهة السياسية فحسب، بل من الوجهة اللغوية كذلك . ويصف فك المرحلة النابليونية وحملتها على مصر ومنها إلى العالم الإسلامي، بالمرحلة الحديثة النيرة، والمشرقة بالنور التاريخي الساطع، فكانت هذه الحملات العسكرية وإن ألبست لبوس العلم والثقافة لها تأثيرها الواضح علىهجالات أخرى منها المجال اللغوي . يقول "فك":**فإدخال النظم الغربية الذي بدأ ع لى يد مّحمد علي" وإقامة المدارس والمعاهد على النمط الأوربي، وتغذيها بالعلماء الأوروبيين، وإرسال الشـ باب المصري إلى الجامعات الأوروبية، وتأسيس مطبعة للدولة، وإصدار صحيفة رسمية، وإنشاء مكاتب الترجمة تقوم بنقل عدد لا يحصى من المؤلفات الأوروبية في شتى أنواع العلوم والفنون إلى العربية تـ يسيرا لتناولها في العالم العربي، كل ذلك علىى اللغة العربية في مصر بادئ ذي بك، بآثار بعيدة المدى في التأثير "[2].**

ويشهد لذلك تلك الألفاظ الدخيلة من اللغات الأوروبية : الفرنسية والإيطالية والانجليزيةهذا يقود إلى عامل من عوامل التطو ر اللغوي أفرد له بعض الباحثين قسطا من الدراسة وهو: المستعار من اللغات، وقد عرفناه من قبل بالاحتكاك اللغوي، وقد سماه يوهان في كتابه : " الغريب اللغوي" يقول: " **وهذا الكفاح في وجه الغريب اللغوي يدور في الأعم الأغلب حول مشكلة استعمال الكلمة، واستخدام المادة اللغوية المولدة، وتيسير النقل المجازي، مسألة الوضع الحديث، على أنه لا يتعرض بمساس للنقل من الغرب في الأمور العملية، واقتباس الأشياء والمدلولات**

[1] - يوهان فك، العربية، ص 238.
[2] - نفس المرجع، ص 239.

الغريبة الأصل، فمثلا الحقيقة الثابتة من أن الشرق مدين للغرب بالسيارة، لا يمحوها استعمال هذا اللفظ الفصيح : سيارة ومعناه الأصلي قافلة بدلا من : "أوتوموبيل"."[1]

وقد تحدث الدارسون عن موت اللغة بفعل عوامل مختلفة، ومن أشدها الغزو العسكري. " وقد تموت اللغة موتا طبيعيا، من الكبر والشيخوخة والضعف، ولا بد أن يكون المتكلمون بتلك اللغة قد كثروا وتشعبوا، وتباعدت مواطنهم، وأقاموا فسلأخذ حضارات متباينة لا يتصل بعضها ببعض إلا من بعيد . فتولد لدى كل منهم لهجة محلية منبثقة من اللغة القديمة، ومع مرور الأجيال تندثر اللغة الأم من ذاكرة الأبناء وعلى ألسنتهم وتموت، ومن ذلك السامية الأم، والسنسكريتية والفارسية القديمة واللاتينية وسوى ذلك . وقد تموت اللغة قتيلة بفعل الغزو المسلح وبتظافر ظروف معينة أهمها : أن يكون الغزاة أكثر عددا بأضعاف من أهل تلك اللغة، بحيث يصبح استقرارهم في الأرض المحتلة أشبه بالطوفان يبتلع الشعب الأصلي ولغته معه، ومن ذلك غزو الساميين القدماء للعراق . ومع ذلك يمكن القول أن اللغة القتيل تترك دائما آثارا على لغة الغزاة تقل أو تكثر ."[2]. وقد يتساوى عدد الغزاة والسكان الأصليين أو يتقارب، فلا يقع القهر اللغوي إلا تحت عامل آخر وهو العامل الحضاري. وإلا فقد يبسط الغزو نفوذه على جوانب كثيرة من أجل السيطرة، وتبقى لغة المحتلين تنعم بالسلامة وا لعافية ولذلك " ينبغي أن يكون الغزاة أعلى درجة في الحضارة من الأمة المغزوة، وإلا فإن الغزاة هم الذين يفقدون لغتهم، وتنتصر لغة المنهزمين كما حدث عندما هاجمت القبائل المتبربرة أوربا اللاتينية التي كانت شعوبها أكثر تقدما في الحضارة، ولذا ترك هؤلاء البرابرة لغاتهم الأصلية، بل تركوا آدابهم الوثنية، واصطنعوا اللاتينية، واعتنقوا المسيحية الكاثوليكية وكذلك التتار في غزو بغداد اعتنق أكثرهم الإسلام وتعلموا اللغة العربية . أما الغزاة المتحضرون فإنهم يقتلون لغة الأمم المستعمرة بفرض لغتهم في العلم والثقافة والتجارة ونحوها ..

[1] - نفس المرجع، ص 240.
[2] - حسن ظاظا، اللسان والإنسان، دار الفكر العربي، القاهرة، (د،ت)، ص 93

ومثال ذلك سيادة الإنسانية أو البرتغالية بين شعوب أمريكا اللاتينية، وسيادة الإنجليزية في أمريكا الشمالية، وسيادة الفرنسية في أنحاء من كندا . وهذه الظاهرة ممكنة الحدوث، حتى إذا كان الغزاة أقل عددا بكثير بشرط أن يكون رقيهم الحضاري والإداري والاقتصادي ساحقا."[1].

10. العامل الإعلامي

لا يمكننا أن ننكر الدور الذي يلعبه الإعلام بشتى أنواعه في تعزيز مكانة اللغة وبسط نفوذها، وهو إلى جانب ذلك عامل نموها وتطورها، فيمكن لها أن تنحط بانحطاطه، وتتطور بتطوره، وهل اللغة إلا إبلاغ وإعلام ؟ والأجهزة الإعلامية فتقوم أساسا على اللغة وباللغة . وقد نوه "فك" بدور الصحافة مع التأثر بالغرب على اللغة يقول: " **بيد أن الآثار البعيدة العمق التي تركها الغرب على العربية الحديثة، لا تقتصر على العربية الفصيحة، بل كذلك اللهجات المحلية آخذة في التغير البطيء المتواصل الخطى بواسطة التأثر بالغرب، فقد كان من أثر انكماش الأمية أن تغلغلت لغة الكتابة الحديثة بقواعدها، ومفرداتها في دوائر كانت لا تعرف سوى العامية، كما تعمل الصحافة عملها أيضا في ذلك الاتجاه.**"[2].

وأشار إلى ما يوحد الألسنة وينفي الفروق اللغوية كالتجنيد في الخدمة العسكرية حيث يجتمع الناس من مناطق لغوية مختلفة في حياة واحدة، ثم أشار إلى دور مسارح السمر الشعبي . " **ومما يعمل على الانسجام وتقريب الألسنة بوجه خاص المذياع والحاكي، والخيالة (السينما) الناطقة**"[3].

3. مظاهر التطور اللغوي ومستوياته عند "يوهان فك"

إذا كانت العوامل التي أشار إليهاوهان قد حددت المسارات التطورية . والمراحل التاريخية للعربية، فإن موضوع العوامل لا ينفك عن دراسة مظاهر

[1] - نفس المرجع، ص 94.
[2] - يوهان فك، العربية، ص 241.
[3] - نفس المرجع، ص 241.

التطور وصوره وأثره على المستويات اللغوية وقد جمعنا من كتابه العربية بعض مظاهر التطور اللغوي ومستوياته.

أ. المستوى النحوي

وقد تجلت مظاهر التطور على هذا المستوى عند يوهان في مظهرين هما :

1. تلاشي علامات الإعراب على ألسنة العامة والخاصة

" فالإعراب هو الفارق الذي يميز عند المثقفين العرب بين العربية الفصحى، وجميع القوالب والأساليب المولدة .. بيد أن الإعراب أي الطريقة الخاصة التي كان ينطق عرب البادية على مقتضاها، هي في ذاتها سطحية بحيث لا تكفي وحدها لتكون ميسما مميزا للغة الفصحى، فليس من النادر أن تجد الإعراب مجرد حلية فارغة يقصد منها إلى إعارة نوع من التعبير، في قالب مخالف للفصحى في جوهره مسحة زائفة من الفصحى . وإذن فجوهر القالب اللغوي هو الذي يميز الطابع الصحيح لد فصحى، ومن هنا يصح أن نقول أن التحرر من الإعراب قرينة أكيدة على العربية المولدة لا العكس أي أنه ليست العربية المولدة منحصرة في التحرر من الإعراب"[1]. وهو ما فقدته اللغات السامية من أقدم السمات اللغوية حافظت عليه العربيةوميز يوهان بين عصر ما قبل الإسلام في أ شعار عرب البادية وسيادة العلامة الإعرابية والمرجعية اللغوية في البادية عند النحويين العرب . وعصر ما بعده في تلاشي سلطان العلامات الإعرابية . **" فاحتدم النزاع حول غاية بقاء هذا التصرف الإعرابي في لغة التخاطب الحي، فأشعار عرب البادية قبل الإسلام وفي عصوره الأولى ترينا علامات الإعراب مطردة كاملة السلطان، كما أن الحقيقة الثابتة من أن النحويين العرب كانوا حتى القرن الرابع الهجري على الأقل – يختلفون إلى عرب البادية ليدرسوا لغتهم، تدل على أن التصرف الإعرابي كان في أوج ازدهاره آنذاك"**[2].

[1] - نفس المرجع، ص 15.
[2] - المرجع السابق، ص 15.

وفرق يوهان فك بين اللحن والضرورات الشعرية فما عده المتشددون في نظره لحنا كان في الغالب نوعا من الحرية الشعرية يقول : " **وهذه المقتضيات التي يتطلبها مبدأ تنقية اللغة، قد احتذاها الشعر الرفيع في جميع العصور كما هو الأعم الأغلب، فمثلا أشعار أبي نواس أهم شاعر على الإطلاق في عصر هارون، خالصة من اللحن اللغوي خلوصا عجيبا، وما عده نقاده المشبعة، روح التشكك خطأ، هو في الغالب نوع من الحرية الشعرية، أو ضرورات الوزن، كما نجده عند أسلافه من الشعراء**"[1].

كما فرق بين اللحن والتطور اللغوي في عمل "ليت" في البيت التالي:

" **فليت ما أنت واط *** من الثرى لي رمسا**"[2]

" **فنصب معمولي "ليت" وهو استعمال قبلي خاص ورد في رجز العجاج وشعر الهذلي، وترك الهمزة في "واط" بدلا من "واطئ"أمر معتاد** "[3]. ويعلق "شبيتالر" على ما أورده يوهان بقوله: "ويفهم من عبارة فك أن نصب "ليت" للجزأين، وإن كان ظاهرة قديمة، فإنه تطور حادث "[4]. ويخالفه "شبيتالر" الرأي يقول: " غير أنني أرى أنه تركيب أصيل بكل تأكيد وقد ذكر ذلك "فليشر" وتابعه "بروكلمان"، فإنه ليت زيدا قائما ناشئ من رأيت زيدا قائما، وفي اللهجات الحديثة "ريت" منه وإن كان " نولديكه" أها تطورا حديثا من ليت، ولا أوافقه على تعليله، وقد بقيت الظاهرة القديمة في بعض الأشعار مثل : "ليت القسي كلها أرجلا "، ويعزى إلى تميم، ويبدو ذلك صوابا، إذ تبقى الظاهرة القديمة أحيانا في بعض اللهجات . والمعتاد في العربية رفع الخبر سبب القياس على إن ولعل بكل تأكيد "[5]. ويذهب رمضان عبد التواب مترجم الكتاب إلى أنه لا وجود لـ نصب المزعوم في المع مولين "الليت" الذي ادعاه "فك"[6]. والغريب أن "شبيتالر" في خلافه مع فك كان حول أصالة وحدوث التركيب

---

[1] - نفس المرجع، ص 99.
[2] - ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تح مفيد قميحة وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000، ص 519.
[3] - يوهان فك، العربية، ص 100.
[4] - نفس المرجع، هامش رقم 04، ص 100.
[5] - المرجع السابق، هامش رقم 04، ص 100.
[6] - نفس المرجع، رقم 03، ص 100.

في ليت وفتحها للجزئيين (المعمولين)، ولم يكن حول عمل "ليت" في المبتدأ والخبر في نصب الأول ورفع الثاني وهي مسألة لا خلاف فيها البتة، إلا إذا تعلق الأمر ما تتركه اللهجات على الحركات الإعرابية، وتلك مسألة خارجة عن إطار بحثنا وهو العربية الفصحى، وما يحدث لها من تطور وتحول . ولذلك نفى المترجم النصب المذكور، وما يهمنا في هذا كله أن "فك" يفرق بين اللحن والتطور اللغوي وإن أخطأ في هذه المسألة.

ويعود "فك" ليفرق بين العربية المولدة والفصحى، وأن الأولى خرجت من رحم الثانية وتطورت عنها فيقول : " **فالطبيعة الحقيقية للعربية المولدة، والفرق الخاص الذي يميزها تجاه العربية الفصحى، إنما يقوم على تغير في تكوينها يعد ترك التصرف الإعرابي من أماراتها الظاهرة. وبهذا نهجت العربية المولدة منهجا اجتازته جميع اللغات السامية الأخرى قبل ذلك بكثير، وهذا لا يدل على أن ذلك التطور يرجع إلى أسباب عربية داخلية بحتة؛ فإن الحقيقة الثابتة من أن التصرف الإعرابي عاش قرونا طويلة في لغة البادية، ولا يزال ماثلا في بعض بقاياها إلى هذا اليوم، تدلبوضوح على خلاف ذلك الاحتمال** "[1]. ومن هنا نجده يفرق بين العوامل الداخلية، والعوامل الخارجية لظاهرة التطور اللغوي.

وظاهرة الإعراب في العربية ظاهرة أحيطت بعناية شديدة من قبل عدد من الباحثين " فالإعراب في أول أمره لم تكن له من الدقة المتناهية ما نجده الآن من التفريق بين المعاني، بل ربما كانت الحركة الإعرابية تحوي بين جوانبها على معنيين، فلما استقامت العقول وتقدمت صارت هذه الحركة الإعرابية الواحدة ترمز إلى معنيين-حركتين - كل منهما يحيل إلى معنى مختلف عن الآخر ومثال ذلك في أسلوب الاستثناء عندما يكون الكلام تاما منفيا، فإذا كان الاستثناء متصلا أي أن المستثني داخل جنس المستثنى منه. وجب إعراب المستثنى بدلا من المستثنى منه أما إذا كان الاستثناء منقطعا فيجب نصب المستثنى، فهناك حركتان للإعراب كل منهما يدل على معنى

[1] - يوهان فك، العربية، ص 114.

مختلف. وهذا دور متقدم في مراحل الإعراب، إذ أننا نجد من كان لا فرق بين الاستثناء المتصل والمنقطع فيرفعون في الحالتين. كما حدث تطور في إعراب المثنى بين لزوم الألف وبين إعرابه بالياء نصبا وجرا وبالألف رفعا، وكذا لغة "أكلوني البراغيث".. فإذا وصلنا إلى حالة الإعراب في العصر الجاهلي فإنه اتسم بالاكتمال وبالتالي بالثبات والرسوخ وعدم التطور في الظواهر الإعرابية "[1].

وظاهرة الإعراب ليست كغيرها خاضعة للتطور خاصة بعد العصر الجاهلي كالشعر مثلا الذي كانت له ملامح وصفات تطورت بعد صدر الإسلام ثم كان على نمط مغاير في العصور التالية. ويرى بعض الباحثين أن الإعراب تطور في شكل آخر وذلك في "مدى تمسك الناس بقواعده وتراكيبه. فالتطور ليس في الظاهرة نفسها، ولكن بمدى رغبة الناس فيها أو عنها، والملاحظ أن كتب اللغة والأدب على مر العصور تفيض بأبناء اللحن في الإعراب وعزوف الناس عنه تستوي في ذلك جميع العصور إلى يومنا هذا وبسبب هذا المعزوف يرجع إلى أمرين اثنين: الأول اجتماعي والثاني صوتي: فأما الاجتماعي فينحصر في الفتوح الإسلامية. واحتكاك العربية الخالصة بلهجات القبائل، وتوغل الفاتحين في بلاد العجم. وأما الصوتي فهو يتبع التطور اللغوي فمن الطبيعي تطور أعضاء النطق في الإنسان فلم يعد كما كان في عهد آبائنا الأولين.. وفي تطور الجهاز الصوتي تتطور الأصوات فكان من آثاره انقراض علامات الإعراب في كثير من اللغات. ولعل اكبر انقلاب حدث في العربية سقوط العلامات الدالة على وظائفها في الجملة وأوثرت السلامة في تسكين الأواخر. حتى أتى علينا دهر سمعنا فيه بالدعوة إلى ترك الإعراب وتسكين أواخر الكلمات "[2]. وقد تصدى علماء العربية لرد هذا العدوان السافر على لغة القرآن. وكان حظ طائفة من المستشرقين وافرا في حملات التشويه والإقصاء. تدعو إلى إلغاء الإعراب أو تطعن في أصالته. ومما يؤسف له أن يردد هذه الصيحات ويروج لهذه الأباطيل بعض ممن ينتمون إلى جلدتنا، ويحسبون أنهم منا. "وعلى رأس هؤلاء المستشرقين الفرنسي "ماسينيون""Massignon" لما هبط إلى دمشق

1-أحمد سليمان ياقوت، ظاهرة الإعراب في النحو العربي ، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 2003، ص11.
2- نفس المرجع، ص 12-13.

فاتصل به زملاؤه من أعضاء المجمع الذين بينه وبينهم صداقة، فألقى إليهم في جملة ما ألقى إهمال الإعراب ييسر تعليم اللغة العربية على الأجانب، ويكون في الوقت نفسه تجديدا يليق بمؤسسة كالمجمع، فناقشه بعض وسكت بعض إلا أن أحدا لم يعر هذه المقالة اهتماما. ولكن كلام "ماسينيون" عرف طريقه إلى التنفيذ."[1]. والذين تولوا كبر هذه الدعاوى الزائفة دعاة العامية للتخلص من الفصحى، وقد تصدى من علماء العربية الغيورين لهذه الحملات الرامية إلى تسكين الأواخر وإسقاط قواعد النحو العربي "وقد أتى عباس حسن وغيره بما لا يدع مجالا للشك أن الإعراب روح اللغة وأن الكلام من غيره لا طائل وراءه، ويورث مشكلات منها :

أ. أن التراث القديم لا سبيل لفهمه بغير إعراب.

ب. إن الدعوة إلى تسكين الأواخر يولد مشكلة الكلمات التي تعرب بالحروف كالأسماء الستة والأفعال الخمسة، والمثنى ولواحقه.. فهل يمكن الاستغناء بالسكون عن الحروف الإعرابية في مثل، جاء أبوه، رأيت أباه، مررت بأبيه..

ج. هناك عقبة تسكين الأواخر في الكلمات التي قبل آخرها حرف علة يجب حذفه إذا سكن الآخر، ولم يتحرك كالياء والواو في: يصول ويبيع

د. حدوث اللبس في الأسلوب الذي يقدم فيه المفعول به للدلالة على الحصر في مثل: محمد أكرم علي فعند التسكين المزعوم فلا ندري الفاعل من المفعول.

وهناك من المعاني ما لا يمكن فهمه إلا بالإعراب ففي باب العطف مثلا تعرض مشكلات توقع في الحيرة ولا تحل إلا بالإعراب كقوله تعالى "ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب" فلا يدري القارئ دون إعراب أيعقوب معطوف على إبراهيم فيكون المعنى : ووصى بها يعقوب بنيه أسوة بإبراهيم، أم معطوف على بنيه فيكون المعنى ووصى بها إبراهيم بنيه ووصى بها يعقوب في جملة بنيه أيضا."[2].

وقد أشار يوهان فك إلى إسقاط العلامات الإعرابية وما أحدثه من إرباك على المستوى الدلالي، ووظائف الكلمات في الجملة. "فترك الإعراب في أواخر الكلم يجعل من

1- جميل علوش، الإعراب والبناء، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط1، 1997، ص 53.
2- أحمد سليمان ياقوت، ظاهرة الإعراب في النحو العربي، ص 42، 43.

المتعذر تمييز الفاعل، ــ إلا إذا كان في صورة ضمير يتميز بصيغته ــ في آخر الجملة أو بعد المفعول فبدلا من ذلك يجد المفعول المباشر في الجملة الفعلية مكانه الطبيعي بعد الفعل مباشرة، على حين يتقدم الفاعل إلى مطلع الجملة قبل الفعل. وبانحلال الإعراب، اضمحلت أيضا الفروق التي كانت قائمة في العربية الفصحى بين أحوال الإعراب الثلاثة للاسم، وبين ما ينصرف وما لا ينصرف، ويتجلى ذلك بوضوح في أن صيغتي المثنى وجمع المذكر السالم في حالة الإطلاق قد غلبت على صيغتهما في حالة الإضافة، هذا وإن ترك التصرف الإعرابي والخلط بين علامات الإعراب، وعدم التفريق بين صيغ الأفعال لم يكن هو السبب في هذا التطور اللغوي بل هو من عوارضه وظواهره التي لفتت من قبل أنظار أقدم علماء المسلمين بصورة قوية."[1].

والعلامات الإعرابية في نظر بعض الباحثين ليست الموجه الوحيد للمعنى وإن كانت أوفر القرائن حظا من اهتمام النحاة القدامى، فهناك قرائن أخرى تساهم وبشكل فاعل في توجيه الدلالة، ومنها ما هو معنوي ومنها ما هو لفظي. " فالعلامة الإعرابية بمفردها لا تعين على تحديد المعنى، فلا قيمة لها بدون تضافر القرائن ويصدق هذا القول على كل قرينة أخرى بمفردها سواء أكانت معنوية أم لفظية، وإن كانت العلامة الإعرابية أكثر القرائن نصيبا من اهتمام النحاة فجعلوا الإعراب نظرية كاملة، فتكلموا عن الحركات ودلالاتها، والحروف ونيابتها عن الحركات ثم تكلموا عن الإعراب الظاهر والمقدر والمحل الإعرابي ثم اختلفوا في هذا الإعراب هل كان في كلام العرب أم لم يكن؟ وكان لقطرب ومن تبعه من القدماء والمحدثين كلام في إنكار أن تكون العربية قد اعتمدت حقيقة على هذه العلامات في تعيين المعاني النحوية. حدث ذلك في وقت لم تكن العلامات الإعرابية أكثر من نوع واحد من أنواع القرائن بل هي قرينة يستعصي التمييز بين الأبواب بواسطتها حين يكون الإعراب تقديريا أو محليا أو بالحذف لأن العلامة الإعرابية ليست ظاهرة فيستفاد منها معنى الباب."[2].

1- يوهان فك، العربية، ص 114، 118.
2- تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، القاهرة، ط3، 1998، ص 205، 206، 207.

وتتضافر مع قرينة العلامة الإعرابية قرائن أخرى صنفها بعض اللغويين المحدثين تحت القرائن اللفظية وذكر منها: الرتبة، الصيغة، الربط، المطابقة، التضام، الأداة، النغمة، وهناك نوع آخر من القرائن يسمى القرائن المعنوية: كالإسناد والتعدية، والغائية، والمعية والظرفية والتقوية والملابسة والتفسير والإخراج والخلاف والنسبة والتبعية، وكل منها دوره الفاعل في تحديد المعنى وقد تناولها عدد من الباحثين بالدرس العميق ما وسع أفق الدرس النحوي ويمكن الرجوع إلى كتاب تمام حسان: اللغة العربية مبناها ومعناها فقد فصل في ظاهرة القرائن وأشبعها بحثا.

ولابن خلدون في مقدمته ما يشير أن الإعراب وحركاته ليست وحدها المتحكم في المعاني، والمبين عنها بل توجد قرائن أخرى معها تساهم في بيان المقاصد، وتوجيه الدلالات، ففي ثنايا حديثه عن أركان علوم اللسان العربي، وأنها أربعة: اللغة والنحو والبيان والأدب ذكر أن "الأهم المقدم منها النحو، إذ به تبين أصول المقاصد بالدلالة فيعرف الفاعل من المفعول، والمبتدأ من الخبر، ولولاه لجهل أصل الإفادة. وكان من حق علم اللغة التقدم، لولا أن أكثر الأوضاع باقية في موضوعاتها، لم تتغير بخلاف الإعراب الدال على الإسناد والمسند والمسند إليه. فإنه تغير بالجملة ولم يبق له أثر لذلك كان علم النحو أهم من علم اللغة، إذ في جهله إخلال بالتفاهم جملة، وليست كذلك اللغة، واللغة هي عبارة المتكلم عن مقصوده وتلك العبارة فعل لساني ناشىء عن القصد بإفادة الكلام. فلابد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان، وهو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم. وكانت الملكة الحاصلة للعرب من ذلك أحسن الملكات وأوضحها إبانة عن المقاصد لدلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعاني، مثل الحركات التي تعين الفاعل من المفعول من المجرور أعنى المضاف. ومثل الحروف التي تفضي بالأفعال أن الحركات من غير تكلف ألفاظ أخرى. وليس يوجد ذلك إلا في لغة العرب. فصار للحروف والحركات والهيئات، أي الأوضاع اعتبار في الدلالة على المقصود، وأن تغير الدلالة بتغير حركات الكلمات فاصطلحوا على تسمية ذلك "اعرابا"، وتسمية

الموجب لذلك التغير "عاملا."[1]. ويضيف في نفس السياق أن : "الأمور التي يقصد المتكلم بها إفادة السامع من كلامه هي: إما تصور مفردات تسند ويسند إليها ويفضي بعضها إلى بعض، والدلالة على هذه هي المفردات من الأسماء والأفعال والحروف؛ وأما تمييز المسندات من المسند إليها والأزمنة، ويدل عليها بتغير الحركات وهو الإعراب وأبنية الكلمات. وهذه كلها هي صناعة النحو. ويبقى من الأمور المكتـــنفة بالواقعات، المحتاجة للدلالة، أحوال المتخاطبين أو الفاعلين، وما يقتضيه حال الفعل، وهو محتاج إلى الدلالة عليه، لأنه من تمام الإفادة، وإذا حصلت للمتكلم فقد بلغ غاية الإفادة من كلامه وإذا لم يشتمل على شيء منها، فليس من جنس كلام العرب، فإن كلامهم واسع، ولكل مقام عندهم مقال يختص به بعد كمال الإعراب والإبانة. ألا ترى أن قولهم: (زيد جاءني) مغاير لقولهم (جاءني زيد) من قبل أن المتقدم منهما هو أهم عند المتكلم. فمن قال: جاءني زيد، أفاد أن اهتمامه بالمجيء، قبل الشخص المسند إليه، ومن قال: زيد جاءني، أفاد أن اهتمامه بالشخص، قبل المجيء المسند. وكذا التعبير عن أجزاء الجملة، بما يناسب المقام، من موصول أو مبهم أو معرفة. وكذا تأكيد الإسناد على الجملة، كقولهم: زيد قائم، وإن زيدا قائم، وإن زيدا لقائم، متغايرة كلها في الدلالة، وإن استوت من طريق الإعراب."[2].

وهو هاهنا يشير إلى قرينة الرتبة في الأمثلة التي ساقها وهي تختلف عند النحاة عنها عند البلاغين فهي عندهم تحت عنوان التقديم والتأخير . إلا أن دراسة التقديم والتأخير في البلاغة دراسة لأسلوب التركيب لا للتركيب نفسه أي أنها :"دراسة تتم في نطاقين أحدهما مجال حرية الرتبة حرية مطلقة والآخر مجال الرتبة غير المحفوظة ،فلا يتناول التقديم والتأخير البلاغي ما يسمى في النحو بالرتبة المحفوظة لأنها لو اختلت لاختل التركيب كله . وعليه تكون الرتبة المحفوظة قرينة لفظية تحدد معنى الأبواب المرتبة بحسبها ، ومن الرتب المحفوظة في التركيب العربي أن يتقدم الموصول على الصلة والموصوف على الصفة، ويتأخر البيان عن المبين والتوكيد عن المؤكد ،والبدل

[1] - ابن خلدون، المقدمة، ص 565، 566.
[2] - نفس المرجع، ص 570.

عن المبدل وغير ذلك. ومن الرتب غير المحفوظة في النحو رتبة المبتدأ والخبر والفاعل والمفعول به ، والضمير والمرجع والفاعل والتميز بعد نعم والحال والفعل المتصرف ، والمفعول به والفعل وغيرها."[1]

ويؤكد ابن خلدون مرة أخرى أن حركات الإعراب لا تسأثر بايضاح المعاني وتوجيهها ،بل يمكن تعويضها لا سيما بعد فشو الفساد فيها "ذلك أن لغة العرب لغة مستقلة مغايرة للغة مضر ولغة حمير ،لأنا نجدها في بيان المقاصد والوفاء بالدلالة على سنن اللسان المضري ، ولم يفقد منها إلا دلالة الحركات على تعين الفاعل من المفعول فاعتاضوا منها بالتقديم والتأخير، وبقرائن تدل على خصوصيات المقاصد..والمعاني في اللسان العربي يدل عليها بأحوال و كيفيات في تراكيب الألفاظ وتأليفها،كالحذف وحركة الإعراب وغيرها ومذهب العرب في البلاغة والبيان مذهب قائم على اختلاف الدلالة باختلاف الأحوال ومازال هذا ديدنهم ، ولا يلتفتن في ذلك إلى خرفشة النحاة أهل صناعة الإعراب القاصرة مداركهم عن التحقيق حيث يزعمون ذهاب البلاغة وفساد اللسان العربي اعتبارا بما وقع في أواخر الكلم من فساد الإعراب الذي يتدارسون قوانينه ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربي واستقرينا أحكامه نعتاض عن الحركات الإعرابية (التي فسدت)في دلالتها بأمور أخرى وكيفيات موجودة فيه ، فتكون لها قوانين تخصها .[2]

ب . المستوى الصوتي

يميز "يوهان فك" بين العربية المولدة، والعربية الفصحى تمييزا واضحا بطائفة من السمات والخصائص في المادة الصوتية، وصوغ القوالب، وتركيب الجمل، والقواعد النحوية، والثروة اللفظية، وطرائق التعبير، ثم يقف ع ند التغيرات الصوتية ببعض الأمثلة التي تدل على بعض مظاهر التطور الصوتي يقول : " **فحذف الهمز الذي استفاض في العصر الجاهلي في لهجة الحجازيين وأخذ في العربية المولدة صورة واسعة ذات أثر واضح في صوغ القوالب، كما يتعلق بهذا أيضا**

[1] - تمام حسان ،اللغة العربية معناها ومبناها ص 207.
[2] - ابن خلدون،المقدمة،ص575-576.

تغيير حرف الضاد وهو صوت أصله حرف مطب ق قسيم للذال خاص بالعربية ويكثر إبداله بحرف الظاء الذي هو الحرف المطبق القسيم للثاء المهموسة [1]. وهي صعبة النطق على غير العربي .وهذه التغييرات الصوتية ازدادت على مر القرون . وكم حاول النحاة معالجتها [2]، فكانت الضاد تنطق ذالا مفخمة، ودالا أو طاء أو ظاء أو دالا مفخمة، وبعضهم ينطقها لاما مفخمة، ومن بين جميع هذه الصور، يكثر نطقها اليوم دالا مفخمة "[3]. ويرصد على هذا المنوال أمثلة أخرى من التغيرات الصوتية وهو ما " **يتعلق بالسين والصاد ففي العربية القديمة نجد بالفعل صيغا مزدوجة مثل صراط، وسراط، وصويق، وسويق وغير ذلك، وفي لهجة بلعنبر أحد أفخاذ تميم يكاد يوجد هذا التغير بإطراء إذا جاء بعد السين أحر الحروف التالية : ط، ق، غ، خ ولو بفاصل، وقد ذهب متأخروا النحاة إلى تعميم جواز ذلك التغيير الصوتي بالشرط المذكور[4].. وقد استعمل بعض المؤلفين الصاد بدلا من السين من غير الشروط المذكورة مثل: "صرم" بدلا من "سرم" و"صنام" بدلا من "سنام".**

وقد عارض النضر بن شميل وقوع السين موقع الصاد أحيانا، على حين روي عن الزجاج النحوي المعروف بحرية رأيه في الاشتقاق جواز إبدال كل منهما بالآخر"[5].

ورفضا لهذه المسألة عندما تحدثنا عن الإبدال وأثره في التطو ر اللغوي عند بحث العوامل الذاتية لظاهرة التطور في العربية.

جـ. المستوى الدلالي

يعد المستوى الدلالي في التطور اللغوي من أهم المستويات وأغناها إلى جانب المستوى المعجمي، فيكاد التطور يتمحور حوله امولا شك أن من أك ثر

---

[1] - اعتبر المترجم أن هذا وهم من المؤلف إذ لا وجود في العربية لهذا القسيم المفخم للثاء.

[2] - ألف ابن مالك قصيدة تعليمية وشرحها عالج فيها الفرق بين الظاء والضاد، وحقق رمضان عبد التواب كتاب لابن الأنباري سمي "زينة الفضلاء في الفرق بين الضاد والظاء".

[3] - يوهان فك، العربية، ص 111-112.

[4] - الزمخشري، المفصل في صنعة الإعراب، تح إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1999،ص 493.

[5] - يوهان فك، العربية، ص 112-113.

المظاهر التي تؤسس لنظرية التطور في العربية وغيرها، وتفسر الحركية في لغات البشر، والنمو اللامحدود هي التطورات الدلالية . وفي كلام يوهان فك ما يؤيد ذلك فقد أشار إلى انحطاط المستوى العام للثقافة اللغوية الذي امتد إلى كتاب الدولة ووزرائها والذي أ دى ابن قتيبة إلى تأليف كتابة "أدب الكاتب"لعلاجه وكفاحه، و بعد أن وقف فك مطولا عند مادة الكتاب وأغراضه وأبوابه، وأسلوبه قال : " **ويحتوي القسم الأول من كتابه وهو "كتاب المعرفة" الذي يشتمل على مادة غنية لمعرفة الثروة اللفظية، وفي ذلك نقف على تغير المعاني التي طرأت على بعض الألفاظ إلى القرن الثالث فمثلا يستعمل الناس لف ظ مأتم، بمعنى الاجتماع على المصيبة، وليس هكذا معناه الأصلي، وإنما هو النساء يجتمعن في الخير والشر، ومثل لفظ : الفيء معناه الظل مطلقا، لا ظل ما بعد الظهر كما هو الأصل، ولفظ الملة، يستعمل في الخبز، وكان معناه الرماد الحار الذي يخبز فيه، ومثل :تنزه، يستعمل بمع نى ذهب إلى البساتين، وكان معناه ابتعد عن الماء والزراعة** ."[1]. هكذا يعتبر "يوهان فك" أن هذه الألفاظ حدث لها تطور من معناها الأصلي إلى معاني أخرى، وإن اعتبرها ابن قتيبة لحنا، وكنا قد ذكرنا طائفة من هذه الألفاظ عند الحديث عن المستويات اللحنية .

ويذكر رمضان عبد ا لتواب أمثلة على التطور الدلالي من كتاب أدب الكتاب كان قد عدها ابن قتيبة لحنا من ذلك قوله : و"الباب الأول في : مّعرفة ما يضع عه الناس في غير موضعه"هو باب في تطور الدلالة؛ فمن تخصيصها قوله : "ومن ذلك الطرب: يذهب الناس إلى أنه الفرح دون الجزع، وليس كذلك، إنما الطرب خفه تصيب الرجل لشدة السرور، أو لشدة الجزع ".ومن أمثلة :تخصيصها كذلك قوله : "ومن ذلك الدلج: يذهب الناس إلى أنه الخروج من المنزل في آخر الليل، وليس كذلك؛ إنما الدلج السير في الليل"ومن أمثلة تعميمها : " العبير: يذهب الناس إلى أنه أخلاط من الطيب. وقال أبو عبيدالعبير عند العرب الزعفران وحده "ومن أمثلة الانتقال : "الحشمة يضعها الناس موضع الاستحياء. قال الأصمعي: وليس كذلك إنما هي بمعنى

[1] - نفس المرجع، ص 141، وينظر أيضا ابن قتيبة، أدب الكاتب، ص 24.

الغضب"."[1]. وهكذا يستوعب التطور اللغوي من التعابير والصيغ والألفاظ، ما أقصاه اللحن عن مجال الاستعمال اللغوي الصحيح، ويحد التطو ر أيضا من غلو المخطئين في حركة التنقية اللغوية.

د. المستوى المعجمي

تحدث "يوهان فك" عن النمو والانتشار اللغوي خلال القرن الثالث الهجري، ونتائجه على الأسلوب العربي، فوقف مع قدامة ابن جعفر في كتابه "نقد النثر" وعنايته بالشكل والموضوع، ومثله الأعلى في الاز دواج بين القالب والمادة . "**وهذا الانسجام يظهر أولا في صحة التقسيم بحيث يعانق التعبير اللغوي تماما مع مجرى التفكير دون نقص ولا زيادة** "[2]. وعلى هذا المنوال يمضي يوهان في نقد "نقد النثر"، وطفيان السجع في ذلك الوقت حتى أصبح السمة الأسلوبية الطاغية في عربية ذلك القرن حتى ألف لغويوه كتبا في الاستعمال الفني للغة فكان قدامة وغيره يقترون الألفاظ الجاهزة للأساليب المستهدفة . يقول "فك": " **وهنا تظهر الخطوات الأولى لذلك التطور الذي جعل النثر العربي المسجوع تتحول سريعا إلى تلاعب لا طائل تحته بالألفاظ الجوفاء، ينمي تورمه وا نتفاخه كل فكرة طبيعية نموا غير طبيعي وتهوي بها أخيرا إلى الفناء . وفي ذلك يسوق قدامة فنون وألوان من المترادفات العربية، تجمع في ترتيب موضوعي تلك الألفاظ والتعبيرات التي يجوز لصاحب الأسلوب الجيد أن يستخدمها، على أن وضع الثروة اللفظية في ترتيب موضوعي لم يكن فكرة غير مسبوقة بل لقد وضع كثير من اللغويين شتى الموضوعات لعلم المفردات وجمعوا الثروة اللفظية المطلوبة في مجموعات متفرقة كما فعل ابن السكيت في كتابه "الألفاظ"، ولم ينفرد هؤلاء الذين كتبوا في المترادفات العربية لسد حاجات الكاتب العملية، فقد ألف على نفس المنوال الهمذاني كتابه "الألفاظ الكتابية"**."[3]. وهذه المؤلفات ألفها أصحابها لما توسعت

[1] - رمضان عبد التواب، لحن العامة والتطور اللغوي، ص 174- 175.
[2] - يوهان فك، العربية، ص 153.
[3] - المرجع السابق، ص 154 وما بعدها.

الحاجات التواصلية، التي تتطلب ثروة لغوية، ولفظية، وقوالب تعبيرية أسلوبية تكافؤها وتلبيها.

ومع تطور الحياة وتفرع مناحيها . وهيمنة الاستعمال اللغوي اتسع الرصيد المعجمي، وانفسحت الثروة اللفظية واغتنت بها سيد تلك الحاجات التبليغية بقول فك: **"ومن عظيم الفائدة بوجه خاص الإشارة إلى الاستعمالات المحلية، التي تشتمل على مترادفات من أوصاف الأشخاص والأشياء التي يحتاج إليها المسافر، وتتبادر إلى ذهنه أنواع السفن وأوصاف رجالها، ومفردات خاصة بالملاحة، واصطلاحات جغرافية، وألفاظ المكس ورجالها، والمقاييس والموازين، والحانات والفنادق والعبيد والخدم، والمراتب المختلفة، والأسواق والمتاجر، والتجار والبضائع، والأقمشة والثياب، وأدوات النعال، والأوعية، والنباتات، والحيوانات الأليفة، يضاف إلى ذلك 49صنفا من أجناس التمر، و 24 نوعا من السمك دجلة الذي يجلب إلى سوق البصرة، والصيادين ورطانتهم، وعجلات الري والسقي، والقنوات ومجاري المياه، وأخيرا اصطلاحات الإدارة والحكم"**[1].

وقد ساهمت العربية المولدة في نظر "يوهان فك" في إثراء المعجم العربي، وإغناء الثروة اللفظية بما يحتاج إليه المتكلمون أثناء التخاطب والمحادثة، حتى أصبحت العربية المولدة مستوى لغويا متميزا في صيغه وقواعده، وأساليبه وتعابيره رغم أنه تطور عن العربية الفصيحة القديمة، يقول فك: "ومن العربية المولدة قبل كل شيء الثروة اللفظية؛ ذلك أن وصف البلدان والشعوب الإسلامية، ليس من السهل اليسير بوسائط اللغة العربية القديمة، فنتائج الصناعة، ومحاصيل الزراعة، والمهن، والحرف، والظواهر المختلفة المتنوعة للحياة اليومية، يذ بغي التعبير عنها بالمصطلحات المتعارفة في هذا تلعب اللغة الفارسية دورا عظيما . على أنه هناك أيضا، حيث لا تو جد أسباب واقعية يحبب إليه أن يستخدم ألفاظا وعبارات مولدة،

[1] - نفس المرجع، ص 201.

ومن أمثال هذه الألفاظ القريبة إليه : عل كل حال؛ بما يدور، بمعنى تحلق؛ بليذ بمعنى قذر، (من الفارسية الحديثة: يليذ) بلاذة، قذارة، عفن، غلبة بمعنى العصبية"[1].

وقد أشار فك أيضا إلى جهود المجمعين العلميين في القاهرة ودمشق في إيجاد ألفاظا مناسبة للعدد الوفير من المدلولات لاسيما في دائرة الشؤون الهندسية، والآلية، والطبية، والكيميائية، والطبيعية، وغيرها مما جلبته الحضارة الغربية الحديثة[2]. كل هذا الزخم اللغوي يحتاج إلى معاجم تستوعبه وجهودا تقربه من الاستعمال الصحيح، وهو بلا شك يساهم في توسيع الثروة اللفظية للغة العربية.

وفي الأخير نخلص إلى بعض الملاحظات والانطباعات حول مجمل القضايا التي تناولها كتاب "العربية" "ليوهان فك" ومنها :

1. استطاع "فك" متابعة أحداث التاريخ الإسلامي، وملاحظته للعربية في ذلك الإطار وتحولاتها وتطوراتها، وأثر تلك الأحداث المباشر على اللغة العربية.
2. إخراج الرصيد اللغوي المعدود لحنا في الاستعمال إذا كان لغات لقبائل عربية مختلفة أي (التفريق بين ما هو لحن وما هو من قبيل اللغات عند القبائل).
3. إخراج المسائل اللحنية المتنازع حولها بين اللغويين عن دائرة ا للحن والفساد اللغوي.
4. كان حديث "فك" عن تطور العربية مقرونا باستمرار مع حديثه عن ظاهرة اللحن وحركة التنقية اللغوية وبشكل ظاهر جدا.
5. تصنيف "فك" لعلماء التنقية اللغوية إلى متزمتين ومتساهلين، ويبدو من خلال إنكاره الشديد على فئة المتشددين، أنه ينتمي إلى فريق الم تساهلين في حركة التصويب اللغوي.
6. هناك تفريق في الكتاب بين مستويات متنوعة في الاستعمال اللغوي، فهناك المستوى الأنموذج الفصيح (الانقباض)، وهناك ما هو دونه من المولد، وهناك

[1] - المرجع السابق، ص 211.
[2] - نفس المرجع، ص 240.

المستوى الذي فقدت فيه العربية أدنى شروطها إلى المستوى الـــدارج واللغـــة الشعبية.

7يبدو أن يو هان فك قد حاكم العربية انطلاقا من المناهج الأجنبيـــة، وتلـــك طبيعة المستشرقين في دراساتهم اللغوية فهم يصدرون عـــن المنـــاهج التـــي يؤمنون بها والتي يرون أنها تحقق مقاصدهم العلمية.

8. تبقى العديد من قضايا الكتاب والظواهر المطروحـــة فيـــه قابلـــة للبحـــث والدراسة تغري الباحثين كـ ظاهر اللحن، والإعراب، واللهجـــات، والأســـاليب اللغوية، وحجية الحديث في الاستشهاد اللغوي وغيرها مما مررنا عنه خـــلال تناولنا للكتاب بالدراسة والتحليل.

9. عدم إشارة "يوهان فك" في كتابه إلى ظاهرة التطور اللغوي في مـــستواها الصرفي علما أن بعض الصيغ الصرفية قد أصابها التطور.

ويمكننا في هذا السياق أن نقترح على المهتمين بالظاهرة الاستشراقية متابعـــة إنتاج المستشرقين المعاصرين في المجال اللغوي والأدبي بالدراسة النقدية والفحص العلمي الدقيق. والانتقال خلال ذلك من رصد الظاهرة الاستـــشراقية مـــن الناحيـــة الفكرية الأيديولوجية التي أشبعت بحثا في نظرنا إلى دراسة الظاهرة مـــن نـــواحي أخرى علمية خالية من الأحكام المسبقة.

الخاتمة

وفي آخر هذا البحث نخلص إلى جملة من النتائج نذكر منها :

1. ضرورة التقييم العلمي والموضوعي للدراسات الاستشراقية لظواهر اللغة العربية بعيدا عن النظرة السطحية والأحكام المسبقة .
2. أهمية الوصل بين ظاهرة اللحن، وظاهرة التطور اللغوي من أجل الوصول إلى تفسير وتعليل الكثير من المظاهر اللحنية في العربية.
3. التفريق بين ما هو لحن في الاستعمال اللغوي، وبين ما هو من قبيل التطور اللغوي.
4. إن المتحكم في سرعة التطور وبطئه (سيرورة التطور)، سرعة التحولات في مجالات الحياة، واتساع الحاجات التواصلية.
5. إن كلا من العوامل الداخلية والخارجية للتطور اللغوي، يعمل بدرجات متفاوتة وبتأثير غير متوازن قوة وضعفا.
6. إن التطور قد توزع على المستويات اللغوية بشكل متفاوت حيث ظهر على المستوى الدلالي والمعجمي بصورة واسعة، وتوسط حجم التطور على المستوى الصوتي، ويكاد ينعدم على المستوى النحوي والصرفي . خلافا لظاهرة اللحن التي أثرت على جميع المستويات اللغوية.
7. ضرورة الضبط العلمي لحدود التطور في اللغة العربية، حتى لا تفقد أسسها القواعدية، فيسكت عن اللحن تحت غطاء التطور.
8. دور ظاهرة التطور اللغوي في إيجاد شيء من الاعتدال بين المسرفين والمضيقين في إشكالية التصويب والتخطيء اللغوي.
9. تعد المدرسة الاستشراقية الألمانية من المدارس الرائدة في الدراسات اللغوية العربية، والمساهمة بقسط وافر، وتميزها بحيادها العلمي الظاهر.
10. يعتبر يوهان فك بكتابه "العربية" قد أسهم مساهمة جريئة عميقة تعد من أوائل الدراسات الحديثة لتأريخ التطور للغة العربية.

11. بقاء عدد من القضايا والظواهر اللغوية في كتاب "العربية" تحتاج إلى بحـــوث مستقلة بالرغم من أن الكتاب في عمومه لم يحظ بدراسات نقدية كافية.

فهرس المصادر والمراجع

I- الكتب العربية والمترجمة - الكتب العربية والمترجمة

1. القرآن الكريم برواية ورش عن نافع
2. ابن الأثير (ضياء الدين نصر الدين أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح محمد عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998.
3. الأصفهاني (أبو الفرج على بن الحسين ــ)، الأغاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت (د،ت).
4. الأفغاني (سعيد ــ)، في أصول النحو، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، دمشق، ط3، 1994.
5. أمين (أحمد ــ)، ضحى الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت ط 10، 1933.
6. أمين (عبد الله ــ)، الاشتقاق، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ط1، 1956.
7. ابن الأنباري (أبو البركات ــ) ، الإنصاف في مسائل الخلاف، دار الفكر، بيروت، ط1، 1982.
8. أنيس (إبراهيم ــ)، دلالة الألفاظ، دار الكتب، القاهرة، 1997.
9. أنيس (إبراهيم ــ) وآخرون، المعجم الوسيط، دار المعارف، ط2، 1982.
10. أولمان (ستيفان ــ) ، دور الكلمة في اللغة، ترجمة كمال بشر، دار غريب، ط12، 1997.
11. ابن بالي (علي القسطنطيني ــ)، خير الكلام في التقصي عن أغلاط العوام، تح حاتم الصالح الضامن، عالم الكتب، بيروت، ط1،1987.
12. باي (ماريو ــ) ، أسس علم اللغة، ترجمة أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط2، 1983.

13. بدوي (عبد الرحمن ــ) ، موسوعة المستشرقين، دار الملايين، بيــروت، ط3، 1993

14. ابن الأثير (ضياء الدين نصر الدين أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم ــ)، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تح محمد عويــضة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998.

15. الأصفهاني (أبو الفرج على بن الحــسين ــ)، الأغــاني، دار إحيــاء التراث العربي، بيروت (د،ت).

16. الأفغاني (سعيد ــ)، في أصول النحو، مديرية الكتــب والمطبوعــات الجامعية، دمشق، ط3، 1994.

17. أمين (أحمد ــ)، ضحى الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت ط 10، 1933.

18. أمين (عبد الله ــ)، الاشتقاق، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنــشر، القاهرة، ط1، 1956.

19. ابن الأنباري(أبو البركات ــ) ، الإنصاف في مسائل الخــلاف، دار الفكر، بيروت، ط1، 1982.

20. أنيس (إبراهيم ــ)، دلالة الألفاظ، دار الكتب، القاهرة، 1997.

21. أنيس (إبراهيم ــ) وآخرون، المعجم الوسيط، دار المعارف، ط2، 1982.

22. أولمان (ستيفان ــ) ، دور الكلمة في اللغة، ترجمة كمال بشر، دار غريب، ط12، 1997.

23. ابن بالي (علي القسطنطيني ــ)، خير الكلام في التقصي عن أغلاط العوام، تح حاتم الصالح الضامن، عالم الكتب، بيروت، ط1،1987.

24. باي (ماريو ــ) ، أسس علم اللغة، ترجمة أحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط2، 1983.

25.بدوي (عبد الرحمن ــ) ، موسوعة المستشرقين، دار الملايين، بيروت، ط3، 1993.

26.ابن بري (عبد الله بن أبي الوحش بري بن عبد الجبار ــ)، غلط الضعفاء من الفقهاء، تح حاتم صالح الضامن، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1987.

27.برجشتراسر (جوت هالف ــ)، التطور النحوي اللغوي للغة العربية، ترجمة، رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1997.

28.البطليوسي (أبو محمد عبد الله بن السيد ــ)، الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، تح محمد سل عيون السود، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط 1، 1999.

29.البعلبكي (رمزي منير ــ)، معجم المصطلحات اللغوية، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1990.

30.البغدادي (عبد القادر بن عمر ــ)، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تح محمد نبيل طريفي، إشراف إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998.

31.الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر ــ)، البيان والتبيين، تح عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، (د، ت).

32.الجمحي (ابن سلام ــ)، طبقات فحول الشعراء، تح محمود محمد شاكر، دار المدني، القاهرة، (د، ت).

33.الجوهري(إسماعيل بن حماد ــ)، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، تح أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط4، 1990.

34.الحريري (القاسم بن علي ــ)، درة الغواص في أوهام الخواص، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997.

35.حسان (تمام ــ)، اللغة بين الوصفية والمعيارية، عالم الكتب، القاهرة، ط4، 2001.

36.حسان (تمام ــ)، اللغة العربية معناها ومبناها، عالم الكتب، القــاهرة، ط3، 1998.

37.الحموي (ياقوت ــ)، معجم الأدباء، تح إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1993.

38.حماد (أحمد عبد الرحمن ــ) ، عوامل التطور اللغوي، دار الأنــدلس، ط1، 1983.

39.ابن الحنبلي (رضي الدين إبراهيم بن يوسف ــ)، سهم الألحاظ فــي وهــم الألفاظ، تح حاتم صالح الضامن، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1987.

40.الخطابي (أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم ــ)، إصلاح غلط المحدثين، تح حاتم صالح الضامن، عالم الكتب، بيروت ط1 1987.

41.ابن خلدون (عبد الرحمن أبو زيد ولي الدين ــ)، المقدمة، تح خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، 2004.

42.ابن خلكان (أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم ــ)، وفيات الأعيان، تــح يوسف علي الطويل وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1998.

43.داروين (تشارلز ــ) ، أصل الأنواع، ترجمــة إســماعيل مظهــر،الأنيس، الجزائر، 1991

44.الداية (فايز ــ)، علم الدلالة العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د،ت).

45.ابن الديبع (عبد الرحمن بن علي بن محمد الشيباني ــ)، تمييز الطيب مــن الخبيث فيما يدور على ألسنة الناس من الحديث، تح محمد عثمان الخشت، دار الهدى، الجزائر، 1991.

46.ديوران (ول ــ)، قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي، ترجمة فتح الله محمد المشعشع، مكتبة المعارف، بيروت، ط4، 1982.

47.زقزوق (حمود حمدي ــ)، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط1، 2008.

48.أساس البلاغة، تح إبراهيم قلاتي، دار الهدى الجزائر ط 1998.

37. الزمخشري (جار الله أبو القاسم محمد بن عمر ــ)، المفصل في صنعة الإعراب، تح إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1999.

38.سالم الحاج (ساسي ــ)، الظاهرة الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية،

الجامعة المفتوحة، طرابلس، ط3، 1997.

39.السامرائي (إبراهيم ــ)، التطور اللغوي التاريخي، دار الأندلس، بيروت، ط3، 1983.

40.السباعي (مصطفى ــ)، الاستشراق والمستشرقون، دار الوراق، بيروت، ط2، 2002.

41.سعيد (إدوارد ــ)، الاستشراق، ترجمة كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط4، 1995.

42.ابن السكيت، (أبو يوسف يعقوب بن إسحاق ــ)، إصلاح المنطق، تح أحمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف القاهرة، ط4 1949.

43.سليم (عبد الفتاح ــ)، موسوعة اللحن في اللغة مظاهره ومقاييسه، مكتبة الآداب القاهرة، ط، 2006 .

44.السيوطي، (جلال الدين ــ) المزهر في علوم اللغة وأنواعها، المكتبة العصرية، بيروت، 1986.

45. الإقتراح في علم أصول النحو، تح حمدي عبد الفتاح مصطفى خليل، مطبعة الجريسي، القاهرة، ط2، 2001.

46. الصالح (صبحي ــ)، دراسات في فقه اللغة، دار الملايين، بيروت، ط3، 1993.

صليبا (جميل ــ)، المعجم الفلسفي، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، 1994.

47.ضيف (شوقي ــ)، العصر العباسي الأول، دار المعارف القــاهرة، ط 12، 1966.

48.ظاظا (حسن ــ)، اللسان والإنسان، دار الفكر العربي، القاهرة (د،ت).

49.عبد التواب (رمضان ــ)، التطور اللغوي، مكتبة الخانجي، القــاهرة، ط3، 1997.

50. عبد التواب (رمضان ــ)، فصول في فقه العربية، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1994.

51. عبد التواب (رمضان ــ)، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغــوي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1997 .

52.عبد التواب (رمضان ــ)، لحن العامة والتطور اللغوي، مكتبة زهراء الشرق القاهرة، ط2، 2002.

53.العقيقي (نجيب ــ)، المستشرقون، دار المعارف، القاهرة، ط5، 2006.

54. أبو العدوس (يوسف ــ) الاستعارة في دراسات المستــشرقين، فلفهــار ت هاينريش نموذجا، الأهلية للنشر والتوزيع، لبنان، ط1، 1998.

55. علوش (جميل ــ) الإعراب والبناء، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيــع، بيروت، ط1، 1997.

56. عمايرة (إسماعيل أحمد ــ)، بحوث في الاستشراق واللغــة، دار وائــل، عمان، ط3، 2003.

57. عمايرة (إسماعيل أحمد ــ)، المستشرقون والمنــاهج اللغويــة، دار وائــل للطباعة والنشر، عمان، ط3، 2003.

58. عياد (علية عزت ــ)، معجم المصطلحات اللغوية والأدبية، المكتبة الأكاديمية، القاهرة، ط1، 1994.

59.عيد (محمد ــ)، المظاهر الطارئة على الفصحى، عالم الكتب القاهرة 1980.

60. عيد (محمد ــ)، الاستشهاد والاحتجاج باللغة، عالم الكتب، القاهرة، ط3، 1988.

61. ابن فارس (أبو الحسين أحمد ــ بن زكريا)، معجم مقاييس اللغة، تح عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط1، 1990.

62. فك (يوهان ــ)، تاريخ حركة الاستشراق، الدراسات العربية والإسلامية في أوربا حتى بداية القرن العشرين، ترجمة عمر لطفي العالم، دار المدار الإسلامي، ط2، 2001.

63. فك (يوهان ــ)، العربية، ترجمة رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1980.

64. فك (يوهان ــ)، العربية، ترجمة عبد الحليم النجار، الدار المصرية السعودية، القاهرة، 2006.

65.الفيروز آبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم ــ)، القاموس المحيط، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1995.

66.ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم ــ)، أدب الكاتب، المكتبة العصرية، بيروت، 2004.

67. الشعر والشعراء، تح مفيد محمد قميحة وآخرون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000.

68عيون الأخبار، تح مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 3، 2003.

69.قدور (أحمد محمد ــ)، اللسانيات وآفاق الدرس اللغوي، دار الفكر، دمشق، ط1، 2001.

70.كرم (يوسف ــ)، تاريخ الفلسفة الحديثة، دار القلم، بيروت، (د،ت).

71.الكسائي (أبو الحسين علي بن حمزة ــ)، ما تلحن فيه العامة ، تح رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، 1982.

72.كشلي فواز (حكمت ــ)، الأب انستاس ماري الكرملي والمساعد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1996.

73.مختار عمر (أحمد ــ)، أخطاء اللغة العربية المعاصرة عند الكتاب والإذاعيين، عالم الكتب، القاهرة، ط3، 2001.

74.مختار عمر (أحمد ــ) العربية الصحيحة، عالم الكتب، القاهرة، ط 2، 1998.

75.مختار عمر (أحمد ــ)، علم الدلالة، دار الكتب، القاهرة، ط4، 1993.

76.مجمع اللغة العربية القاهرة، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، القاهرة 1983.

77. مراد (يحيى ــ)، معجم أسماء المستشرقين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004.

78. المعتوق (أحمد محمد ــ)، الحصيلة اللغوية، عالم المعرفة، الكويت، 1996.

79. ابن مكي الصقلي (أبو حفص عمر بن خلف ــ)، تثقيف اللسان وتلقيح الجنان، تح عبد القادر عطاء، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط1، 1990.

80. المناوي (عبد الرؤوف ــ)، التوقيف على مهمات التعاريف، تح عبد الحميد صالح الحمدان، عالم الكتب القاهرة، ط1، 1990.

81. ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين بن محمد بن مكرم ــ)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط1، 1955.

82. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2002 .

83. المنجد (صلاح الدين ـــ) المستشرقون الألمان، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط1، 1978.

84. الشريف (ميهوبي ـــ)، دراسة في التأصيل والتطور، دار هومة، الجزائر، 2002.

85. النملة (علي بن إبراهيم ـــ)، المستشرقون والتنصير، دار الكتاب الجديد، ط1، (د،ت).

86. ابن هشام اللخمي (أبو عبد الله بن أحمد الأندلسي ـــ)، المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان، تح مأمون بن محي الدين الجنان، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1995.

87. أبو هلال العسكري (الحسن بن عبد الله بن السهل بن سعيد بن يحيى بن مهران ـــ) الفروق اللغوية، تح لجنة إحياء التراث، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط5، 1981.

88. هويدى (أحمد محمود ـــ)، الاستشراق الألماني تاريخه وواقعه وتوجهاته المستقبلية، مطابع دار التعاون للطبع والنشر، القاهرة 2000.

89. هويدى (شعبان هويدى ـــ)، التطور اللغوي منهج وتطبيق، المطبعة المدنية، دار السلام، 1985.

90. وافي (علي عبد الواحد ـــ)، علم اللغة، دار النهضة، القاهرة، ط7، 1982.

91. وافي (علي عبد الواحد ـــ) فقه اللغة، مطبعة الرسالة، القاهرة، ط5، 1968.

92. وافي (علي عبد الواحد ـــ)، اللغة والمجتمع، دار النهضة، القاهرة، (د، ت).

93. وهبة (مجدي ـــ) وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان بيروت، ط2، 1984.

94. ياقوت (محمود سليمان ــ)، فقه اللغة وعلم اللغة، دار المعارف الجامعية، القاهرة، 1995.

95. ياقوت (محمود سليمان ــ)، ظاهرة الإعراب في النحو العربي، دار المعرفة الجامعية، القاهرة،ــ 2003.

96. يعقوبي (محمود ــ)، معجم الفلسفة، مطبعة البعث، الجزائر، 1979.

97. يودين (روزنتال ــ)، الموسوعة الفلسفية، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة، بيروت، 1967.

II- المجلات والدوريات

1. المقدسي (أنيس ــ)، العوامل الخفية في التطور اللغوي مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، الجزء 1- 2- مجلد 44، عدد خاص كانون الثاني، 1969.

2. الحاج صالح (عبد الرحمن ــ)، المعجم التاريخي وشروط إنجازه مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، المجمع الجزائري للغة العر بية، الجزائر، العدد الخامس، جوان 2007.

3. ميمون (ملك)، المستشرقون ودراسة العروض العربي عالم الفكر، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، المجلد ، العدد.

III- المراجع الأجنبية

1. **Mounin (Gorge -), dictionnaire de linguistique, Quadriage, duf, paris, Edt, N°: 4, 2004.**
2. **Dubois (Jean -) et autres, Dictionnaire de linguistique larouess, paris, Edt N°:1 1994.**

IV- الرسائل الجامعية

1. غربي بكاي، الاقتصاد اللغوي وفاعلية الاتصال، رسالة جامعية بإشراف أحمد عزوز، جامعة وهرن، 2005/2006.

V- المواقع الإلكترونية

1. http://www.catalogus-professorum-halensis.de/fueckjohann.html. 29/06/2008.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

المحتويات	الصفحة
الإهداء	
الشكر والعرفان	
المقدمة	أ
المدخل : ظاهرة التطور اللغوي أسس وخلفيات	07
تمهيد	08
1) مفهوم التطور في اللغة والاصطلاح	09
أ. مفهوم التطور في اللغة	09
ب. مفهوم التطور في الاصطلاح	11
1. مفهوم التطور عند القدامى	11
2. مفهوم التطور عند المحدثين	12
2) الأسس الفلسفية لظاهرة التطور	15
3) ظاهرة التطور في اللسان البشري	18
4) الدرس اللغوي بين المنهج التاريخي والمنهج المقارن	19
أ. المنهج التاريخي	20
ب. المنهج المقارن	23
الفصل الأول :اللغة العربية بين ظاهرتي اللحن والتطور اللغوي	26
تمهيد	27
1) مفهوم اللحن في اللغة والاصطلاح	28
أ. مفهوم اللحن في اللغة	28
ب. مفهوم اللحن في الاصطلاح	30
2) أسباب ظهور اللحن في العربية	32
أ. حركة وضع الشعر وأثرها في انتشار اللحن	33
ب. وقوع اللحن من العلماء والخلفاء	35
جـ. الاضطرابات السياسية والفساد الاجتماعي وحياة الترف والبذخ وأثرها على فساد اللسان	36
3) مستويات اللحن	38

أ. المستوى الصوتي	38
ب. المستوى الصرفي	38
جـــ. المستوى النحوي	39
د. المستوى الدلالي	41
4) حركة التأليف في التنقية اللغوية ومناهجها المختلفة	43
أ. منهج التصويب والتخطيء عند القدامى	43
ب. منهج التصويب والتخطيء عند المحدثين	50
5) مفهوم التطور اللغوي	54
6) عوامل التطور اللغوي	56
أ. العوامل الخارجية للتطور اللغوي	56
1. الاحتكاك اللغوي	56
2. الشيوع وكثرة الاستعمال	58
3. العامل الزمني والتاريخي	59
4. أثر العوامل الاجتماعية	60
5. أثر العوامل الاقتصادية والحضارية	62
6. العوامل البيئية والجغرافية	63
7. الدين وأثره في التطور اللغوي	64
8. النشاط السياسي والتطور اللغوي	65
ب. العوامل الداخلية للتطور اللغوي	67
1. الاشتقاق	67
2. المجاز	69
3. الترادف	71
4. الاشتراك	72
5. التضاد	73
6. اللحن والتركيب	74
7. القلب والإبدال	75
8. الاقتصاد اللغوي	77

7) مظاهر التطور اللغوي ومستوياته	78
أ. المستوى الصوتي	78
ب. المستوى الدلالي	82
جـ. المستوى الصرفي	84
د. المستوى النحوي	85
هـ. المستوى المعجمي	86
الفصل الثاني : "يوهان فك" وكتابه "العربية"	89
تمهيد	90
1) نماذج من المستشرقين في المدرسة الألمانية	92
1. رايسكه جوهان جاكوب	98
2. إيفالد هينرش	100
3. جولد تسيهراجنتس	101
4. تيودور نولدكه	103
5. برجشتراسر جوتهالف	104
6. فيشرا رجست	106
7. كارل بروكلمان	109
8. دايم فرنر	111
2) يوهان فك حياته وآثاره	117
أ. ترجمة يوهان فك	118
ب. آثار يوهان فك ومؤلفاته	119
3) كتاب العربية منهجه ومحتوياته	120
أ. منهج الكتاب	121
ب. محتويات الكتاب	126
4) قيمة الكتاب وآراء النقاد والدارسين فيه	133
الفصل الثالث : آليات التطور اللغوي عند "يوهان فك"	141
تمهيد	142
1) عوامل التطور اللغوي عند "يوهان فك"	142
1. إنتقال العربية بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى مواطن لغوية أجنبية	143

2. الميل إلى السهولة والتيسير	145
3. الانتقال من حياة البداوة إلى حضارة المدن	148
4. الاستعمال وأثره في التطور اللغوي	150
5. الإحتكاك اللغوي	151
6. انتقال العربية الفصحى من السليقة والفطرة إلى التعلم والاكتساب	152
6. العامل الثقافي	156
7. اتساع دائرة الاحتجاج اللغوي وأثره على العربية	157
8. العامل العسكري وتوابعه	161
9. العامل الإعلامي	163
2) مظاهر التطور اللغوي ومستوياته عند "يوهان فك"	163
أ. المستوى النحوي	164
1. تلاشي علامات الإعراب على ألسنة العامة والخاصة	164
ب. المستوى الصوتي	172
جـ. المستوى الدلالي	173
د. المستوى المعجمي	175
الخاتمة	180
فهرس المصادر والمراجع	183
فهرس الموضوعات	193

Résumé

Presque à l'unanimité, les chercheurs considèrent les langues comme étant un être vivant qui évolue et qui se développe sous l'influence d'un certain nombre de facteurs et de causes. Les langues obéissent donc aux besoins de l'homme selon des circonstances spatio-temporelles ; celles-ci ne sont ni fortuites, ni d'une coïncidence absolue.

La langue quelque soit sa nature, est régie par des lois considérées comme naturelles, ceci ne signifie pas que nous devons ignorer ces lois qui régissent la langue et de ne pas dévoiler les énigmes de son fonctionnement.

Il est important de savoir que les phénomènes linguistiques sont libres dans leurs circulations, et dans leurs évolutions. Ils peuvent s'orienter vers n'importe quelle direction, mais toujours sous l'égide d'une loi linguistique déterminée.

On ne peut étudier les phénomènes de la langue, ni identifier ses concepts et ses tendances, sans être subjectif, la langue naturelle vit au sein des gens et au milieu de la société, elle titre son existence de celle-ci, des traditions et coutumes, et du comportement de ses membres, car elle se développe ou dégénère avec l'évolution ou la dégénérescence de la société.

Pour de nombreux chercheurs, la langue n'est pas le produit d'une ou de plusieurs personnes, mais une conséquence inévitable –naturelle- de la vie dans la communauté, avec ses membres qui se trouvent dans le besoin d'un mode de compréhension et d'expression : c'est la langue. La langue est soumise à la constante évolution des différents éléments ; ses voix, ses règles, ses discours et ses significations.

L'évolution de la langue ne dépend pas des caprices ou des coïncidences, mais dépend de la volonté des individus sans que ceux-ci ne soient aptes à mettre fin à ce développement.

Les chercheurs orientalistes qui ont pris avec attention pour objet d'étude l'arabe, ont réalisé que la langue arabe possède des propriétés et des caractéristiques qui ne sont pas détenues par d'autres langues sémitiques. Parmi ces chercheurs, il y a ceux qui étaient équitables et impartiaux dans leurs examens scientifiques du patrimoine arabo-musulman. L'école allemande était plus proche de cette perspective scientifique, neutre de toute interférence idéologique et nous prenons comme exemple le chercheur **Johann fuck** qui a été unique dans son étude de l'évolution historique de la langue arabe , il a fait un effort d'extrapolation et une enquête sans précédent dans les yeux des critiques ,on le voit dans son livre « la vie de la langue arabe » depuis les temps anciens ;il a ainsi étudié les différents facteurs qui ont influé sur la croissance et l'évolution de l'arabe à travers l'histoire, il a également découvert l'existence du

solécisme dans l'arabe expliquant les efforts des scientifiques en langage technique. Après examen du dit livre, nous constatons que l'idée de l'évolution est l'idée centrale sur laquelle se base le livre, alors pourrons-nous considérer ce livre comme modèle ou spécimen orientaliste de l'étude de la langue arabe ? Eest-il possible de considérer les efforts des orientalistes en études linguistiques comme repère ? Quel est le degré de réussite atteint par **Johann fuck** dans son extrapolation historique de la vie de l'arabe ? A-t-il profité d'autre approches ? Comment il les a investies ?Quelle est la relation entre le phénomène de solécisme et le développement linguistique ? Quels sont les efforts des linguistes dans leur mouvement vers la technicité de l'arabe ? Quel est le point de vue des protagonistes et celui des partisans sur ce point ? Est-il possible d'établir une étude comparative visant à examiner le phénomène d'évolution linguistique entre scientifiques arabes et orientalistes ?

Pour répondre à ces questions et à d'autres, nous avons étudié l'œuvre de **Johann fuck** dont la question centrale est l'évolution linguistique à la recherche des concepts, des mécanismes, des lois et des manifestations de ce phénomène.

Les justifications et les objectifs attendus sont résumés ci-après :

1. Peu d'études sur le phénomène de l'évolution de la langue arabe.
2. Peu d'examinateurs du livre «l'arabe » de **Joham fuk.**
3. valorisation des études sur le phénomène de l'orientalisme et des orientalistes.
4. Détecter la méthode considérée par les orientalistes allemands dans l'étude de la langue arabe.
5. Reconnaître la valeur des efforts et des contributions faites par les orientalistes.
6. L'évaluation scientifique des efforts faits par les orientalistes dans leurs études des phénomènes linguistiques de l'arabe.
7. Mise en évidence des différences de points de vue sur le phénomène du solécisme .
8. L'ambiguïté des limites et des règles qui régissent l'évolution du phénomène linguistique.
9. Atrophie des études historiques de la langue et domination d'autres approches de la linguistique contemporaine.
10. Le fait de ne pas différencier entre ce qui est lyrique dans la langue d'utilisation, et ce qui est évolution linguistique.
11. La confusion entre les niveaux de la langue d'utilisation et les langues éloquentes recherchées.

Notre mémoire est constitué d'une introduction, de trois chapitres et d'une conclusion. L'introduction a abordé le phénomène de l'évolution linguistique dans ses fondements philosophiques et ses connaissances de base. Nous avons montré la notion de l'évolution de la langue d'un point de vue terminologique et philosophique. Puis, le phénomène de l'évolution dans l'acte de parole, ensuite nous avons parlé de la leçon de langue entre approche d'évolution

historique et approche comparative, ainsi que les fruits de la recherche scientifique .

Le premier chapitre a été consacré à la recherche sur la langue arabe entre solécisme et évolution linguistique. Nous avons discuté de la notion du solécisme , de ses causes et de ses niveaux .Nous nous sommes penchés sur l'activité d'édition des technicités linguistiques, ses différences linguistiques entre les anciens et les modernes. Par ailleurs, nous avons aussi parlé du concept de l'évolution linguistique,ses facteurs sous-jacents,ses niveaux,et ses manifestations.

Le deuxième chapitre a été consacré à l'école orientaliste allemande et ses importants chercheurs qui ont centré leurs efforts autour de la langue arabe et ses phénomènes ;parmi eux nous avons cité :Prokelman,Fisher et bien d'autres. Nous avons ciblé l'orientaliste allemand « **Johann fuck** » et avons parlé de sa vie, de ses efforts et de ses travaux scientifiques , puis nous avons passé en revue son livre : «arabe » pour indiquer son approche et son contenu. Finalement on a essayé de mettre en valeur ce livre et d'exposer les avis des différents critiques.

Nous avons consacré le troisième chapitre à la recherche des mécanismes de l'évolution linguistique chez **Jahann fuck** ,nous avons disculpé ce phénomène chez les anciens chercheurs arabes dans une perspective fondamentaliste,puis nous avons étudié ses facteurs d'évolution, ses phénomènes, ses niveaux sur les plants :lexical,sémantique,phonétique,et d'autres dans son livre « l'arabe ».